

د. علاء طه رزق

عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك

في تاريخ مصر الاجتماعى

عامة القاهرة
فى عصر سلاطين المماليك

تأليف

د. علاء طه رزق

كلية التربية - دمياط

جامعة المنصورة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والإجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

الناشـر: عين للدراسـات والبحـوث الإنسانية والاجتماعيـة

٥ شارع ترعة المريوطية – الهرم – ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

E-mail : dar_Ein@hotmail.com

الإهداء

إلى روح أستاذى الأول ... « أبى »

عـلاء

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تأتى علة القصور فى الرؤية التاريخية لكثير من المؤرخين القدامى والمحدثين فى ذلك التلازم بين عملية التأريخ وأرباب السلطتين الزمنية والدينية مما حدا بالمؤرخ أن يدون الأحداث بمعزل عن تلك الطبقات الشعبية ـ صانعة الأحداث ـ والتى أبت إلا أن تعيد صياغتها فى إطار « أسطورى » يكشف فى مضمونه عن أفكار الشعوب ، واتجاهاتها ، وميولها فى مختلف ميادين الحياة السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والدينية [1] .

ومن الأهمية بمكان أن تقوم دراستنا لعلم التاريخ فى نطاق النظرية الاجتماعية المتصلة بالنشاط الإنسانى لأى عصر إذ أن المجتمع هو الأساس المشترك للأفعال التاريخية وعناصره هى تلك القوى البشرية التى تؤتى هذه الأفعال بصورها المختلفة لكى تتشكل شخصية هذا المجتمع وتتحدد درجة وعيه الحضارى من خلال إفادته بموروثاته وخبراته المتراكمة عبر العصور [2] .

ويعد تاريخ مصر فى عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ـ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م) من أزهى فترات الدراسات التاريخية فى العصور الوسطى بما اشتمل عليه من مظاهر التفوق السياسى والاقتصادى والعسكرى والثقافى لمصر بين شتى بلاد

---

(١) كتب الأدب الشعبى ، وعن الموضوع ، قاسم عبده قاسم : بين الأدب والتاريخ (القاهرة ، دار فكر ١٩٨٦) ، أحمد مرسى : التاريخ بين الواقع والأسطورة (الكويت ، عالم الفكر ، م ١٧ ، ع١) ، أحمد أبو زيد : الواقع والأسطورة فى القصص الشعبى (الكويت ، عالم الفكر / ١٧ ع١ ، ١٩٨١) ج١ ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ ـ ص ٤١٢ ـ ٤١٧ ، فاروق خورشيد : السيرة الشعبية (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨م) .

(٢) المزيد من التفاصيل : توينبى : مختصر لدراسة التاريخ ، ترجمة محمد فؤاد شبل (القاهرة ، ط٢، ١٩٦٦م) ، جيب : علم التاريخ ، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخران (بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ، ط١ ، ١٩٨١) ص ٩٦ ـ ١٠٠ .

Popper, K.R: the Poverty of Historicism, London 1967, p.41.

العالم بفضل إنجازات القوى الشعبية المعاصرة من المصريين العاملين فى المؤسسات الإنتاجية المتعددة فى الريف والحضر ومن ثم فإن الحياة الفكرية والأدبية قد بلغت ذروتها فى القرنين الثامن والتاسع / ١٤/ ١٥م وهى الفترة التى شهدت نهاية الدولة المملوكية الأولى (البحرية) وبداية الدولة المملوكية الثانية (البرجية) .

وفى هذين القرنين برزت نخبة من العلماء والكتاب الذين أسهموا بنصيب وافر فى إثراء حركة التدوين التاريخى والتى خلفت لنا جملة من « المصادر » لم تعتن ـ إلى حد كبير ـ برصد واقع حياة الطبقات الشعبية بقدر اعتنائها برصد الظواهر السياسية والعسكرية والعوائد الاجتماعية المتفردة للطبقة العسكرية الحاكمة مما انعكس سلبا على معرفة كثير من الباحثين بالدور التاريخى الحقيقى للشرائح الاجتماعية المصرية وأنماط الحياة اليومية ، والتفاعلات الثقافية لكافة الفئات الشعبية التى جاء دورها مهمشا فى تلك المصادر .

ومن هنا تبدو أهمية هذه الدراسة عن « عامة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك » إذ أن العامة وهم السواد الأعظم من سكان مدينة القاهرة قد عاشوا على هامش الحياة السياسية والعسكرية للطبقة المملوكية الحاكمة (السلطان ـ الأمراء ـ الجند) برغم أنهم كانوا يمثلون عصب الحياة الاقتصادية والعمود الفقرى لواقع الحياة الاجتماعية والتفاعلات الثقافية ، واقتصر دورهم فى منظور الدولة على دفع الضرائب وصناعة ما تحتاج إليه الترسانة الحربية من الآلات والعتاد وكافة أنواع أعمال السخرة التى عرفها هذا العصر دون أدنى حق للشرائح الاجتماعية المنتجة فى ممارسة حقوقها السياسية أو أن تكون لها ملكية لوسائل الإنتاج ، أو مشاركة نصف عادلة فى الثروة القومية للبلاد .

وفى تصورنا أن الدور العسكرى المتميز لفرسان المماليك فى الشرق العربى الإسلامى وبخاصة فى معركة المنصورة ضد الصليبيين سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م وهزيمة المغول فى معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م قد أفسح المجال بشكل مطلق أمام كثير من المؤرخين المسلمين المعاصرين للتعبير بأقلامهم عما حققه هؤلاء الفرسان بسيوفهم فى ميادين القتال حتى صار النظام العسكرى المملوكى

أساسا لكتاباتهم السياسية والاقتصادية فى ضوء النظرية الحاكمة القائمة على القهر المادى والاستبداد المعنوى لكافة الشرائح الاجتماعية فى مصر .

كذلك تكتسب تلك الدراسة أهمية خاصة فى ضوء العلاقة السببية بين الدور الاجتماعى للعامة فى القاهرة والدور الاقتصادى بحيث لا يمكن للباحث فصل أى منهما عن الآخر عند التعرف على الهوية الحضارية للمجتمع المصرى ومراحل الصعود والهبوط فى المنحنى السياسى للدولة نتيجة التأثر بحركة القواعد الشعبية التى ينهل من معينها النظام المملوكى الحاكم .

ولعلى حين شرعت فى لستقراء المصادر التاريخية المعاصرة لم يكن مصطلح « العامة » أو « العوام » يتعدى فى تصورى تلك الفئات المعدمة أو شبة المعدمة من السفلة والأراذل والأوباش والدهماء (Folk) الذين لشارت إليهم تلك المصادر فى إطار « المجاعة » أو « الشغب » من أجل رغيف الخبز وممارسة أعمال السلب والنهب لبيوت الأثرياء من الأمراء ومياسير التجار المغضوب عليهم وربما ساعد على هذا التصور القاصر من جانبى فى بداية الأمر كتابات بعض المؤرخين [1] الذين اغفلوا الدور الاجتماعى والاقتصادى لشرائح العامة مكتفين برؤيتهم الاستعلائية لتلك الشرائح الاجتماعية وكأن العامة وهم المصريون كانوا أمةً من الغوغاء لا نصيب لها فى كتابات هؤلاء المؤرخين سوى الازدراء والتحقير وإلقاء اللائمة عليهم فيما هم فيه من العنت والضنك وسوء المعيشة .

وعندما انتهيت من جمع مادتى العلمية كنت قد وضعت لنفسى تصورا آخر للعامة فى القاهرة يكشف الأبعاد الحقيقة لهذا المصطلح فى ضوء النظرية السياسية الحاكمة التى ترى كل المصريين رعايا للسلطان لا يعصونه فى أمر ويفعلون ما يؤمرون فى إطار الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية التى تمر بها الدولة من

---

[1] نذكر هنا مثلا المؤرخ ابن تغرى بردي (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م) الذى كان من طبقة « أولاد الناس » ومقرباً من البلاط السلطانى فى عصر المماليك الجراكسة بحيث صار مؤرخهم الرسمى وهو ما يبدو واضحا فى حولياته وتراجمه التاريخية (الباحث) .

ناحية وطبيعة الحاكم الجالس على العرش وميوله واتجاهاته وأهوائـــه مـــن ناحيـــة أخرى .

وقد نهجت فى هذه الدراسة نهجاً موضوعيا لم ألتزم فيه بالتسلســـل الزمنـــى للأحداث (Chronology) المتعارف عليه فى كتب الحوليات حتى لا تكون الدراسة نوعا من التذييل السياسى لتاريخ سلاطين المماليك مما يفرغها من مضمونها القـــائم على الرؤية الشمولية للظواهر التاريخية وإن كنت قد التزمت بـــهذا التسلســل فـــى معرض التمثيل لأسباب ونتائج الحديث عن العامة فى إطار الفكرة الواحـــدة المـــراد البحث فيها .

وفى ضوء المنهج التحليلى فى تفسير أحوال العامـــة السياســـية والاقتصاديـــة والاجتماعية والدينية والثقافية قسمت هذه الدراسة إلى خمسة فصول مسبوقة بمدخل استعرضت فيه الخلفية التاريخية لنشأة الدولة المملوكية فى ظل الخلافـــة الإســـلامية وظروف قيام حكم سلاطين المماليك .

كما عرضت لمدينة « القاهرة » ـــ عاصمة الدولة ، والعنصر المكانى الرئيـــس للدراسة ـــ منذ نشأتها فى بداية العصر الفاطمى فى مصر كمدينة خاصة بالســـلطان وحاشيته وجنوده وحتى صارت سكنى العامة فى أواسط هذا العصر وما صاحب ذلـــك من تطور فى فنون البناء والعمارة وأثر ذلك على أحوال العامـــة الاجتماعيـــة مـــع الإشارة إلى ظاهرة النمو السكانى فى بداية العصر المملوكى وأسباب ذلـــك النمـــو . كذلك يعرض المدخل أهم العوامل التى صاحبت الأفول السياسى للدولـــة فـــى أوائـــل القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى .

وفى الفصل الأول « العامة فى البناء الطبقى لمجتمع القاهرة » نتناول البنـــاء الطبقى للمجتمع المصرى فى مدينة القاهرة فى ضوء النظرية السياســـية للعصـــر ، ومحصلتها التى تقسم المجتمع إلى قسمين هما : الطبقة الحاكمة والعامة ، وطبيعـــة العلاقة بين السلطان وفئات العامة مع دراسة كل فئة على حدة حسب موقعـــها فـــى

البناء الطبقى للعامة فى إطار علاقتها بالسلطة من ناحية ودورها الإنتاجى من ناحية أخرى مع الإشارة تفصيلاً للفئات السفلى فى هذا البناء الطبقى والتى آلت بها الظروف السياسية والاقتصادية إلى التردى فى هوة البطالة والحاجة وحياة الفقر والفاقة .

أما الفصل الثانى « الدور السياسى للعامة » فيعرض لطبيعة العلاقة بين العامة والسلطة الحاكمة من خلال المشاركة الفعلية فى الأحداث السياسية أو إبداء المعارضة من حين إلى آخر على بعض المواقف من جانب أرباب السلطة ، أو فى شكل العنف السياسى خاصة فى أواخر هذا العصر والذى بلغ حد الاغتيالات والتصفية الجسدية فضلا عن الثورات التى قام بها العامة فى صورة « هبات » لإثارة المطالب الاجتماعية كرفع الضرائب ، أو تخفيض أسعار بعض السلع الأساسية ، أو غير ذلك من أعباء الحياة اليومية وموقف الدولة منها وكيفية التغلب على هذه الثورات طوعاً أو كرهاً بمعرفة أعوان السلطان من الأمراء والجند .

ويأتى الفصل الثالث عن « الدور الاقتصادى للعامة » ليتناول الدور الإنتاجى لشرائح العامة من التجار ، والحرفيين ، والصناع ، والباعة ، والسوقة وغيرها من الشرائح الاجتماعية المنتجة التى كان لها دور فى إثراء حركة الاقتصاد المصرى وإنعاش العلاقات التجارية بين مصر وسائر بلاد العالم فى أواخر العصور الوسطى ، كذلك يتناول هذا الفصل جوانب النشاط اليومى للقوى الإنتاجية العاملة فى الأسواق ، والقياسر ، والمتاجر ، والمصانع ، والحوانيت وغيرها من المؤسسات الاقتصادية والإنتاجية ، وأدوار الصعود والهبوط فى الحالة الاقتصادية لشرائح العامة فى إطار الظروف والمتغيرات السياسية والعسكرية .

بينما يأتى الفصل الرابع « دور العامة فى الحياة الاجتماعية » ليتكامل مع الفصل السابق من حيث العلاقة بين التطور الاقتصادى للمجتمع وأحوال العامة الاجتماعية ، و تأثرت تلك الأحوال إيجابا أو سلباً بهذا التطور ، وانعكاساته على مظاهر النشاط الحياتى اليومى للعامة فى الأسواق ، والحمامات ، والوكالات ،

والفنادق ، والخانات وغيرها بالإضافة إلى مظاهر الاحتفالات الدينية والقومية التي حرص العامة على المشاركة فيها بغض النظر عن التباين العقيدى بينهم مما يجعلنا نبحث فى مظاهر الاحتفالات والأعياد فى إطار قومى شارك فيه ـ أحيانا ـ السلطان وأفراد الطبقة الحاكمة من الأمراء والجند .

وفى الفصل الخامس نتناول « النتاج الثقافى للعامة » والأطر السياسية والاقتصادية والدينية التى حوت بداخلها مجموعة من فنون القول (الأدب ، الشعر ، الزجل ـ الأمثال ...) وفنون الشكل (العمارة ـ النحت ـ التصوير ـ الرسم ـ ...) وعلاقة هذا النتاج الثقافى بأحوال المجتمع السياسية والاقتصادية والتى لا تزال آثارها القولية والشكلية باقية حتى يومنا هذا فى إطار السيرة الشعبية وفنون العمارة المملوكية .

كما ننهى الدراسة بخاتمة نعرض فيها لأهم النتائج المستخلصة من هذه الدراسة .

ويبقى أن نشير إلى صعوبة البحث فى مثل هذا النمط من الموضوعات التى تتصل بتاريخ مصر الاجتماعى ـ عامة ـ وتاريخ عامة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك ـ خاصة ـ إذ أن هذا النمط من الدراسات كان ـ ولم يزل ـ تكتنفه حالة من الغموض بسبب إعراض كثير من المؤرخين المعاصرين عن ذكر تاريخ الرعية وإسرافهم فى الحديث عن تاريخ الحكام خوفا وطمعا وفى نفس الوقت فإن كثيراً من الباحثين المحدثين يحجم عن الخوض فى مثل هذه الدراسات أخذا بمبدأ السلامة فى مجال البحث العلمى لما توفره له المصادر التقليدية من مادة علمية سياسية وعسكرية خصبة تثرى معالجته لأى موضوع يتصل بالطبقة الحاكمة .

كذلك فإن الكتابة عن « العامة » لابد أن تكشف لهم عن جانب كبير من مساوئ الذين يحكمون مما يثير نوعا من الحساسية والحرج عند عرضها فى الأوساط الأكاديمية فضلا عن الجهد المضاعف الذى يبذله الباحث فى تجميع المادة

العلمية المتناثرة فى بطون المصادر وإعادة ترتيبها لكى تتوافق مع عناصر البحث ولذلك فإننى استعنت فى هذه الدراسة ببعض المصادر الأدبية لتذليل هذه الصعوبة ـ بقدر ما ـ لما تحمله هذه المصادر من دلالات تاريخية سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية فى محاولة منا لاسترداد الحقائق الضائعة فى تاريخ الشعب المصرى ـ المصدر الرئيس للحضارة ـ وإزالة الصدأ عن الجانب المسكوت عنه فى كتابات المؤرخين المعاصرين آملاً أن تكون هذه الدراسة(*) فاتحة ضير لمزيد من الدراسات فى مجال تاريخ مصر الاجتماعى فى العصور الوسطى .

والله ولى التوفيق

د . علاء طه

دمياط الجديدة فى ١٥ يناير ٢٠٠٣م

(*) تم إعداد هذه الدراسة فى شتاء سنة ١٩٨٩م ونوقشت لنيل درجة الماجستير من كلية الآداب جامعة الزقازيق (فرع العصور الوسطى) فى ربيع سنة ١٩٩٠ م تحت أشراف أ.د. قاسم عبده قاسم ، وكانت الدراسة الأولى من نوعها بين جمهور الباحثين فى الجامعات المصرية والعربية من حيث تناولها لتاريخ عامة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك (الباحث) .

مدخل الدراسة

الظهور السياسى للمماليك فى الشرق الإسلامى - قيام الدولة المملوكية فى مصر - إحياء الخلافة العباسية فى مصر - النظرية السياسية للدولة المملوكية - تأسيس مدينة القاهرة - التطور العمرانى والسكانى لمدينة القاهرة - أحوال العامة فى مدينة القاهرة- سقوط النظام السياسى المملوكى فى مصر .

عرف الشرق العربى الإسلامى المماليك ـ ظاهرة سياسية ـ فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وبالتحديد فى عهد الخليفة العباسى المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ ـ ٨٤٣ م) الذى أكثر من « الغلمان الأتراك » ليشركهم فى أمره ويشدد بهم أزره ، ويدعم بهم نفوذه السياسى بعد غياب ثقته بالعرب وحلولها فى بنى خنولته الأتراك الذين تشبه بهم الخليفة فى عامة أحواله حتى « دانت الدنيا لهم » وصارت لهم دولة عظيمة [١] .

وحين رأى الخليفة المعتصم التذمر العام بين الرعية يسود العاصمة ـ بغداد ـ بسبب ممارسات جنود العجم مع أهلها أعرض عنها غاضبا ليولى وجهه شطر « سامراء » التى كان تبعد عن « بغداد » مسافة مائة كيلو متر شمالاً ـ متخذا إياها عاصمة جديدة للخلافة العباسية [٢] .

وقد حرص مؤسسا الدولتين الطولونية (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م) والأخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ ـ ٩٦٩ م) على الاستكثار منهم حتى بلغ عددهم ما يزيد على أربعمائة آلف جندى وذلك لدعم نفوذ الدولتين السياسى فى مواجهة الخلافة العباسية معتمدين فى ذلك على موقع مصر الجغرافى المتميز وغناها وكثرة مواردها [٣] .

وبعد أن استتب الأمر بالفاطميين فى شمال أفريقيا اتجهوا بأبصارهم شرقا صوب « القاهرة » لتكون مركزا حيويا لدولة شيعية مستقلة تناهض الدولة السنية فى « بغداد » ومن ثم كانوا فى حاجة إلى جيش كبير يستطيعون به حماية سلطانهم

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (بيروت ، دار الكتاب العربى ، ط ٦ ، ١٩٨٦م) جـ٥ ، صـ ٢٣٦ ، المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق د . محمد مصطفى زيادة و د . سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ، ٣٤ ـ ١٩٧٣م) جـ ١ ق١ ص ١٥ ـ ١٧ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٣) فايد حامد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول (القاهرة ، ١٩٧٤) ص ١١ .

فلجئوا إلى شراء « المماليك » [١] الأتراك الذين حافظوا لهم على استقلال دولتهم واستقرار وجودهم السياسى فى القاهرة لأكثر من قرنين (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ ـ ١١٧١م) .

ولما قامت الدولة الأيوبية فى مصر (٥٦٧ ـ ٦٤٨ هـ / ١١٧١ ـ ١٢٥٠م) جلب خلفاء صلاح الدين الأيوبى أعداداً غفيرة من المماليك للاستعانة بهم فى الحرب الدائرة بينهم حسداً من عند أنفسهم على ما خلفه لهم مؤسس دولتهم من أملاك وثروات، فاستزادوا من شراء هؤلاء المماليك خاصة فى مصر التى كانت مركزا رئيسا لتدريب وإعداد الوافدين عليها من شتى الأجناس بصحبة النخاسين وكان لهم نظام تعليمى صارم يقوم أساساً على التربية العسكرية وبعض مبادئ العقيدة الإسلامية [٢] .

ويعد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ ـ ٦٤٧ هـ / ١٢٣٨ ـ ١٢٤٩م) المسئول الأول عن تأسيس فرقة المماليك البحرية فى مصر بعد أن تخلى عنه جنوده الأكراد فى نابلس فى سنة ٦٣٧هـ [٣] مما دفعه إلى تصفية الجيش الأيوبى من العناصر الكردية وشراء المماليك الأتراك وأسكنهم جزيرة الروضة وكان عددهم وقتئذ نحو ألف مملوك أو دون ذلك بقليل [٤] .

---

[١] كان المصدر الأول للمماليك بلاد الأتراك ثم فى أواسط آسيا ثم امتدت مصادرهم لتشمل بلاد غرب آسيا وأوربا وبحر البلطيق ، ولذا غلبت عليهم تسمية " الأتراك " فايد حامد عاشور : المرجع السابق ، صـ ١٢ ، ١٣ .

[٢] ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق د . جمال الدين الشيال (القاهرة ، دار القلم ، د . ت) جـ ٣ ، ص ٣ ـ ٥ ، المقريزى : الخطط (طبعة بولاق ، ١٢٧٠هـ) جـ ٢ ص ٩٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ .

[٣] ابن واصل : مفرج الكروب ، تحقيق د . حسنين ربيع (القاهرة ، ١٩٧٧ م) جـ ٥ ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

[٤] ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى (بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، د . ت) جـ١ ، ص ١١٠ ، المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص٢٣٦ ، السلوك جـ١ ق ٢ ص ٣٤١ .

ومما يذكر أن معظم المماليك الذين جلبوا فى بداية عصر سلاطين المماليك كانوا فى الأصل من قبائل « القفجاق » للذين أصبحوا عبيدا بموجب الأسر عندما داهم المغول أواسط أسيا فى النصف الأول من القرن السابع / الثالث عشر الميلادى وسبوا كثيراً من أفراد القبائل التركية « وأباحوهم » (١) .

وكانت الأسس التى قامت عليها تنشئة المماليك فى مصر من القوة بحيث كونت فيهم روح الولاء والانتماء لقائدهم فيما عرف « بالأستاذية » فضلا على روح التعاون فيما بينهم فيما عرف « بالخشداشية » وقد ساعد على ذلك قوة شخصية السلطان أو الأمير من ناحية والأغداق المستمر على الجنود بالخلع والعطايا عند خروج الغزوات والتجاريد من ناحية أخرى (٢) .

وقد أشارت المصادر العربية المعاصرة إلى الفترة الانتقالية التى أعقبت وفاة الصالح أيوب فى سنة ٦٤٨هـ / ١٢٤٩م وما أسفرت عنه أحداثها العسكرية فى المنصورة (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م) ثم فى عين جالوت (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) من نتائج سياسية أكدت تفوق العناصر المملوكة المقاتلة وأحقيتها فى الحكم باعتبارها القوة الرادعة والمدافعة عن ديار الإسلام ضد الأطماع الصليبية فى المنطقة العربية بعد أن توارت الخلافة الإسلامية إلى الظل وركن حكام العرب إلى حياة الدعة والاستسلام .

وبدخول السلطان ركن الدين بيبرس (٦٥٨ ــ ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ ــ ١٢٧٧م) إلى قلعة الجبل ليلة الاثنين ١٩ ذى القعدة تكون البداية الحقيقة للنظام السياسى المملوكى فى القاهرة بعد سلسلة من الأحداث الدامية

---

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين (مخطوط ، دار الكتب رقم ١٤٢٠٦) ص ١٠٧ .

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد والدر الفريد ، تحقيق بلوشيه (باريس ، ١٩٢٠م) جـ ص ٦٦ ــ ٦٧ .

استمرت عشر سنوات حكم مصر خلالها خمسة سلاطين أخرهم سيف الدين قطز الذى قتل غيلة على يد بيبرس وأعوانه من الأمراء المماليك [١] .

ويبدو أن مقومات قيام دولة سلاطين المماليك لم تكن قد اكتملت بتنصيب بيبرس سلطاناً على البلاد ، خاصة أن عامة المصريين أنفوا أن يحكمهم سلطان « جرى عليه الرق » وكانوا يريدون سلطان « ولد على الفطرة » على قول أحد المؤرخين المعاصرين [٢] .

ولذا فقد شرع السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس فى إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة المملوكية يوم الاثنين الرابع من شعبان سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م ليسبغ على حكمه صفة الشرعية ويصبح مفوضاً رسمياً من قبل الخليفة العباسى فى حكم البلاد الإسلامية والتى شملت « الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية ، والحجازية ، واليمنية ، والفراتية » وما يضاف إليها من البلاد بسبب الفتوحات « غورا ونجدا » وكان لهذا الأجواء الشرعية أثر كبير فى نفوس المصريين الذين ضجوا بالدعاء للسلطان بخلود أيامه « فكان يوما مشهودا » [٣] .

وهكذا تحددت النظرية السياسية لحكم سلاطين المماليك فى ضوء الظروف العسكرية التى سبقت قيام الدولة ، من ناحية ، وإحياء الخلافة العباسية فى القاهرة كواجهة شرعية لتأكيد سيادة المماليك فى الشرق العربى / الإسلامى من ناحية أخرى .

وجدير بالذكر أن نظام الخلافة فى هذا العصر كان مصطنعاً ـ إلى حد كبير ـ إذا كان الخليفة يفوض السلطان المملوكى فى كافة أمور الحكم كالولاية والعزل ، وإقطاع الإقطاعيات ، وتجهيز الجيش ، وإعلان الحرب ، وغيرها من الأمور التى

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق هارمان (القاهرة ، ١٨٧٩م) ج٨ ، ص ٦١ ـ ٦٣ ، ولمزيد من التفاصيل المقريزى : السلوك ، ج١ ق٢ ، ص٣٣٠ ـ ص٤٣٥ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر القاهرة (القاهرة ، ١٩٠٩م) جـ٢ ، ص٣٥ .

(٣) المقريزى : المصدر السابق ، جـ١ ق٢ ، ص٤٥٢ ـ ٤٥٧ « نص التقليد » .

تتصل بالسلطة التنفيذية بحيث كان الخليفة العباسى نفسه يقع فى دائرة هذه السلطة وهو ما أشار إليه أحد المؤرخين [١] صراحة بقوله :

ليس له (الخليفة) [*] أمر ولا نهى ولا نفوذ" اللهم إلا بعض الأمور الشكلية والتى لا تغنى ولا تسمن من جوع ولا تعود بفائدة على الصالح العام للرعية .

ومن ثم فإن النظام السياسى المملوكى فى مصر اعتمد على مبدأ الاختيار الطبيعى بمعنى أن الأقوى هو الذى يتبوأ مقعده فى الحكم ، مثلما حدث بعد مقتل « قطز فى رمضان سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م » إذ سار الأمراء الذين اشتركوا فى قتله إلى الدهليز السلطانى بالصالحية واتفقوا على سلطنة الأمير بيبرس [٢] .

بل إن استمرارية الحاكم اقترنت بقوة شخصية وكذلك قوة أتباعه الموالين من الأمراء والأجناد الإضافة إلى قدرة السلطان على استمالة منافسه على العرش يدل على ذلك أن معظم السلاطين الذين حكموا بعد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاون (٧٠٩ ـ ٧٤١ هـ) ١٣١٠ ـ ١٣٤٠م) لم يمكثوا فى الحكم سوى بضع سنين أو دون ذلك لعدم توافر العوامل السابق ذكرها [٣] .

وتلك الظاهرة تبدو أكثر وضوحاً فى النصف الثانى من هذا العصر « المماليك الجراكسة » إذ أن بعض السلاطين لم تتجاوز عهودهم فى الحكم غير بضعة أشهر أو أيام معدودة كما حدث فى أعقاب وفاة السلطان الأشرف قايتباى سنة ٩٠١هـ إذ كانت ولاية السلطان الظاهر قنصوه لمدة ثلاث ليال تولى بعدها السلطان محمد بن

---

[١] المقريزى : السلوك ج١ ق١ ، ص٢٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا (القاهرة ، الطبعة الأميرية ، د . ت) ج٣ ، ص ٢٧٥ ، ٤٠١ .

[*] من المعروف أن مفهوم الخلافة ضوء النظرية السياسية الإسلامية يعنى الولاية العامة على كافة الأمة ، والقيام بأمورها والنهوض بأعبائها (الباحث) .

[٢] المقريزى : المصدر السابق ، ج١ ق٢ ، ص ٤٣٦ .

[٣] من الملاحظ أن هذا السلطان استمر فى الحكم فترة تكاد تعادل مجموع الفترات التى حكم فيها اثنا عشر سلطاناً من الأبناء والأحفاد (٧٤١ ـ ٧٨٤ هـ) « المصادر » .

الأشرف قايتباى الحكم إرثا عن أبيه [1] . وعلى أية حال فإن النظام السياسى المملوكى قد حافظ على توازنه لفترة طويلة امتدت حتى نهاية العصر المملوكى الأول بسبب النظام الاقتصادى الموروث عن النظام السياسى الأيوبى والذى آلت فيه جميع أراضى مصر للسلطان والأمراء والجند المماليك ، وكانت هذه الأراضى المصدر الأساسى للثروة وبالتالى فإن جل اهتمام الطبقة الحاكمة انحصر فى تحقيق أكبر عائد للأرض الزراعية دون أدنى اهتمام بوسائل رعايتها أو تنميتها أو تطويرها أو استصلاح البائر منها فضلا عن أن ملاك هذه الأراضى من « المقطعين » فضلوا الإقامة بالعاصمة أو المدن الكبرى الأخرى واكتفوا بإرسال مندوبين عنهم للإشراف على هذه الأملاك واستخلاص عائداً منها من الفلاحين المصريين أضعافاً مضاعفة [2] .

وقد نتج عن ذلك خروج كثير من الإقطاعيات من أيدى أصحابها فى ظل الانخفاض المطرد فى عائد الأرض وتدهور إنتاجيتها وانشغال الأمراء وفرقهم العسكرية بالحروب والصراعات الداخلية طمعا فى السلطة ولمكاسب المادية العاجلة مما ترتب عليه أضعاف الجيش ودخول أعداد كبيرة من أرباب الحرف والصنائع فى جملة أجناد الحلقة الذين كانوا دون المستوى من حيث الكفاءة القتالية والانضباط العسكرى بسبب حداثة عهدهم بالخدمة وضعف لياقتهم البدنية وتدنى ثقافتهم وسلوكياتهم « حتى فسد العسكر » [3] .

وفى نهاية القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى شهدت القاهرة حالة من البوار الاقتصادى فى الأسواق التى كانت « عامرة » ومزدهرة بشتى أصناف

---

[1] ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٨٢ ــ ١٩٨٤ م) جـ٢ حتى ٤٦٥ ــ ٤٦٧ ــ ٤٧٦ ، جـ ٣ ص ٣٤١ ــ ٣٤٥ .

[2] المقريزى : السلوك ، ج٢ ق٣ ص ٦٤٣ ، ٧٧٨ ، ٨٣٠ .

[3] المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٢١٩ .

السلع والمنتجات فى إطار خراب الريف ، وكثرة المغارم ، والمظالم ، وتفشى الرشوة وشيوع روح السلبية فى نفوس أرباب الحرف والصنائع ، وانخفاض قيمة العملة بسبب رواج الفلوس وغيرها من العوامل التى سجلها أحد المعاصرين فى معرض الحزن والتأسى على ما فات عند ذكره لأسواق القاهرة [١] فى نهاية عصر سلاطين المماليك البحرية ورصده لأسباب الأزمة الاقتصادية التى شهدتها مصر فى بداية القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى .

وقد ترتب على هذه الأزمة هروب أعداد غفيرة من أهل الريف المصرى إلى القاهرة وتحولهم إلى « زعار وقطاع طريق » [٢] لكى يزيدوا من حدة الأزمة واشتعالها فى مدينة القاهرة التى ازدحمت بمئات الآلاف من التجار ، والباعة ، والسوقة ، وأرباب الحرف والصنائع ، والفقهاء ، وطلاب العلم ، فضلا عن أعداد غفيرة من العاطلين والمتسولين وأهل الحاجة والمسكنة وغيرهم من أراذل العامة الذين شكلوا عبئا اقتصاديا وأمنيا على عاصمة الدولة المملوكية « القاهرة » والتى تحتاج من الباحث أن يتعرف هويتها التاريخية وتطويرها السكانى والعمرانى فى الصفحات التالية وقبل الدخول فى فصول دراستنا عن « العامة » .

---

[١] المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٩٤ .

[٢] المقريزى : إغاثة الأمة فى كشف الغمة ، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة و د. جمال الدين الشيال (القاهرة ، ١٩٤٠م) ص ٤٤ .

القاهرة :

عندما وضع جوهر الصقلي (ت ٣٦٧ هـ) أساس بناء مدينة القاهرة في منتصف شعبان سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م لم يكن في حسبانه أن تصبح يوما مدينة لعامة مصر ، بل علي العكس فقد بناها لتكون سكنا خاصا للفاطميين تحجب بأسوارها العالية الخليفة وحاشيته عن أنظار عامة المصريين الذين لم يسمح لهم بدخول القاهرة إلا بإذن [١] وهو ما يؤكده ابن دقماق ، والمقريزى ، وابن سعيد وغيرهم في كتاباتهم فيذكر ابن دقماق أن الهدف من بناء العاصمة الجديدة هو تأسيس قلعة سكنية منعزلة عن عامة المصريين علي عادة خلفاء الفاطميين في تأسيس مدنهم لكي تضم حريم السلطان وعبيده ورجال حاشيته وحرسه الخاص [٢] .

أما المقريزى فيشير إلى أنه بجانب هذا الهدف الطبقي فإن القائد الفاطمي جوهر الصقلي كان يريد أن تكون العاصمة الجديدة القاهرة حصنا منيعا يحول دون دخول القرامطة أرض مصر [٣] .

بينما يؤكد ابن سعيد علي خصوصية القاهرة بالنسبة للفاطميين بأسلوب الرحالة فيقول : « مدينة رائعة تفنن الفاطميون في بنائها وكانت مقرا لخلافتهم ومركزا للإشعاع العلمي والثقافي ، ... ، ... » [٤] .

وما برحت القاهرة كذلك حتى الشدة العظمى [*] فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ ٤٨٧ هـ / ١٠٣٦ ١٠٩٤ م) إذ قدم إلى مصر أمير الجيوش

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص٣٦٤ .

(٢) ابن دقماق : عقد الأمصار ، جـ ١ ص٣٦ وذكر أن الخليفة المعز كان يمتلك اثنى عشر ألفا من النساء والأطفال والخصيان .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٧٥ .

(٤) ابن سعيد : النجوم الزاهرة فى حلى القاهرة ، تحقيق حسين نصار (القاهرة ، ١٩٧٠م) ص ٢١ ــ ٢٢ .

(*) عرفت بهذا الاسم لأن مصر شهدت فيها أبشع أنواع المجاعات التى استمرت سبع سنين (٤٥٧ : ٤٦٤هـ) « حتى أكلت الناس الكلاب والقطط » وزاد الغلاء إلى حد لا يطاق وانتشرت الأمراض الفتاكة بين سائر الناس .

(القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص٤٢٧ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق جـ ١ ص ١٤) .

Lane poole: Social life, London 1898,pp.4-6.

بدر الجمالى فى سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م فوجد القاهرة « خاوية علي عروشها » فأذن للناس من غير الفاطميين فى البناء وسكنى المدينة فاتسعت مساحتها ازدهـرت مبانيها وظلت القاهرة على هذه الحالة حتى نهاية الدولة الفاطمية[١].

ولما دخل الناصر صـلاح الديـن الأيوبـى (٥٦٧ ـ ٥٨٩ هـ / ١١٧١ ـ ١١٩٣م) القاهرة أباح سكنى المدينة لعامة المصريين ، وكان واضحا أن جهده ضـد الصليبين قد أستولى على سائر جوانحه مما جعله يهتم بالعمائر والتحصينات الحربية في القاهر وغيرها من المدن الكبرى فضلا عن رؤية صلاح الدين للعمائر التى بناهـا الفاطميون الشيعية التى دفعته إلى « الحط » من قصور الخلافـة الفاطميـة وإزالـة بعضها وفى هذا يقول المقريزى :

« وحط من قدر قصور الخلافة الشيعية ، وأسكن فى بعضها ، وتهدم البعـض الآخر ، وأزيلت معالمه ، وتغيرت معاهده » وظل الحال كذلك إلى أن بنيـت قلعة الجبل على سفح جبل المقطم فى سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م[٢].

ويذكر لنا صحاب الخطط التوفيقية أن القاهرة الفاطمية كانت تشغل عند نشـأتها الأول فى سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م مساحة ثلاثمائة وأربعين فدانا ، بلغت فـى نهايـة عصر سلاطين المماليك ما يزيد عن ألف وسبعمائة فدان[٣].

---

[١] ياقوت الحموى : معجم البلدان (بيروت ، ١٩٨٤) جـ ٤ ، ص٢٢٦ ، المقريزى : المصـدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٦٤ .

[٢] المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤ وكانت القاهرة الفاطمية تشمل الجامع الأزهر وما حوله ، والجمالية وبعض أجزاء من الحسينية وباب الشعرية والموسكى والغورية وحارة الروم ودرب سعادة .

[٣] على مبارك : الخطط التوفيقيـة (القاهـرة ، طبعة بولاق ، ١٣٠٦هـ) جـ١ ، ص ٨١ ـ ٨٢ .

ويتفق الباحثون على أن الخطط التى ذكرها المقريزى عن القاهرة لم يطرأ لعيها تغييرات مساحية حتى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى إذ تعرضت القاهرة بعد خراب « الفسطاط »[١] وانتقال العامة للسكنى بها وحولها إلى تغييرات معمارية عميقة بلغت أقصاها فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى بسبب تنافس السلاطين والأمراء المماليك فى التفاخر والمباهاة بالثراء والعطاء ، ورغبتهم فى تخليد ذكراهم بين الناس أو التكفير عن ذنوبهم فى الدنيا حتى صارت القاهرة تزدان بالقصور والمساجد ، والمدارس ، والأسبلة ، والخوانق وغيرها من المنشآت التى كانت تبنى بالطوب « الآجر » فى غالب الأحيان بينما كانت الجوامع والمدارس والمبانى تبنى بالحجر المنحوت وتفرش أرضها بالرخام وكذلك الجدران .

ويصف أحد المؤرخين المعاصرين النشاط العمرانى فى القاهرة عصر سلاطين المماليك منوها بدور عامة المصريين فى أعمال البناء والتشييد بقوله : « ولأهلها القوة العظيمة فى تعلية بعض المساكن على بعض حتى أن الدار تكون من طبقتين إلى أربعة طبقات بعضها على بعض ، ... » [٢] .

ومن المعروف لدى جمهور الباحثين أن العسكر المماليك قد انتقلوا إلى قلعة الجبل بعد أن أصدر السلطان عز الدين أيبك فى سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م مرسوما يقضى بإخلاء قلعة جزيرة الروضة التى أنشأها الصالح أيوب لمماليكه وانتقالهم إلى مقر الحكم ، ولم يترك أحدا بها حيث تحولت إلى قصور وبساتين ومنتزهات ، ودور ، وجوامع ، وحمامات ، ودار المقياس [٣] .

---

[١] على مبارك : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٨٢ ، عبد الرحمن زكى : القاهرة ، ط٢ ، ١٩٤٣م ، ص ١٠٦ ١٤٠ ١٤٢ .

[٢] القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٣٣٧ ــ ٣٣٨ ــ ٣٧٠ .

[٣] ابن دقماق : عقد الأمصار ، جـ١ ، ص ١١٠ .

ونتيجة للاتصال العمرانى بين القلعة ــ مدينة العسكر ــ والقــاهرة ــ مدينــة العامة ــ صارت عمائر مصر بلدا واحدا وتحولت العاصمة مــن الطــابع العســكرى الجاف إلى النّشاط الاقتصادى والاجتماعى المزدهر إذ قامت الأسواق الكــبرى علــى طول شارع « بين القصرين » وامتدت إلى شــوارع القــاهرة المجــاورة وتســابق العامــة فى أعمال العمارة السكنية والتجارية فى تلك المناطق « حتى عــزت أرض البناء » (١) .

ومن الطبيعى أن تتواكب الزيادة السكانية مع هذه الزيادة المطردة فى الأبنيــة والمنشآت السكنية والتجارية والاجتماعية حتى بلغ عدد سكان القاهرة فى النصــف الأول من القرن الثامن الهجرى حوالى ستمائة ألف نسمة ، مما جعلها تتفــوق فــى مساحتها وكثرة سكانها على كثير من مدن أوربا والعالم الإسلامى إلى أن بلغت فــى نهاية النصف الأول من هذا القرن حوالى ثلاثة ملايين نسمة على قول أحد البــاحثين الأجانب (٢) .

ويشير أحد المعاصرين إلى شدة الكثافة السكانية فى القاهرة فى عصر المماليك البحرية بقوله : « ليس فى الدنيا من شرقها إلى غربها مدينة أعمر بكــثرة الخلــق منها ، ولا يكاد ينقطع الزحام بشوارعها العظيمة ، فى كل شارع وخط محلــة منــها بيوت ودروب وأسواق وجوامع ومدارس تصلح أن تفرد بمدينة واحدة بل فى كــل » ربع « من ربوعها ما يعمر بهم قرية » (٣) .

---

(١) المقريزى : الخطط ، جــ٢ ، ص٢١٤ ــ أولج فولكف : القــاهرة ، ترجمــة أحمــد صليحــة (القاهرة ، ١٩٨٦م) ص٩٧ .

(٢) آشتور : التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، ترجمة : عبــد الهادى عبلة (دمشق، دار قتيبة ، ١٩٨٥م) ص٣٧٩ .

(٣) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة فى محاسن القاهرة ، تحقيق مصطفى الســقا وكــامل المــهندس (القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٦٩م) ص١٨٨ . و « الربع » الــدار وجمعــها رباع وهى المساكن التى تعلو الوكالات (المقريزى : الخطط ، جــ٢ ، ص٩٦ ، ســعيد عبــد الفتاح عاشور : العصر المملوكى (القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٥م) ص ٤١١ .

Schemil Caire, savie, son Histoire, Son peuple, , 1949,p.187.

ويفسر أحد الباحثين ظاهرة النمو السكاني في العصر المملوكي الأول في ضوء فترة السلام التي عاشتها العاصمة لأكثر من مائة عام بمنعزل عن المذابح الجماعية التي أفرزتها الهجرات التتارية الشرسة على الأراضي العربية وكذلك الهجرات السكانية العديدة إلى مصر من العراق والشام والتي شملت مختلف الجنسيات من المغول والأكراد والتركمان مما كان يمثل زيادة طارئة في أعداد السكان أضف إلى هذا بقايا جيش الخلافة العباسية وبعض المحاربين الأكراد الذين تجاوز عددهم بضعة آلاف نسمة [١] .

ويمكن التعرف على حجم الزيادة السكانية وكثرة العمارة من خلال مشاهدات بعض الرحالة الذين زاروا القاهرة في القرن الثامن ومطلع القرن التاسع الهجري / القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر ميلادياً .

فيصفها ابن بطوطة (ت : ٧٧٩ هـ) بقوله : « هي أم البلاد المتناهية في كثرة العمارة المتباهية في الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر وبها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه ، ومنكر ومعروف ، تموج موج البحر بسكانها تكاد تضيق بهم على سعة مكانها » [٢] .

ويرى الرحالة الأوربيون الذين زاروا مصر في القرن الخامس عشر الميلادي الكثافة السكنية في القاهرة في ضوء حركة التجارة وازدحام الأسواق ، وكميات البضائع والسلع التي تكتظ بها المراكب والسفن والمتاجر والحوانيت وفي هذا يقول أحدهم : « وليس في القدرة تعداد جميع السلع التي تؤتى بها إلى هنا من الهند ثم توزع في مختلف أنحاء العالم » .

هذا فضلا عن رؤيتهم للمباني والمنشآت السكنية والتجارية والشوارع والدروب والطرقات المزدحمة لكثرتها بالسكان ، وشتى أنماط السلع والمنتجات .

---

[١] قاسم عبده قاسم : دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي (القاهرة ، دار المعارف ط٢ ، ١٩٨٣م) ص ٢٩ ـ ٣٠ .

[٢] ابن بطوطة : الرحلة (بيروت ، ١٩٦٨م) جـ١ ، ص١٨ .

هذا بالإضافة إلى ظاهرة انتشار الباعة الجائلين فى كل مكان وأصحاب الطبليات والدكك المستديمة وجلوس بعضهم بها على أبواب الجوامع مما يضيق الطريق على الناس ، ناهيك عن تلك الأعداد الغفيرة من المتسولين وأهل الحاجة والمسكنة الذين امتلأت بهم شوارع القاهرة آناء الليل وأطراف النهار معبرين عن حجم التمايز الطبقى والظلم الاجتماعى الذى عانى منه المصريون خلال العصر [١] وأن الرخاء الاقتصادى ووفرة العوائد المالية كانت تتحرك فى معظمها إلى أعلى حيث يوجد السلطان والأمراء والعسكر وأتباعهم من العلماء والأعيان .

وثمة ظاهرة جيولوجية أشار إليها المقريزى أدت إلى تحول مساحات جديدة من الأراضى ـ شرق النيل إلى عمائر سكنية لمختلف شرائح العامة من التجار والحرفيين والصناع والباعة والسوقة وغيره من عامة القاهرة الذين استقروا فى تلك الأراضى لم تكن تتحمل سوى المبانى الخفيفة التى تتميز بقلة ارتفاع طوابقها ورخص تكاليف مواد البناء ، وإيجارها الزهيد كى تتناسب مع ذوى الدخل المحدود من العامة الذين يرغبون فى السكنى على أطراف مدينة القاهرة [٢] .

ويرى الباحثون أن الامتداد السكانى فى القاهرة كان يمتد بصفة رئيسة نحو الشمال بسبب انبساط الأراضى واتساعها فى آن واحد إذ أن المدينة كانت محدودة من جهة الشرق بتلال المقطم ، ومن جهة الغرب بنهر النيل ، أما الجنوب فلم يزد عن شريط ضيق ينحسر بين التلال ومجرى النهر مما يجعل التوسع العمرانى ناحية الشمال أمر طبيعياً ومرغوباً [٣] .

---

[١] طافور : الرحلة ، تحقيق د. حسن حبشى (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦١م) ص ٩٧ .
Dopp: au Commencement du quanzieme Siecle (, 1950, pp. 22 23.

[٢] المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص١١٣ ، عبد الرحمن زكى : القاهرة ، (عن بحث للمؤرخ الجغرافى محمد رمزى ، ملحق ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ، أولج فولكف : القاهرة ، ص ١٠٠ .

[٣] حسن الباشا وآخرون : القاهرة ، تاريخها وفنونها وآثارها (القاهرة ، دار الكتاب الجديد ، ١٩٧٠م) ص ٤١ ـ ٤٢ .

كذلك فإن عددا من عامة القاهرة سكنوا فى رحاب قصور السلاطين والأمـــراء ومنازل الأثرياء من خلال الأعمال التى يقومون بها وبحكم تواجدهم بجوار مخدوميهم من ذوى الجاه والسلطان بالإضافة إلى سكان الخوانق والجوامع الذين اكتظت بـــهم هذه الأماكن الخاصة بالعبادة والاعتكاف حتى أن إحدى الخوانق بلغ عـــدد ســكانها سبعمائة نسمة وهى خانقاه سعيد السعداء والتى كانت من البيوت الفاطمية التى أمـر صلاح الدين الأيوبى عند دخوله القاهرة بتحويلها إلى بيت للصوفية وعرفــت لذلــك باسم « الصلاحية » [١] نسبة إليه .

وتشير المصادر [٢] إلى أن الدولة المملوكية كانت من حين إلى آخر تعيد النظر فى إقامة بعض سكانى الخوانق الذين تظهر عليهم علامات الثراء المفاجئ لكى يحـل محلهم عدد آخر من شيوخ الصوفية مما يكشف عن حج الكثافة الســكانية بمدينـة القاهرة بالنسبة لعدد المساكن المتوفرة آنذاك .

ولقد توسع عامة القاهرة فى السكنى والعمارة فــى المســاحة الواقعـة بيـن الفسطاط ــ والقاهرة ــ العاصمة الجديدة ــ حتى اتصلت العمائر وامتدت إلــى بـاب الفتوح وباب النصر حتى الريدانية ــ كما بنى العامة العمائر خارج باب القنطرة إلــى منشأة المهرانى وخارج باب البرقية والباب « المحروق » [٣] إلى سفح الجبل بطـول السور الحجرى المحيط بالمدينة « حتى صار العامر بالسكنى على قسمين : أحدهمـا يقال له القاهرة والآخر يقال له مصر » [٤] .

---

[١] ابن خلكان : وفيات الأعيان (القاهرة ، ١٣١٠) جـــ ٢ ص ٤٠٢ ــ ٤٠٣ . المقريـزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤١٤ ــ ٤١٥ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ١٨٨ ، والخانقاة : كلمة فارسية معناها « بيت » .

[٢] ابن حجر : إنباء الغمر بأنباء العمر (القاهرة ، ١٩٧١ م) جــ١ ، ص ٤٣٧ ، الســخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك (القاهرة ، ١٨٩٦م) ص ١٧٩ .

[٣] الباب المحروق : باب الخراطين أحرقه مجموعة المماليك عند هروبهم ليلا من القــاهرة سـنة ٦٥٢هــ وجرت العادة أن تغلق أبواب القاهرة فى هذا التوقيت مما اضطرهم إلى حـــرق بــاب الخراطين فسمى منذئذ بالمحروق (المقريزى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٨٣) .

[٤] القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٣٤٤ ، المقريزى ، المصدر نفسه ، ص ٣٦٠ .

وجدير بالذكر أن أبواب القاهرة التى أوردناها هنا لم تكن فى مواضعها التى هى عليه فى مصر سلاطين المماليك عندما وضعها القائد جوهر الصقلى فى بداية العصر الفاطمى وهو ما أشار إليه أحد الباحثين الأثريين [١] تفصيلا فى معرض ذكره لحضارة مصر الإسلامية .

مما يبين لنا مدى التطور الحادث فى عمارة القاهرة سواء من حيث التجديد أو من حيث التعديل والإضافة والذى ظل مستمرا حتى نهاية العصر المملوكى .

والواقع أن أحوال عامة القاهرة تميزت بنوع من الاستقرار النسبى فى ظل السياسة الداخلية لسلاطين المماليك البحرية فى الفترة الواقعة بين منتصف القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ومنتصف القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى إذ أن السلاطين والأمراء اهتموا — إلى حد ما — بحل بعض المشكلات الاقتصادية والاجتماعية لأهل القاهرة خاصة التجار الذين امتازوا بقدر من الثراء الملحوظ بينته حركة الحياة اليومية فى الأسواق والوكالات ، والفنادق والخانات .

بيد أن هذا الاستقرار ما لبث أن تلاشى تدريجيا مع بداية عصر المماليك الجراكسة بسبب « سوء إيالة الحكام وعبث الولاة » حتى أن السلاطين فقدوا مزية السيطرة على الجند الذين وهنت فيها روح الفروسية وقويت فيهم شهوة النهب والسلب والاعتداء على العامة من الباعة والسوقة فى وضح النهار نتيجة سوء الأحوال الاقتصادية وقلة «التجاريد»[٢] بل إن مظاهر الهوج والفوضى بين الجند التى بلغت حد الثورة [٣] ضد السلطان لعدم قدرته على دفع رواتبهم — قد دفعت أهل الدولة إلى الترخيص لهم بالنزول من الطباق فى القلعة ، والسكنى مع العامة والتزوج من نسائهم ، والتنازل لهم عن إقطاعاتهم مقابل مبالغ مالية يدفعها العامة للجند .

---

(١) أحمد عبد الرازق: الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى (القاهرة،١٩٨٣م) ص ١٢٢ ـ١٢٦.

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص٢١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩ .

(٣) مثلا ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص٨ ـ ٩ ـ ١٣ ـ ١٤ ـ ١٦ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠، جـ ٥ ، ص ١٣ ـ ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٧ ـ ٢٨ ، الخ .

« .... وخربت منهم أراضى إقطاعياتهم » [١] .

كما أن التوجيه الخاطئ من جانب الدولة لأنماط الإنتاج وخاصة النشاط الصناعى والتجارى فى مدينة القاهرة بحثا عن مصادر الكسب السريع لتلبية حوائج النظام الحاكم من الأموال قد أضر أبلغ الضرر بأرباب الأعمال والتجارة الذين تحولوا إلى عملاء لدى السلطان الذى احتكر كافة مصادر الثروة لنفسه مما ترتب عليه تدهور مستوى الإنتاج وانخفاض عوائد التجارة فاستغل الأوربيون هذه الفرصة للقضاء على البقية الباقية من التجارة المصرية فأغرقوا الأسواق المحلية بالبضائع والسلع الأجنبية بأسعار منافسة للإنتاج المصرى مما أضر باقتصاديات البلاد أيما ضرر .

وكان لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى إيذانا بثورة كبرى فى التجارة العالمية ، وإعلانا صريحاً بضياع دور مصر فى ريادة طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخ العالم أواخر العصور الوسطى [٢] .

وعند قدوم العثمانيين إلى مصر كان الوضع الاقتصادى متدهوراً ، وكان بيت المال المصرى خاوياً « لم يبق فيه درهم ولا دينار » مما دفع العسكر إلى الانصراف عن آخر سلاطين المماليك ــ طومان باى ــ وقعودهم عن القتال مما اضطر معه السلطان إلى الاستعانة ببعض فئات العامة من الزعر والصبيان والشطار و أرباب الجرائم ليقاوم بهم الغزاة الجدد من الأتراك [٣] .

وعندما دخل السلطان العثمانى سليم الأول القاهرة من باب النصر فى يوم الخميس ٢٠ ذى الحجة سنة ٩٢٣هـ « ضج له الناس بالدعاء » لتصبح مصر المملوكية ولاية عثمانية على مدى أربعة قرون تالية من عمر الزمان[٤] .

---

[١] المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢١٤ ــ ٢١٩ .

[٢] سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٩٥ ــ ٢٩٦ .

[٣] ابن إياس : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٢١٩ ــ ٢٢١ .

[٤] نفسه : ص ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥١ .

الفصل الأول
العامة فى البناء الطبقى لمجتمع القاهرة

البناء الطبقى فى مدينة القاهرة - من هم عامة القاهرة ؟ - فئات عامة القاهرة - الفئات المنتجة « التجار - المعممون - أرباب الحرف والصناعات - الباعة - المتسببون - السوقة ، .... » - الفئات العاطلة « الزعر - الحرافيش - الشطار - الدراويش ، ... » - الخلاصة .

تعتبر مدينة القاهرة النموذج الأمثل للتعرف على البناء الطبقى فى المجتمع المصرى عصر سلاطين المماليك ، والفوارق الاجتماعية بين الشرائح المختلفة فى ضوء صور الحياة اليومية التى تأثرت إلى حد كبير بالنظرية السياسية للدولة والمتغيرات الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية عبر عهود الحكم المملوكى .

ويمكن تقسيم المجتمع القاهرى فى هذا العصر إلى طبقتين أساسيتين :

- الطبقة العسكرية وتشمل أهل الدولة من المماليك (السلطان ـ الأمراء ـ الجند) .
- الطبقة المدنية وتشمل سائر فئات المجتمع من التجار وأرباب الوظائف الدينية والديوانية ، والفقهاء ، وأرباب الحرف والصنائع ، والباعة والسوقة، وطلاب العلم ثم أطراف العامة من الزعر والحرافيش وغيرهم من الفئات العاطلة داخل مدينة القاهرة .

ولعل هذا التقسيم الثنائى للبناء الطبقى للمجتمع القاهرى يبدو مقبولا فى ضوء النظرية السياسية لحكم المماليك والتى تضع كل الفئات المدنية فى إطار اجتماعى واحد هو « الرعية » مما يجعلنا نفسر ذلك فى ضوء التمايز الطبقى الحاسم بين الحكام والمحكومين وهو ما أشار إليه ابن خلدون تحت مسمى « دولة وعامة » أو « سلطان ورعية » [1] .

وربما كان التقسيم الطبقى الذى طرحه المقريزى فى كتابه « إغاثة الأمة » يكون أكثر موضوعية إذ قسم الطبقة المدنية إلى فئات رتبها ترتيبا تنازليا أعلاه مياسير التجار وهم بياض العامة وأدناه أهل الحاجة والمسكنة وهم سواد العامة دون

---

[1] ابن خلدون : المقدمة ، تحقيق د . على عبد الواحد وافى (القاهرة ، دار نهضة مصر د . ت) جـ ٢ ، ص ٦٦٧ ، ٦٧٤ ، ويبدو من استقرائنا لبعض نصوص هذا الكتاب أن لفظ « سلطان » مرادف للفظ « دولة » (الباحث) .

أن ينكر فى هذا التقسيم أرباب الوظائف الدينية والديوانية على أساس أن هذه الطبقة كانت تابعة للسلطان [١] فى حفظ كل ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال .

وإن كنا نرى أن هذه الفئة من أرباب الوظائف « أهل العمامة » لم يبلغوا المرتبة العليا التى تجعلهم ينضمون إلى طبقة أهل الحكم باعتبار أن علاقتهم بالسلطة كانت متغيرة ولا تخضع لمعايير ثابتة فى ظل النظام الإقطاعى العسكرى ، وإذا كانوا لقوا حظا من الامتيازات الأدبية والمادية فإن هذا لا ينهض دليلا على وضعية طبقية مماثلة للسلطان والأمراء بقدر ما هو دليل على التوظيف السياسى من جانب الطبقة الحاكمة لفئة مدنية اجتماعية لتكون حائط صد بينها وبين السواد الأعظم من الرعية خاصة فيما يتصل بأعمال « الجباية » وتحصيل الأموال .

وثمة اختلاف بين الباحثين فى تحديد مفهوم « العامة » أو « العوام »[٢] .

ولعل مرجع ذلك هو غموض الروايات التاريخية فى المصادر المعاصرة فى معرض ذكرها لحوادث السياسية التى شارك فيها العامة متلمسين دورهم فى مجال الحيادة الاقتصادية والثقافية وهو ما سوف نعرض له فى هذه الدراسة .

فقد عرف حد الباحثين العامة بأنهم « جمهور كبير من الباعة والسوقى والسقائين والمكاريين والمعدمين وأشباه المعدمين » [٣] بينما يرى باحث ثان أن العامة هم « أهل المهن والصنائع والتجار والخدم والجند واللصوص والعيارين والشطار » [٤] .

وهناك باحث ثالث أعياه البحث عن تعريف ثابت للعامة فذكر أنهم « جميع الرعايا من سكان المدن باستثناء رجال القلم » [٥] .

---

[١] المقريزى : إغاثة الأمة ، ص ٧٢ ، ٧٣ .

[٢] العامة خلاف الخاصة وجمعها عوام (المعجم البسيط) .

[٣] سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٣٧ .

[٤] بدرى محمد فهد : العامة فى بغداد فى القرن الرابع الهجرى (بغداد ، ١٩٦٧) ص ١٣ .

[٥] إبراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة (القاهرة ، ١٩٦٠م) ص ٢٥٠ .

وهذا التعريف يقترب من المفهوم الذى طرحه أحد الباحثين الأجانب إذ اعتبر العامة هم الأغلبية المدنية [١] .

وفى نفس الوقت الذى أغفلت فيه المصادر المعاصرة الحديث عن الأدوار الإيجابية للعامة فى القاهرة ، اهتمت هذه المصادر ـ إلى حد كبير ـ بالأدوار السلبية لبعض فئات العامة من « الزعر » « الحرافيش » « والشطار » وغيرهم من سواد العامة فى إطار أعمال حوت فى مضمونها اللغوى سوء الخلق ، والسفالة ، والغلظة ، والخبث ، والشر ، وغير ذلك من الخصال الدميمة التى تعكس قصور رؤية كثير من مؤرخى هذا العصر من أرباب السيف ، وأولاد الناس وتحيزهم الطبقى فى تقويمهم لدور العامة فى الحياة السياسية والاقتصادية بحيث لا يقرأ الباحث عنهم فى ثنايا الحوليات سوى ما يوغر الصدر ويدعو إلى الاشمئزاز ، وهو ما يبدو واضحا ، مثلا ـ فى كتابات المؤرخ ابن تغرى بردى الذى يرى جميع المصريين من فوق سبع طبقات وكأنهم مجرد جراد منتشر « غوغاء » [٢] .

وفى تصورنا أن البناء الطبقى فى عصر سلاطين المماليك تحدد فى إطار عاملين رئيسين هما : السلطة والثروة ، وهذان العاملان لم يتوافرا لأى فئة مدنية بشكل ثابت وواضح إذ أن طبيعة العلاقة بين الطبقة المملوكية الحاكمة والطبقة المصرية المحكومة كانت تتحرك فى اتجاه واحد أيا كانت درجة ثراء بعض الفئات المدنية من أرباب الوظائف أو التجار ، فقد اعتبرهم السلطان جميعا جزءا من اصل واحد هو « الرعية » عليهم « الغرم » وليست لهم قبل السلطان حقوق سياسية أو اجتماعية متفق عليها كما هو الحال فى العلاقة بين السلطان والمماليك .

ولذا نرى أن عامة القاهرة هم جميع رعايا الدولة من المصريين العاملين الذين ارتبطوا بأدوات الإنتاج والوظائف المدنية المعاونة لأهل الحكم أو من المصريين العاطلين الذين تحولوا لأسباب ما إلى أعمال الشغب والتسول والاستجداء إما فى

---

(١) Lane Poole : History of Egypt in the middle Ages , Ages, London 19, PP252 253 .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .

إطار الصراعات الحربية والفتن السياسية بين الفرق العسكرية المملوكية أو فى إطار التعاطف السلطانى والأميرى مع بعض هذه الفئات [١] .

ويأتى أرباب الوظائف الدينية و الديوانية على قمة البناء الاجتماعى لعامة القاهرة والذين أطلقت عليهم المصادر أسماء متعددة مثل أهل العمامة أو « المعممون » وأرباب القلم أو « حملة الأقلام » [٢] وهم « بياض العامة » الذين عاشوا على هامش الجهاز الحاكم دون أهل الدولة من المماليك « أرباب السيف » .

وبرغم أن هذه الفئة تمتعت بامتيازات مادية وأدبية على مدار العصر ومنها الإغداق عليهم بالرواتب النقدية والعينية ، والحرص من جانب السلطان على كسب مودتهم والإعلاء من قدرهم فى المجالس ، فإنهم كانوا يتعرضون فى كثير من الأحيان للعزل والمصادرات المهينة عند امتناعهم عن إرضاء أهواء السلاطين ورغباتهم شبه المستمرة فى السطو على حقوق الرغبة إذ كانت الدولة ترى فيهم العصا السحرية لكسب تأييد العامة وتغييب وعيها فى معرفة حقوقها السياسية والاجتماعية تجاه الطبقة الحاكمة .

وربما تطالعنا المصادر [٣] ببعض الأمثلة التى يعتمد عليها الباحثون المحدثون عند حديثهم عن هذه الفئة من أرباب القلم فى محاولة منهم لإظهار العلاقة بين السلاطين المماليك وبينهم فى إطار المودة والرحمة دون تفسير موضوعى لحقيقة تلك العلاقة التى كانت ــ غالبا ــ تنتهى بطريقة مأساوية لا يحسد عليها أحد من العلماء .

---

[١] قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٦ ــ ١٧ .

[٢] عنهم ، القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٢٨ ــ ٣٩ .

[٣] مثلا ، القلقشندى : المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ٢٧٤ ، جـ٤ ، ص١٢ ، ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٣٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٨ ، ص ١٠٨ .

فالسلاطين كانوا يعتمدون على هذه الفئة فى الحصول على الأموال من العامة بحجة تجهيز الجيش فى زمن الحرب بفرض الضرائب على الأملاك والأوقاف وكان بعض العلماء يتصدون لإصدار فتاوى بذلك مثلما حدث فى سنوات (٦٥٨ هـ ، ٦٩٩ هـ ، ٨٩٦ هـ) [١] إلا أن هذه المواقف من جانب بعض العلماء كانت تعد استثناء لا يعول عليه فى التأصيل لنزاهة الغالبية العظمى منهم خاصة إذا علمنا أن أكثر علماء هذا العصر تولوا الوظائف « بالرشوة » التى كانت المصدر الرئيس لتقليد المناصب فى هذا العصر [٢] .

« ...... فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ » [٣] .

والواقع أن سلاطين المماليك حاولوا إيهام عامة المصريين على اختلاف شرائحهم الاجتماعية بأن حكمهم يستند إلى أساس شرعى وهو الخلافة أو «الإمامة» التى هى كما يقول صاحب الأحكام السلطانية « خلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا » [٤] وأن السلطان مفوض من قبل خليفة المسلمين فى إقامة الدولة الإسلامية وتطبيق الشرع ، والنظر فى أمور الرعية المادية والروحية ، فكان عليهم أن يشيدوا هذا الهيكل الوظيفى من أهل العمامة لإخفاء هذه الصفة الشرعية الغائبة فى القوانين والأعراف التى تحكم أبناء الطبقة العسكرية من المماليك .

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ، ص ٢٢٧ ــ ٢٢٩ ، جـ١ ق٣ص٨٩٨ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ٧ ــ ٧٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص٣٦ ، ابن حجر : أبناء الغمر ، جـ٢ ، ص١٣٤ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص٢٧٨ ــ ٢٧٩ جـ ٤ ، ص ٤٤ ــ ٤٥ .

(٢) عن الموضوع : أحمد عبد الرازق : البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك دراسة عن الرشوة (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩) .

(٣) المقريزى : إغاثة الأمة ، ص ٤٣ .

(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ٥ ــ ٢١ .

ومؤرخنا « المقريزى » الذى تولى عدداً من الوظائف فى الدولة كان آخرهـــا وظيفة المحتسب ، لم يقتنع بمصداقية هذه الوظائف واعتبرها مجرد تزيين لصـــورة السلطان فى أذهان الرعية إذ أن الذين يحكمون لم يلـــتزموا ــ أنفســـهم ــ بتعـــاليم الشرع وكأن أحكام الدين ليست فرضاً إلا على الذين آمنوا من الفقـــراء والمســـاكين والمحتاجين دون غيرهم من سائر البشر .

يقول المقريزى : « اعلم أن الناس فى زماننا يرون الأحكام على قسمين : حكم الشرع ، وحكم السياسة ، ... ، وهى لفظة شيطانية لا يعرف أكثر أهل زماننا اليـــوم أصلها ويتساهلون فى التلفظ بها » [١] .

ويبدو من استقراء المصادر المعاصرة أن أرباب الوظائف من المعممين كـــانوا يمثلون السلطة من الناحية الفعلية ولم يتعد دور أكثرهم حدود تكييف نصوص الشرع لتخدم مصالح السلطان المتمثلة بصفة أساسية فى جمع الأموال من العامـــة بشـــتى السبل بما فيهم أرباب هذه الوظائف الذين لم يسلموا من هذه « المظالم » .

ولذلك فإن الشرائح الاجتماعية الأدنى من عامة القاهرة انقسمت رؤيتهم لـــهذه الشريحة الاجتماعية العليا فتارة يتعاملون معهم باحترام وتبجيل ويقدمونـــهم علـــى أنفسهم فى المجالس والأسواق وتارة يتعاملون معهم باحتقار وازدراء بسبب انقيادهم وراء أهواء السلاطين خوفا وطمعا من عند أنفسهم [٢] .

أما التجار فى عصر سلاطين المماليك فكانوا يشكلون فئة اجتماعية عليـــا فـــى المجتمع القاهرى ، ومارسوا دوراً مهماً فى دعم الاقتصاد المصـــرى ممـــا جعلـــهم يقتربون إلى حد كبير من دائرة السلطان دون غيرهم من الفئات الاجتماعية الأخـــرى بما فيها العلماء خاصة إذا علمنا أن هؤلاء التجار كانوا المصدر الضرائبى الرئيســـى للدولة ، بل تعدى ذلك ليكونوا الممول الأول للحملات الحربية .

---

[١] المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٢٢٩ .

[٢] سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٢٨ ــ ٣١ .

وليس أدل على مكانة التجار فى هذا العصر من تخصيص السلطان وظيفة لـهم تعرف بناظر البهار الكارمى [١] والتى تختص بمختلف أنواع التجارة بما فيها تجـارة التوابل والبهار القادمة من الهند واليمن وقد أشار القلقشندى لهذه الوظيفة بقولـه : « هى وظيفة جليلة تارة تضاف إلى الوزارة وتجعل تبعاً لـها وتـارة تضـاف إلـى الخاص وتجعل تبعاً لها ، وتارة تنفرد عنها بحسب ما يراه السلطان » [٢] .

ومن استقراء ما كتبه المقريزى عن هذه الفئة الاجتماعية والتى أطلق عليـها اسم « بياض العامة » نلاحظ أن مياسير التجار وأهل العمامة من أربـاب الوظـائف الدينية والديوانية كانوا يشكلون الجناح المدنى للدولة ولذا فقد اعتبر أحد البـاحثين الأجانب العلاقة الاقتصادية الخاصة بين السلاطين المماليك ومياسير التجـار مـبرراً كافياً لتكوين طبقة اجتماعية خاصة بهم أو كما يراها ـ هو ـ طبقة وسـطى بين المماليك وسائر الشرائح الاجتماعية الأخرى من عامة القاهرة [٣] .

ومما يذكر أن الأمراء المماليك كانوا يستخدمون التجار وكلاء لهم فى الأسـواق بما يعود بالفائدة على الطرفين ، وحذا حذوهم فى هذا المجال أرباب الوظـائف فـى الدولة من العلماء والقضاة والولاة وغيرهم [٤] فضلاً عن دورهم فى إقراض السلطان بالأموال عند الحاجة إليها فى أوقات معينة مثلما حدث فى سنه ٧١١ هـ عندهـا أشار بعض الأمراء على السلطان الناصر محمد بن قلاون بطلب قرض مـن بعـض مياسير التجار [٥] لتحقيق بعض الإصلاحات المالية .

---

[١] الكارمى أو الكانمى : نسبة إلى الكانم من السودان وكانت منهم طائفة مقيمة فى مصر وأطلقت التسمية مجازاً على سائر تجار التوابل والبهار (القلقشندى : صبح الأعشـى ، ج٤ ، ص٣٢ ، المقريزى ، ج١ ق٣ ، ص ٨٩٩ .

[٢] القلقشندى : المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

[٣] المقريزى : الخطط ج٢ ، ص ١٠٣ ، إغاثة الأمة ص ٧٢ .

Lone poole: Social life in Egypt P. 1.

[٤] المقريـزى : المصـدر السـابق ، ج٣ ق١ ، ص ٢٣٦ ، ج٤ ق٣ ، ص ١١٢٧ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ .

[٥] المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ق١ ، ص ١٠٣ .

وقد أدى هذا الثراء الذى أحرزه التجار فى العصر المملوكى الأول إلى حـــرص السلاطين على خطبة ودهم والتقرب منهم بمنحهم بعض الامتيازات الأدبية التى بلغت حد منح بعض التجار لقب « أمير » وهو ما اعتبره أحد الباحثين أمراً غير مســـبوق ويستحق الدهشة [١] .

بينما نرى أنه أمر طبيعى فى ضوء النظرية التى حكمت هذا العصر من بدايتـــه حتى نهايته إذ أن العلاقة بين السلاطين والرعية كانت ذات هدف نفعى واحد أيا كانت درجة العلم أو الثراء لبعض فئات العامة العليا ومرجع ذلك هو حاجة الدولة وعلـــى رأسها السلطان إلى الإكثار من المال بما يلبى حاجتهم فى الحرب والســـلم . أو كمـــا يقول صاحب المقدمة :

« فتكثر نفقاتهم بعظم الخرج ، ولا يفى بـــه الدخـــل علـــى القوانيـــن المعتـــادة ، فيستحدثون ألقاباً ووجوها يوسعون بها الجباية ليفى لهم الدخل بالخرج » [٢] .

فالعلاقة إذن بين الدولة والتجار لم تكن قائمة على أساس عادل من الحقـــوق المتبادلة بل على أساس استغلال الدولة لهذه الفئة وابتزاز أمـــوالها جنباً إلى جنب مع سائر الشرائح والفئات الاجتماعية الأخرى من العامة ، وهو ما يعد من « أعظـــم الظلم وإفساد العمران » على قول أحد علماء هذا العصر [٣] .

وكانت هناك فى القاهرة فئة صغار التجار الذين توزعوا فى أشكال مختلفة فـــى الأسواق والشوارع والميادين والمتنزهات وغيرها من الأماكن الثابتـــة والمتحركـــة لتسويق ما لديهم من البضائع والسلع على اختلاف أنواعها .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٣٥ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ج٣ ، ص ٧٤٦ ، ٧٤٨ .

(٣) نفس المرجع السابق : ص ٧٤٨ .

وقد أشار المقريزى فى خططه تفصيلاً إلى صور النشاط الاقتصادى لصغار التجار فى فصله الخاص عن الأسواق [١] فى مدينة القاهرة وهو ما سوف نعرض له عند حديثنا عن الدور الاقتصادى للعامة .

وقد تميزت القاهرة فى عصر سلاطين المماليك بوجود طائفة كبيرة من أرباب الحرف والصنائع الذين خضعوا لنظام « الشياخة » بين أفراد الحرفة الواحدة ولكل حرفة شيخ (أسطى) فيقال « شيخ الخبازين ، وشيخ الطباخين ، وشيخ السراجين » [٢] ... وهكذا .

وهذا الشيخ كان يمثل أصحاب الحرفة ويتعرف شئونهم وأحوالهم ويتحدث نيابة عنهم أمام أهل الدولة عند النظر فى المسائل التى ترتبط بطبيعة الحرفة ويعاقب من يخالف قواعد المهنة ، ولا يجوز لأحد كائنا من كان أن يفعل ذلك سواه أو يسمح لأحد من الغرباء أن يطلع على أسرار الحرفة حتى لا ينافسهم فى معرفة طرائقها فيتفوق عليهم ، حتى أن أصحاب الحرفة من الآباء كانوا حريصين إلى أبعد حد على تعليم أبنائهم أصول الحرفة وتدريبهم عليها حتى يتقنوها جيداً كى تستمر الحرفة داخل الأسرة الواحدة .

وقد جرت العادة أن يرث الابن حرفة أبيه ، وأن يحمل نفس اللقب الدال على اسم الحرفة مثل الحريرى ، والسراج ، والجزار ، والحلوانى ، ... إلخ [٣] ، بل إن أحد كتب السيرة يذكر لنا أن أحد السقائين بعد وفاته ترك لابنه من الأدوات الخاصة به ما يستعين بها فى مزاولة نفس عمل أبيه حتى لا يهجرها إلى غيرها فتبور الحرفة [٤] .

---

[١] المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٩٥ ـ ١٠٦ .

[٢] سيرة الظاهر بيبرس (القاهرة ، طبعة عبد الحميد حنفى ، بدون تاريخ) ج٨ ، ص ٤٦ ، ٤٩٩ .

[٣] سيرة الظاهر بيبرس : ج٣ ، ص ١٩٢ .

[٤] ألف ليلة وليلة : (بيروت ، دار العودة ، ١٩٨٨م) ج٦ ، ص ١١٥٤ ولمزيد من التفاصيل ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

وهناك دراسة لأحد الباحثين تكشف عن العلاقة الوثيقة بين أصحاب الحرفة والصناعة الواحدة والتى بلغت حد « العصبية » حتى قيل فيما بينهم « الصناعة نسب » [١] للدلالة على مزاولة بعض الأفراد لنشاط مهنى مشترك .

ويمكن التعرف على أقسام الحرف والصنائع فى القاهرة فى ضوء النشاط اليومى المعتاد لسكان القاهرة فى الأسواق والشوارع والدروب والأزقة والميادين على أن أكثر الحرف اتصالاً بحياة الناس اليومية هى تلك الحرف الغذائية المتعلقة بالأطعمة والأشربة ومنها : الطحانون والخبازون ، والفرانون والطباخون ، والقصابون ، والجباتون ، واللباتون ، والحلاويون والشرابيون وغيرها من الحرف الغذائية التى سوف نعرض لها فى أحد فصول هذه الدراسة مع غيرها من أنواع الحرف الصناعات الكسائية والمنزلية ، والترفيهية ، والحرف المتصلة بلوازم الخيل والبغال والحمير وأدوات الحرب وغير ذلك .

وقد أوردت لنا المصادر المعاصرة عدداً مرة الحرف والصنائع التى اقترنت بفنون البناء التى شكلت جزءاً كبير من أنماط النشاط اليومى المعتاد التى شهدها عصر سلاطين المماليك وشملت كثيرا من المنشآت كالجوامع والقصور والوكالات والمدارس ، والخوانق ، والحمامات ، والبيمارستانات ، والأسبلة ، وغيرها من فنون العمارة « مما لم يسمع فى عصر من الأمصار » [٢] .

ومن أنواع هذه الحرف والصنائع نقرأ عن البناءين ، والحجارين والقطاعين ، والصقالين ، والمرخمين والمبلطين ، والمبيضين والدهانين ، والجباسين ، والنجارين ، والنشارين ، والعتالين والسباكين ، والحدادين ، والطيابنن ، والفعلة ،

---

[١] عبد العزيز الدورى : نشوء الأصناف والحرف ، (جامعة بغداد ـ كلية الآداب ، ع١ ، ١٩٥٩م) .

[٢] القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٣٣٦ .

والترابة وغيرهم [١] من العمال الذين جاءت أعمالهم فى هذا العصر « فى أبــدع زى وأحسن قالب ، وأبهج ترتيب » على قول أحد المعاصرين [٢] .

ومما لاشك فيه أن أرباب الحرف والصنائع بوجه عام وأرباب الحرف المعمارية بوجه خاص قد أحرزوا نصيباً وافراً من الثروة كانت سبباً فى تحولهم بعد فترة فـــى ظل المتغيرات السياسية والاقتصادية ــ إلى مقطعين ينافسون أهل الحكم فى مظـــاهر الأبهة والترف .

ويشير القلقشندى إلى أرباب الحرف المعمارية بما يدل على انتعـــاش حالتـــهم المادية بسبب شغف السلاطين والأمراء المماليك بعمارة المنشآت الدينية خاصة فـــى عصر المماليـــك البحريـــة وأن ما عمر من المساجد والمدارس « لا يكـــاد يحصـــى كثرة » [٣] .

ويمدنا المقريزى بمعلومات تكشف عن كرم الســـلاطين مـــع أربـــاب الحـــرف والصنائع عند إنشاء مؤسسة دينية [٤] وكذلك ابن تغرى بردى ضمن أحـــداث ســـنة ٦٨٨ هـــ ، ٧٠٣ هـــ وفى مقدمة هؤلاء السلاطين سيف الدين قلاون وابنه السلطان الناصر محمد الذى عرف بين القاهرة « بحبه للعمر » .

ومما يؤكد وجهة نظرنا فى أن الأوضاع الوظيفية أو المالية التى وصل إليـــها بعض العامة من المعممين أو التجار لا ترقى دليلاً على وجودهم فى طبقة اجتماعيـــة منفصلة عن سائر الفئات الاجتماعية الأخرى فى البناء الطبقى للمجتمع المصرى فـــى مدينة القاهرة ــ وأن نسبة كبيرة من الذين تولوا هذه الوظائف وأحرزوا نوعاً مـــن الثراء كانوا فى أصولهم الاجتماعية من أرباب الحرف والصنائع ــ أى من الشـــرائح

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج١ ق٢ ، ص ٥٠٢ ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٨ ، ابن إيـــاس : بدائـــع الزهور ، ج١ ق١ ، ص ٥٦٠ ، ٥٦١ .

(٢) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٨٢ ، ٣٨٣ .

(٣) القلقشندى : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٣٦٧ .

(٤) المقريزى : الخطط ، ج٢ : ص ٢١٢ ، ٤٢٧ ، ٣٢٨ .

الدنيا فى البناء الطبقى وهو ما يمكن أن نطلق ــ مجازاً ــ عليه بالحراك الاجتماعى لبعض الأفراد الذين كانوا فى سفح البناء ثم تمكنوا بطرق مشروعة أو غير مشروعة من التسلق حتى وصلوا إلى قمة هذا البناء الطبقى .

وتبدو هذه الظاهرة واضحة فى عصر المماليك الجراكسة لما اتسم به هذا العصر من مظاهر التدهور السياسى والاقتصادى الذى أثر سلباً فى الأوضاع الطبقية للمماليك لمصلحة فئة قليلة من العامة [١] ولكن السواد الأعظم كانت أحوالهم تزداد سوءاً فى الفقر والعوز وضيق ذات اليد .

وتذكر لنا المصادر المملوكية المتأخرة [٢] العديد من الأمثلة التى تؤكد ما ذهبنا إليه آنفاً منها ما حدث سنة ٨٠٨ هـ عندما تولى أحد الباعة وهو شرف الدين بن على الجيزى وظيفة المحتسب ، وتولى آخر ، ويدعى على بن أبى الجواد فى سنة ٨٠٩ هـ وظيفة ناظر الأوقاف وهو من « السوقة » وكان حلوانياً .

وفى سنة ٨٥٢هـ تولى أحد الطباخين ــ وكان أمياً ــ وظيفة الوزارة ، وقيل عنه أنه كان يمارس أبشع أنواع المصادرات مع الأثرياء من التجار للاستيلاء على أموالهم تلبية لأطماع السلطان وتعويضا مضاعفا لما بذله من الأموال لولاية هذه الوظيفة .

بل تذكر لنا المصادر نفسها أن أحد الفلاحين تولى منصب الوزارة ــ وكان يدعى شمس الدين بن عوض ــ وأنه لم يأل جهداً فى ابتزاز الفلاحين والتنكيل بهم إرضاءً لهوى السلطان فى جمع المال بشتى الوسائل .

---

[١] عن الموضوع ، سعيد عبد الفتاح عاشور : التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك (القاهرة ، محاضرة فى ندوة ابن إياس ، ١٦ ــ ١٢ ديسمبر ١٩٧٣) ص ٦٣ ــ ٨٩ .

[٢] المقريزى : السلوك ، ج٢ ، ص١١ ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٤ ، ص٥ ، النجوم الزاهرة ٦ ج١٥ ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ ، ج١٦ ، ص ٣٤٠ ، ٣٤١٠ ، السخاوى : التبر المسبوك ، ص ١٤٦ ، ٣٤٩ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٢ ص ٤٥٧ ، ج٣ ، ص ٩٢ ، ج٤ ، ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

ويبدو أن مؤرخا مثل ابن تغرى بردى لم يكن راضيا عن هذا التحول الاجتماعى لأرباب الحرف والصنائع وغيرهم من السوقة فى تقلدهم الوظائف العليا وارتدائهم الأزياء الفاخرة مثل أحد العامة الذى تولى منصب وكيل بيت المال بالبذل بعد أن كان بالأمس فى « الفقر والذل والإفلاس حتى صارت ثروة السلطان تجمع من الأوباش والأراذل » .

وفى تصورنا أن رعاية الطبقة الحاكمة للعمال المهرة الذين برعوا فى فنون العمارة الدينية كانت ذات بعد سياسى طويل المدى لم يغفل عنه المعاصرون من أهل العلم والخبرة من أمثال ابن خلدون ، والمقريزى ، والسبكى وغيرهم الذين رأوا فى هذه الصحوة العمرانية نوعاً من المدارة السياسية لـ « معاطب الملك ونكباته » خاصة أن هذه العمارة كان يصرف عليها من « أموال الرعايا » ومظالم العباد « ليقال هذا جامع فلان » [1] . ومن ثم كانوا حريصين على توظيف المبالغ الطائلة من أجل الإنشاءات الدينية ، وكان لأرباب الحرف والصنائع النصيب الأعظم من الأجور النقدية فى الوقت الذى لم ينل فيه نظراؤهم فى أنماط العمارة الأخرى غير الدينية شيئاً يذكر من الأجور ، بل وصل الأمر إلى أن كثيرا من العمال كانوا يلزمون بالعمل أحيانا طوال النهار بدون أجر على سبيل السخرة [2] .

ولعل هذا يفسر لنا ظاهرة الحراك الاجتماعى « التنازلى » لكثير من أرباب الحرف والصنائع الذين هجروا أعمالهم وانضموا إلى فئات اجتماعية أدنى فى البناء الطبقى فى إطار « الحرفشة » أو « الدروشة » وممارسة أعمال سلبية تضر بالأحوال الاقتصادية للبلاد من ناحية ، والأحوال الأمنية فى المجتمع القاهرى من ناحية ثانية فضلاً عن الآثار السيئة لهذه الأعمال فى القيم والموروثات الأخلاقية الأصيلة للشرائح الاجتماعية المختلفة من ناحية ثالثة .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ج٣ ، ص ١٠٢٥ ، المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، تحقيق محمد على النجار (القاهرة ، ١٩٤٨م) ص٢٠ .

(٢) المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣٢٨ .

وقد تكون الرواية التى أوردها أحد المؤرخين الثقاة فى معـرض حديثـه عـن أسواق القاهرة وما آلت إليه من البوار فى النصف الثانى من عصر سلاطين المماليك نوعاً من البكاء على اللبن المسكوب إلا أنها تبين بجلاء أن كثيراً من أرباب الحـرف اتجهوا إلى أسفل البناء الطبقى للمجتمع القاهرى بسبب مظاهر القـهر الاجتمـاعى وسوء الأحوال الاقتصادية ، والتمايز الطبقى الحاد بين طبقة الذين يحكمون وطبقـة الذين ينتجون حتى أن المقريزى الذى أدرك « سوق حارة برجوان أعظـم أسـواق القاهرة ، وبه فرنان ولا يحتاج ساكنه لغيره » [١] هو نفسه الذى عاصر نفس المكان والناس تتقاتل فيه على رغيف الخبز الردئ الذى « لا يؤكل » [٢] على قوله .

وثمة فئة اجتماعية لعبت دوراً حيويا على مسرح الحياة الاجتماعية فى القاهرة بصورة مستمرة لفتت أنظار الرحالة [٣] وتناولتها كتب الحسبة والسيرة الشـعبية [٤] بينما أعرض عنها كثير من المؤرخين المعاصرين ، وهى فئة أرباب الحرف الصغيرة وتشمل من حيث أهميتها الفئات التاليـة : السـقاءون والمكـاريون والحمـالون ، والحلاقون والمزينون والإسكافيون والحمامون والـ[illegible] ، والوقادون ، والسباكون ، والترلسون ، والمشاعلية ، والفرلشون ، والمنـ[illegible] ، والامشاطيون ، والفخـارنيون والخواصون ، والقفاصون ، والأباريون ، وغيرهم من أرباب الحرف الذين أثروا فـى حياة الناس دون أن يكون لهم نصيب عادل فى الأجور أو الرعاية الاجتماعيـة مـن جانب الدولة .

---

[١] نفسه : ص ٩٥ .

[٢] نفسه : ص .

[٣] ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٣٢ ــ ٣٣ ، طافور : الرحلة ، ص ٦٤ ، ابن جبير : الرحلة ، ص ٦١ ــ ٦٣ البلوى : الرحلة مخطوط ص ٥٦ ، ابن الحاج : المدخل ج٤ ، ص ١٠٦ ــ ١٠٧ ، ليو الأفريقى : وصف أفريقيا ، ص ٥٩٢ .

[٤] أندريه ريمون : تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٠٢ ــ ١٠٧ ، فيت : القاهرة ، مدينـة الفـن والتجارة ص ٩٥ ــ ٩٧ ابن الأخوة : معالم القربـة ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥ ، ص ١٥٣ ــ ١٥٥ ، ص ٣٢٨ ــ ٣٣٣ ، ص ٣٤٩ ــ ٣٥٠ ، ابن بسام : نهايـة الرتبـة ، ص ٢٥ ، ٦٥ ، ص ١٥٨ ــ ٢٠٠ ، ألف ليلة وليلـة ، ج٦ ، ص ١١٤١ ، ١١٥٣ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، سـيرة الظاهر بيبرس : ج٦ ، ص ٣٧٨ ، ج٧ ، ص ٣٩٠ .

وبرغم أهمية هذه الحرف فإن المصادر الرسمية وضعتهم فــى إطــار محــدود للغاية قياساً على غيرهم من الشرائح الاجتماعية الأخرى كالتجار وأرباب الوظــائف الحكومية مما يكشف عن طبيعة العلاقة بين السلطة والثروة فى كتابــات المؤرخيــن باعتبارهما الأساس الذى قام عليه البناء الاجتماعى فى هذا العصر .

وهناك فئة اجتماعية أخرى وضعتها المصادر فى إطار أكبر حجماً مــن الفئــة السابقة وهى فئة أرباب المغنى والطرب بل ربما زاحمت أخبار أرباب الســلطة فــى الدولة وربما كان مرجع ذلك إقبال السلاطين والأمراء فى شغف ونهم على الاســتماع للغناء والموسيقا وما يتصل بهما من العزف والرقص ، وشاركهم فــى ذلــك عامــة الناس ، ومن ثم فإن هذه الفئة أوتيت حظها مرتين ، من الملوك والعامة ، ومع هــذا لم تسلم من بطش أهل الدولة فى إطار « الضرائب » والمصادرات بين الحين والآخر فضلاً عن رؤية العامة لهم من أهل الفساد والمجون وهو ما نراه نوعاً من الفصــام فى الشخصية الاجتماعية المصرية فالناس يرغبون فى الاستمتاع بما يكفرون به .

ومــن الحــرف المحقــرة فــى المنظــور الاجتمــاعى لعامــــة القـــاهرة « الدعارة» و« القوادة » والتى ساعد علــى انتشــارها فــى المجتمــع المصــرى آنذاك أن الدولة كانت تعترف بها حتى أنـــها جعلــت لــهذه الحرفــة « الدعــارة » ضامنة عرفت باسم « ضامنة المغانى » تذهــب إليــها بنــات الخواطــئ لتسـجيل أسمائهن عندها ، وكانت هذه الضامنـــة تتعــهد بدفــع مبلــغ مــالى إلــى الدولــة مقابل أن تتولى هى مهمة جمع ضريبة المغــانى مــن النســاء البغايــا مــع تعــهد الدولة كذلك بحماية أرباب هــذه الحرفــة .

وقد ساعدت على انتشارها كذلك أن الفروق الطبقية الحــادة وســوء الأحــوال المعيشية لعدد كبير من سواد العامة قد دفعت البعض إلى ممارسة هذه الحرفة تحــت وطأة الحاجة والعوز بحثاً عن المكسب السريع والحياة الهانئة بغض النظر عما كانوا يتعرضون له من الامتهان فى عيون الناس [١] .

---

[١] المقريزى : السلوك ، ج٢ ق١ ، ص ١٥٢ ، الخطط ، ج١ ، ص ٨٩ ، ابــن إيــاس : بدائــع الزهور ، ج٣ ، ص ١١٨ .

ومما يدل على أن النظرية السياسية للدولة تعاملت مع كافة الشرائح الاجتماعية من منظور اقتصادى أحادى الهدف ــ دون النظر لمصالح الرعية فى علاقتها بوسائل الإنتاج أو حتى فى علاقتها الروحية مع الله ــ ما نقرأه فى المصادر المملوكة من أن الدولة كانت ــ أحيانا ــ تطارد أرباب الدعارة والقوادة وتفتش عنهن فى كل مكان بحجة حماية المجتمع وصيانة الشرع ثم يكشف الباحث أن السبب الحقيقى هو انتفاء العلاقة النفعية بين الدولة وبين أرباب الفواحش نتيجة عدم ورود المبالغ المالية المتفق عليها لخزينة السلطان أو لقرار استثنائى لأحد السلاطين فى ظروف اقتصادية أو عسكرية معينة على سبيل التهدئة السياسية ومداعبة التدين العاطفى للعامة . وكأن ممارسة حرفة الدعارة كانت مرتبطة بدين السلطان . مثلما حدث فى زمن الناصر محمد بن قلاون [١].

وقد أفردت المصادر المعاصرة عند ذكرها للفئات الاجتماعية العاطلة من عامة القاهرة أسماءً مميزة تترادف جميعها فى خصالها الذميمة التى تعبر عن رؤية الشرائح العليا فى المجتمع لها وكذلك رؤية النظام الحاكم فى ضوء التناقض الطبقى بين المماليك ــ الطبقة العسكرية ــ الذين كونوا لأنفسهم مجتمعاً خاصة بها انعزلوا من خلاله عن العامة ــ الطبقة المدنية ــ وهذه الفئات العاطلة من « الزعر » و « الحرافيش » و « الشطار » و « العياق » و «الأوباش » و « الغوغاء » ، و « الكسابة » ، و « المناسر (السراق) و « الصبيان » و « الفتيان » و «الفقراء» و « وأراذل العامة » ، و « أطراف الناس » ، و «المشالقين » [٢]

---

[١] تاريخ ابن الفرات ، ج٩ ، ص٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ٤٧ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ١١٨ .

[٢] تجدر الإشارة هنا إلى أن المعاجم اللغوية أوضحت الترادف بين مسميات عديدة ذكرتها المصادر التاريخية مثل الأوباش : الغوغاء : الأخلاط ومثل الشطار : العياق : الفتيان ، والمشالقون : الشلق ، وهو ما يجعلنا نتعامل معها جميعا فى إطار واحد . (المعاجم اللغوية ، ابن دقماق : الجوهر الثمين (مخطوط) ص١١٧ ، المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق٢ ص٥٩٤ ، ق٣ ص٥٨٧ ــ ٥٩٠ ، جـ٣ ق١ ص٢٣٢ ــ ٢٣٥ ــ ص٣٢٥ ــ ٢٥٣ ــ ابن حجر : أنباء الغمر ، جـ١ ، ص٥٠٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٩ ، ص٦٩ ــ ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص٢٧٥ ، جـ٣ ، ص٢٠٥ ، جـ٥ ، ص١٢١ ، ألف ليلة وليلة جـ٦ ، ص١١٥٢ ، ١١٧٦ .

وتلتقى جميعها فى أسفل البناء الطبقى للمجتمع القاهرى فى إطار التسول والاستجداء وممارسة أعمال السلب والنهب فى وضح النهار .

ومن المؤكد أن الكثافة العددية لهذه الفئات العاطلة كانت تزداد بـــاطراد كلمـــا اقتربنا من نهاية العصر مما يكشف عن العلاقة بين سوء الأحوال الاقتصادية تدهـــور الأحوال المعيشية وزيادة معدل البطالة التى كانت تدفع هذه الشرائح الدنيا إلى تـــأجير أنفسهم للثوار أو الانضمام إلى الأطراف المتحاربة من المماليك ـــ دون وعى ـــ بحثا عن مصدر للرزق .

ومن الصعب جداً على الباحث أن يرصد حركة كل شريحة من هـــذه الشـــرائح على حدة أو يحدد موقعها الجغرافى أو تركيبها الديمجرافى إذ أنه مـــن الممكـــن أن يكون من بين هؤلاء "الأخلاط" من أطراف العامة من كان يعمل فى تجارة أو صناعـــة أو حرفة أو مهنة ثم آلت به الأحوال إلى الدخول فـــى ســلك الزعـــر والحرافيـــش والشطار والدراويش هروبا من واقعة الاجتماعى أو تعبيرا عن رفضه لأوضاع ظالمة داخل المجتمع ، بل إن نسبة كبيرة من أهل الريف فى عصـــر الممـــاليك الجراكســـة هجرت الأراضى الزراعية بسبب « كثرة المغارم والمظـــالم والضرائـــب » واتجـــهت صوب القاهرة ليضيفوا إليها رصيداً جديداً من الأوباش والأراذل [١] .

وقد نوهت المصادر بطائفة الحرافيش التى شكلت الجزء الأكبر من سواد عامـــة القاهرة ، وأطلقت هذه التسمية مجازاً على أصحاب الحركات الثورية من العامة جنبـــاً إلى جنب مع الزعر والعياق والشطار ، وإن كانت هذه المصادر قد تعاملت مع هـــذه العناصر الشعبية من منظور طبقى حاد فلم تترك مذمة إلا وألصقتها بهم فى معـــرض ذكرهم لأحداث الفتن والاضطرابات الاجتماعية والسياسية فى مدينة القاهرة .

---

[١] المقريزى : إغاثة الأمة ، ص ٤٤ ، ٤٦ ، ٧٥ .

فيذكرهم « ابن بطوطة » بأنهم « أهل صلابة وجوه ودعارة » بينما يشير إليهم « ابن دقماق » فى معرض الشحاذة والتسول ، وكذلك « السبكى » الذى ذكر أن كثيرا من الحرافيش اتخذ التسول حرفة حتى أنهم كانوا يجلسون على أبواب المساجد يسألون الناس دون اكتراث منهم بإقامة الشعائر [١] .

ويذهب أحد الباحثين إلى أن طائفة الحرافيش كانوا فى الأصل فرقة حربية فقدت دورها فى عصر سلاطين المماليك مما دفع أفرادها إلى إثارة الفتن والقلاقل واحتراف أعمال السلب والنهب وهو ما يمكن تطبيقه على غيرهم من الطوائف كالعيارين والعياق والشطار والزعار وسوى ذلك من الشرائح الاجتماعية مجهولة الهوية والتى تداخلت مع بعضها البعض فى المصادر المعاصرة [٢] فى إطار أعمال الشغب إبان الفتن والأزمات التى كانت تحدث بصورة شبه متكررة فى القاهرة المملوكية .

والواقع أن من يقرأ عن هذه الفئات ـ المتشابهة عند وضعها فى البناء الطبقى للعامة ـ من خلال المصادر التاريخية الرسمية يستشعر نوعاً من الغموض والضبابية فى كتابات المؤرخين عنهم كأنهم يريدون تغييب وعى الباحث بحقائق ربما يجدها فى المصادر الأدبية التى تتحدث عنهم فى معرض الشجاعة والكرم والمروءة [٣] .

ولعل الباحث يتساءل ، هل كان الزعر والحرافيش والشطار أدنى فى مستواهم الأخلاقى من المماليك الجراكسة الذين وصفهم أحد المؤرخين بأنهم « أزنى من قرد وألص من فأرة وأفسد من ذئب » فالزعر والحرافيش والشطار (لصوص العراء)

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٣٦ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص ٦١٧ ، السبكى : معيد النعيم ، ص ١٤٧ .

(٢) محمد رجب النجار : حكاية الشطار والعيارين فى التراث العربى (الكويت ، ١٩٨١) ص ١٨٦ .

(٣) سيرة الظاهر بيبرس : الجزء الأول ، ألف ليلة وليلة ، ج٦ ، ص ١١٥٩ ، ص ١١٦٨ .

كان يسرقون الأثرياء أما السلاطين والأمراء والأجناد (لصوص القصور) فكانوا يسرقون الشعب بأسره دون استحياء .

ومن المفيد عنا أن نشير إلى التطور الطبقى لفئة الحرافيش والتى كانت تمثل عنصراً أساسياً فى سواد عامة القاهرة ، ولعبت دوراً فى الحياة الاجتماعية والسياسية فى هذا العصر ربما يبدو هامشياً فى نظر كثير من المؤرخين بسبب رؤيتهم لهذه الفئة من منظور فوقى إلا أنه فى حقيقة الأمر كان دوراً مهماً سوف نلاحظه عند عرضنا لمظاهر الحياة السياسية والاجتماعية لعامة القاهرة .

فالحرافيش كانوا فى العصر الأيوبى (٥٦٩ ـ ٦٤٨هـ) فرقة قتال شعبية فى الجيش اشتهرت بالجسارة والمروءة والإقدام ومن ثم فقد أسهموا فى الحروب ضد الصليبيين . ثم بدأ دورهم العسكرى يتلاشى تدريجياً فى ظل حكم المماليك والنظام الإقطاعى الذى لم يقم وزناً لهم فى مجال الحياة العسكرية أو المدنية ومن ثم تحولوا بسبب البطالة إلى التسول فى الخوانق والجوامع وتحالفوا فى مثل هذه الظروف المعيشية العصيبة مع بعض فرق الدراويش من « الفقراء » الذين تعالوا على هؤلاء « الحرافيش » واعتبروهم فئة دخيلة عليهم فى إطار العلاقة الخاصة بين الدولة وسكان الخوانق والربط والزوايا فظلوا مهمشين ومحقرين فى المنظور السياسى للدولة والمنظور الاجتماعى لبياض العامة .

وهؤلاء الحرافيش هم الذى صاروا فى نهاية العصر المملوكى وبداية العصر العثمانى (٩٢٣ ـ ١٢١٨هـ) يطلق عليهم « الشحاذون » أو « الشحاتون » وكان لهم رئيس يعرف باسم « شيخ الشحاتين » وهو يماثل « شيخ الحرافيش » فى عصر سلاطين المماليك ، وكانت لهم مشيخة لها تقاليدها ونظامها وقيمها السلبية فى نظر الطبقة الحاكمة [١] .

---

[١] المقريزى : السلوك ، ج١ ق٢ ، ص ٣٤٨ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٤١ ص٩٤ ، ج٥ ، ص ٤٣ ، ابن بطوطة : الرحلة ، ص٣٣ ، الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (بيروت ، دار الجيل ، د. ت) ج١ ، ص ١٦٦ ولمزيد من التفاصيل : محمد رجب النجار : حكاية الشطارين والعيارين ، ص ١٨٢ ، ١٨٦ والباحث يرى أن « الحرافيش » مدلول عام لكل « الفقراء » .

وفى الوقت الذى نظر فيه السلاطين لفئات الحرافيش ومن على شاكلتهم بعين الإزدراء والاحتقار باعتبارهم شرائح اجتماعية سفلية لا يرجى منها نفعاً ولا ضراً ، نظروا إلى الفقراء « الدراويش » (١) بعين العطف الذى بلغ أحياناً حد الاحترام والتبجيل فى مرحلة تأسيس الدولة المملوكية وأيضا فى أوقاتَ الشدة والأزمات وهو ما يفسره أحد الباحثين ونتفق معه بأنه نوع من التظاهر كسباً للرأى العام فى البلاد وللحصول على مودة ومحبة الطبقة الشعبية (٢) .

ولذا فإن الباحث يلاحظ من قراءة المصادر أن هذه الشريحة الاجتماعية التى سكنت الخوانق والربط والزوايا وخصصت لها رواتب نقدية وعينية ثابتة ومستمرة على طول العصر ــ كانت تلعب دوراً مهما فى الحياة السياسية والاجتماعية فى القاهرة ــ عاصمة الدولة ــ وصل حد استخدامهم فى عزل الخلفاء والحد من أطماعهم فى السلطة . فكانوا جديرين فى جميع الأوقات بامتيازات فى المأكل والملبس والسكن وغير ذلك من متاع الحياة ، وربما كان هذا هو السبب الرئيسى فى إقبال العامة فى القاهرة على الخوانق وشغفهم بالسكنى فيها إلى جانب التصورات الدينية العاطفية التى صاحبت الشرائح الاجتماعية الهاربة من ظروف القهر والفقر والشعور السلبى بالذنوب (٣) .

وعلى أية حال فإن المماليك ــ الطبقة الحاكمة ــ نجحوا إلى حد كبير فى ضم طائفة « الدراويش » إلى خطهم السياسى بتوفير كافة الرعاية الاجتماعية لها لاستخدامها فى إشغال الشرائح الأخرى من عامة القاهرة عن مشكلاتها الحياتية اليومية وفى نفس الوقت التصدى إلى أهل العلم والفكر المستنير فى صراعهم

---

(١) الدرويش : الفقير الجوال [المعاجم] وإن كانت المصادر خلطت بين الدروشة والتصوف [الباحث] .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : السيد البدوى (القاهرة ، ١٩٦٦م) ص ١١٢ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج١ ق١ ، ص ١٨٢ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج٣ ، ص ٨٨ ٨٩ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٥٢ .

السياسى مع النظام المملوكى الحاكم وهو ما شهد به أحد [١] الرحالة عند قدومه لمصر إذ رأى بعينه وسمع بأذنه ما تمتع به الدراويش « الفقراء » من امتيازات لم ينلها العلماء وهم الذين قال عنهم المقريزى فى خططه « لا ينسبون إلى علم ولا ديانة » [٢] .

ومن مظاهر العزلة الطبقية للطبقة الحاكمة أنهم كونوا لأنفسهم مجتمعا خاصاً انعزلوا من خلاله عن فئات العامة ، فى إطار العصبية العرقية التى كانت تمنعهم من الاختلاط بالأسر المصرية أو الزواج من المصريات أو مشاركة المصريين فى عوا ئدهم ، بل إن هذه العزلة لم تستمر طويلاً إذ سعى هؤلاء المماليك بترخيص من السلاطين فى النزول من الطباق والسكنى بالقاهرة والتزوج من بنات الأثرياء من المتعممين ومياسير التجار طمعاً فيما لديهم من أموال تساعدهم على حياة النعيم والترف التى اعتادوا عليها على حساب أصحاب البلد الأصليين [٣] .

وإذا كانت بعض الفئات العليا فى البناء الطبقى لمجتمع القاهرة من المتعممين والتجار قد تحركت فى الاتجاه الأحادى لمصلحة الطبقة الحاكمة طمعاً فى الرواتب والخلع السنية والمكاسب المالية ، والانعامات النقدية والعينية بحيث أن وضعهم فى البناء الطبقى للمجتمع جاء مذبذبا فلا هم من أرباب السلطة والنفوذ السياسى فى الدولة ولا هم فى صفوف العامة يشاركونهم حياتهم فى السراء والضراء . إلا أنهم فى بعض الأحيان يبدون تعاطفهم مع بنى جلدتهم من العامة لأنهم كانوا يعلمون مسبقا أن وجودهم فى رحاب الطبقة الحاكمة مرهون بمصالح هذه الطبقة خاصة أن النظرية الإقطاعية المملوكية تنص على أن أرض مصر وجميع موارد الدولة من

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٤٦ ــ ٥٨ .

(٢) المقريزى : الخطط ، ج٢ ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

(٣) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٢١٣ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٢٣ .

الخراج والزكاة والجزية ، والمكوس من نصيب السـلطان والأمـراء والجنـد دون سواهم من الشرائح الاجتماعية الأخرى [١] .

---

[١] القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص ١١٧ ، ١٥٣ ، ١٥٤ .

الفصل الثانى

الدور السياسى للعامة

مفهوم الدور السياسى للعامة – مستويات العمل السياسى للعامة « المشاركة الفعلية فى الأحداث – المعارضة السياسية – أعمال العنف والاغتيالات السياسية » – هبات العامة « الثورات » – مفهوم هبات العامة – خصائص هبات العامة – أسباب هبات العامة – موقف الدولة من هبات العامة – نتائج هبات العامة .

تناولت المصادر المعاصرة الدور السياسى لعامة القاهرة فـى إطـار الأزمـات الاقتصادية وأنباء الأوبئة والمجاعات والغلوات التى كانت تتعرض لها البلاد المصرية بين الحين والآخر مما يكون له أسوأ النتائج على كافة فئات المجتمـع المصـرى ـ عامة ـ وفئات العامة فى المجتمع القاهرى ـ خاصة . والتى كانت الطبقة الحاكمـة تقف حيالها مكتوفة الأيدى ، وكلما اشتدت وطأة الأزمة أو تفشت المجاعة أو الوبـاء فى أوصال العامة جحظت أعين أهل الدولة وانطلقت أيديهم تنتشر فـى كـل حـدب وصوب بحثا عن مصادر جديدة لجمع المال من العامة مثل رفع الأسـعار وزيـادة الضرائب ، وغش العملة وغيرها من الحلول السـلبية التـى دأبـت الدولـة علـى استخدامها حتى نهاية عصر سلاطين المماليك .

ومن ناحية أخرى فإن عامة القاهرة دأبوا على الربط بيـن تدهـور الأوضـاع الاقتصادية وسوء الأحوال المعيشية وشخص السـلطان الجـالس علـى العـرش . باعتباره المسئول الأول أمامهم عن مصالح الرعية ومن ثـم فـإن مفـهوم الـولاء السياسى كان مرتبطا عندهم ـ إلى حد كبير ـ بالاستقرار النسبى فى الأسعار وتوفـر السلع الأساسية فى الأسواق وهو ما لم يغفل عنه كثير من السـلاطين الأقويـاء ـ كالسلطان الناصر محمد بن قلاون ـ الذين حرصوا على تأكيد وجودهـم السياسـى لفترة طويلة من خلال إحكام قبضتهم على مقاليد الأمور فى البـلاد وضبـط وسـائل الإنتاج ، ورفع بعض أعباء المعيشة عن عامة المصريين دون التفريط منـهم فـى أسس قيام الدولة القائمة على « استعباد الرعية وجباية الأموال » [1] .

وفى ضوء النظرية السياسية لدولة سلاطين المماليك والتى تحددت سـلفاً مـع بداية العصر لم يكن فى مكنه السلاطين للحفاظ على « السلطة » و « الثروة » سوى توجيه المجتمع المصرى بطريقة « العصا والجزرة » لخدمة هذه النظرية .

---

(1) الأموال الشرعية : الخراج والجزية والزكاة بأنواعها أما الأموال التى كانت تجبى من النـاس فهى المكوس « الضرائب » المستحدثة والتى اعتبرها أهل العلم نوعاً من أكل أمـوال النـاس بالباطل ابن خلدون : المقدمة ، ج٢ ، ص ٥٧٣ ـ ٥٧٤ ، ص ٧٤١ ـ ٧٤٨ ، القلقشـندى : صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص ١١٧٠ .

ويمكن تقسيم الدور السياسي لعامة القاهرة إلى عدة مستويات متدرجة نبدأها بالمستوى الأول وهو المشاركة الفعلية في الأحداث : التي كانت تشهدها العاصمة في إطار الاضطرابات والقلاقل السياسية والاقتصادية والصراعات الدائرة بين الفرق المملوكية من ناحية وبين هذه الفرق وحركات التمرد والعصيان من جانب بعض الفئات الأخرى مثل « العربان » الذين كانوا عنوانا للشغب على مدار هذا العصر ـ من ناحية ثانية ـ أو في إطار بعض أعمال الفساد والتخريب التي كانت تصاحب إجراءات القبض على بعض الأمراء والمصادرات لبعض أرباب الوظائف الدينية والديوانية من ناحية ثالثة .

ويعد السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ / ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م) ـ المؤسس الفعلي لدولة سلاطين المماليك ـ من أقوى الحكام الذين حظوا بتأييد شعبي من جانب العامة المصريون إلى حد أنهم نسجوا له من خيالهم سيرة البطل الذي تسلح بكل القيم الروحية والقومية لكي يحقق أهداف أمته العربية والإسلامية في الوحدة والحرية بل جعلوه عربياً مسلماً في المولد والنشأة [١] .

والواقع أن الدولة في بداية حكم هذا السلطان تعرضت إلى بعض محاولات الإطاحة به من بعض الأمراء المنافسين مثل المحاولة التي قادها الأمير سنجر الحلبي في سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠ والأخرى التي قادها أحد رجال الشيعة في القاهرة ويدعى « الكوراني » الذي تظاهر أمام العامة بالورع والتقوى والزهد وسكن قبة جبل المقطم ، وجمع بقايا الجنود السود الموالين للشيعة وبقايا الشيعة محرضاً على تغيير نظام الحكم وإقامة دولة شيعية .

ويذكر المقريزي أنه في أواخر سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م « ثار جماعة من السودان والركبدارية والغلمان ، وشقوا القاهرة وهم ينادون بآل علي ! واقتحموا

---

[١] عن الموضوع : قاسم عبده قاسم : الشخصيات التاريخية في سيرة الظاهر بيبرس (القاهرة ، ندوة التاريخ الإسلامي الوسيط) ، وأيضاً نفس الموضوع ، (القاهرة ، مجلة الفنون الشعبية ، العدد ١٨ ١٩٨٧) ص ٢١ ـ ٣٥ .

دكاكين السيوفيين بين القصرين ، ... فلما ثاروا فى الليل ركب العسكر وأحاطوا بهم ، ... وسكنت الثائرة » [(١)] .

والرواية هنا تكشف عن حالة من السكون والهدوء المشوب بالحذر من جانب عامة القاهرة الذين لم يكونوا ــ بعد ــ قد تعرفوا على معالم شخصية السلطان واتجاهاته فى الإدارة والحكم .

ولذلك فإن السلطان بيبرس عندما أخفى على حكمه الصفة الشرعية عن طريق إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة فى سنة ٦٥٨هـ بعد سقوطها فى بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وحصوله على التأييد المطلق من الخليفة العباسى الجديد كان تأييد عامة القاهرة له بلا حدود ، وهو ما وصفه لنا المقريزى تفصيلا عند ذكره لمراسم التقليد السلطانى الذى قرأه محى الدين ابن لقمان صاحب ديوان الإنشاء .

« وفى يوم الاثنين رباع شعبان ركب السلطان إلى خيمة ضربت فى البستان الكبير خارج القاهرة ومعه أهل الدولة ، ... ، ولما فرغ من قراءته ركب السلطان بالخلعة الذهب والقيد الذهب وكان الطالع برج السنبلة وحمل التقليد الأمير جمال الدين النجيبى لستدار السلطان ثم حمله الصاحب بهاء الدين وسار به بين يدى السلطان ، وسائر الأمراء من دونهم مشاة سوى الوزير . ودخل السلطان من باب النصر وشق القاهرة ، وقد زينت وبسط أكثر الطريق بثياب فاخرة مشى عليها فرس السلطان وضج الخلق بالدعاء بخلود أيامه وإعزاز نصره وأن يخلعها خلع الرضى ، إلى أن خرج من باب زويلة وسار إلى القلعة . فكان يوما مشهوداً تقصر الألسنة عن وصفه » [(٢)] .

وكان بيبرس حريصا على تأكيد البعد الدينى فى سياسته تجاه العامة والتى تمثلت فى العديد من الإصلاحات والإنشاءات الدينية فى مصر وسائر البلاد المقدسة (مكة ــ المدينة ــ القدس) فضلا عن تقريبه للعلماء والفقهاء والقضاة والفقراء من

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج١ ق٢ ، ص ٤٤٠ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج٢ ق٢ ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٧ .

أهل الخوانق والربط والزوايا وغيرها من الأشياء التى جعلت له مكانة خاصـــة فـــى نفوس العامة بسبب اهتمامه الزائد بالحفاظ على الشعائر الروحية [١] .

وما يقال عن السلطان الظاهر بيبرس فى علاقته بالعامة يمكن أن ينسب إلـــى السلطان الناصر محمد بن قلاون الذى كان فى نظر العامة رمـــزاً للأمـــن السياســـى والأمان الاجتماعى ، ومرجع هذا سياسته الحازمة والحكيمة فى إدارة شئون الحكـم ، تلك السياسة التى جعلته ملء العين والقلب فى منظور العامة وكذلـــك فـــى منظـــور الخاصة من الأمراء الذين كانوا « يهابونه » [٢] فى المجالس ويـــأتمرون بـــأوامره وينتهون بنواهيه حتى أن أحد المؤرخين المعاصرين لعهده يذكر فـــى أحـــداث ســـنة ٧٠٩هـ / ١٣١٠م أن عامة القاهرة تجمعوا تحت القلعة مطالبين بعـــزل الســـلطان بيبرس الجاشنكير وعودة الناصر محمد معبرين عن مبلـــغ لتمانـــهم وولائـــهم لـــه بالصياح والهتاف، الذى اهتزت له أركان القاهرة إذ ضجوا بلسان واحد :

« ما لنا سلطان إلا الناصر محمد بن المنصور لا سواه » [٣]

وقد ساد القاهرة الاضطراب والفوضى فى أعقاب اعتزال النـــاصر محمـــد بـــن قلاون الحكم فى ولايته الثانية (٦٩٨ ـــ ٧٠٩هـ) وظلت العامة على عـــهدها مـــع السلطان الناصر ، وتحملوا فى سبيل ذلك العنـــت والأذى مـــن الســـجن والضـــرب والتشهير بل زادهم هذا إصرارا على مطلبهم فى عودة السلطان من منفاه [٤] .

ويتفق المعاصرون على تعاطف العامة مع هذا السلطان والابتهاج برؤيته مـــن خلال الرواية التى ذكرها المقريزى ، وابن تغرى بردى ، وابن إيـــاس فـــى أعقـــاب

---

[١] المقريزى : المصدر السابق ، ج١ ق٢ ، ص ٥٨٠ ـــ ٥٨١ ، ابن أيبك : كنز الدرر وجـــامع الغرر ، ج٨ ، ص ١٢٣ ، العينى : عقد الجمان ، تحقيق محمد محمد أمين (القاهرة ، الهيئـــة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨) ج٢ ، ص٦ ، ٤٦ ، ٤٧ .

[٢] المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٠٥ .

[٣] بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية ، ص ٩٩ ـــ ٢٠٠ .

[٤] المقريزى : السلوك ، ج٢ ق١ ، ص٧٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٨ ص ٢٦٩ .

عودة السلطان من منفاه بالكرك إذ خرج العامة من كل حدب وصوب لاستقباله « بالمغانى وأرباب الملاهى » . وازدانت له القاهرة وكأنها فى يوم عرس [١] .

ويفسر ابن تغرى بردى هذا التأييد السياسى من جانب العامة للسلطان الناصر محمد على أساس أن العامة كانوا كارهين لحكم المماليك فى غالب الأحوال وأن حكم الناصر محمد كان بالنسبة لهم أخف وطأة من حكم السلطان بيبرس الجاشنكير ومن هم على شاكلته « فإن كان ولابد يكون من بنى قلاون » [٢] .

ومما يؤكد أن العامة لم يكونوا كما تصور كثير من المؤرخين المعاصرين من أمثال بيبرس المنصورى ، وابن أيبك ، وابن تغرى بردى ، وغيرهم مجرد جمهور من الأوباش والغوغاء لا تحسن التمييز بين حاكم وآخر ما ذكرته المصادر عن السلطان بيبرس الجاشنيكر عندما حاول أن يستخدم سياسة العصا والجزرة مع عامة القاهرة كى تهدأ ثائرتهم ، وينشغلوا عن مطاردته فلم يستطع ذلك بل على العكس فإن العامة لم تلتفت إلى بعض الذهب المنثور عليهم من أعوان السلطان واستمروا فى ثورتهم ضده التى بلغت حد رجمه بالحجارة والمقاليع .

« ... ، وأخذوا فى العدو خلفه وهم يصيحون ويسبونه سباً قبيحاً » [٣]

بل إن عامة القاهرة كانوا حريصين على تأييد أتباع السلطان الناصر محمد من الأمراء والوقوف إلى جانبهم فى الصراعات التى كانت تحدث بينهم وبين الأمراء المنافسين لهم مثلما حدث فى يوم الخميس ٧ رمضان سنة ٧٤٢هـ عندما هرعت العامة خلف الأمراء لاستقبال أولاد السلطان تحت القلعة .

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج٢ ق١ ص٧٧ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج٩ ص١٤ ، ابن إياس : المصدر السابق ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٣١ .

(٢) ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج٩ ، ص ١٧٢ .

(٣) المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ق١ ، ص٧١ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج١٠ ، ص٥٥ ، ٥٦ .

« ... ، فلما وصل أولاد السلطان تحت القلعة وأخاهم الأمير جمال الدين يوسف ... والى القاهرة حينئذ ــ فنزل ــ وقبل ركبة الأمير رمضان ابــن الملــك النــاصر فرفسه برجله وسبه وقال له : أتنسى ونحن فى الحراقة عند توجهنا إلى قوص وقــد طلبنا مأكلاً من الجيزة فقلت خنوهم وروحوا إلى لعنة الله ما عندنا شــئ ، فصــاحت بهم العامة : بالله مكنا من نهبه هذا قوصونى فأشار بيده أن انهبوا بيته فتســـارعوا فى الحال إلى بيته المجاور لجامع الظاهر بالحسينية حتى صاروا منه إلى باب الفتوح فقامت أخوته ومن يلوذ به فى دفع العامة بالسلاح وبعض الأمير أيد غمـــش أيضــا جماعة ليردوهم عن النهب وخرج إليهم نجم الدين والى القاهرة وقد تقاتل القوم حتى منعهم من القتال ، فكان يوما مهولاً قتل فيه من العامة عشرة رجال ، وجرح خلـــق كثير ولم ينتهب شئ » [١] .

ولذلك فإن أمراء هذا العهد تعاطفوا مع العامة بشكل ملفـــت لنظــر البــاحث ، فالأمير طشتمر [٢] نائب حمص فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون كان مقربـــا من قلوب العامة يحبهم ويحبونه بدرجة فاقت رؤيتهم الوجدانيـــة للســـلطان النـــاصر محمد نفسه الأمر الذى عاد عليه بالخير والنفع فى أوقات الشدة ، فتذكر المصادر أن هذا الأمير عندما اعتقله الناصر محمد فى سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٢م ، اجتمع من أجلـــه آلاف من العامة أسفل مقر الحكم بالقلعة مطالبين السلطان بالإفراج عنـــه متوعديـــن إياه بالويل والثبور فما كان من السلطان إلا الإذعان لمطلبهم دون قيد أو شرط .

---

(١) ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج١٠ ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) الأمير سيف الدين طشتمر البدرى وربما لقب بحمص أخضر لأنه كان يحب أكله وقد قبض عليه السلطان الناصر محمد غير مرة ولكن تأييد العامة له وعلاقته الطيبة بزملائه الأمراء كان تدفـع السلطان إلى الإفراج عنه (المقريزى : السلوك ، ج٢ ق١ ، ص١٣١ ، ابــن حجــر : الــدرر الكامنة ، ج٢ ، ص٢١٩ ، ٢٢٠ .

ويرغم أن هذا الأمير كان ممقوتاً من السلطان الناصر محمد فإنه كان معشوقاً من عامة القاهرة بسبب تعاطفه الشديد معهم وإحسانه الدائم إليهم حتى أطلقوا عليه لقب « حمص أخضر » تعبيراً عن رؤيتهم المتفائلة بشخصه [١] .

والواقع أن ثمة عدد من السلاطين عرفوا بتعاطفهم مع هذه الفئة الاجتماعية منهم السلطان حسام الدين لاجين (٦٩٦ ــ ٦٩٨هـ) الذى تعاطف معهم وبادلهم المحبة والتأييد والثقة ، والسلطان الأشرف شعبان (٧٦٤ ــ ٧٧٨هـ) والسلطان الظاهر برقوق (٧٩٨ ــ ٨٠١هـ) والسلطان قانصوه للغورى (٩٠٦ ــ ٩٢٢هـ) .

وكانت صور التعاطف من جانب هؤلاء السلاطين وغيرهم تتمثل في توزيع المواد الغذائية عليهم في أوقات القحط والمجاعة فضلا عن غيرها من العطايا التى وصلت إلى الفضة والذهب [٢] .

ومما يذكر أن التعاطف السلطانى مع فئات العامة من الحرافيش وغيرهم ظل حتى نهاية عصر سلاطين المماليك فيذكر ابن إياس أن السلطان قانصوه الغورى كان شغوفاً باصطحاب شيخ الحرافيش معه عند خروجه فى الغزوات ومعه جنده وصنجته وطبله [٣] ، وكان يفرق الصدقات عليهم بنفسه يشاركهم فى ذلك مشايخ الفقراء « الدراويش » .

ففى العاشر من المحرم سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م « أمر السلطان بأن تجمع الفقراء والحرافيش عند سلم المدرج ، فاجتمع هناك الجم الغفير من الفقراء

---

[١] ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج٨ ، ص١٥٤ ، ابن إياس : المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٢٨ ، ٤٥٧ .

[٢] ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج٨ ، ص ٨٨ ، ابن إياس : المصدر السابق ، ج١ ق٢ ، ص ١٢٥ ، ٤٨٢ ، ج٤ ، ص ٩٤ ، ١٤١ ، ج٥ ، ص ٤٢ ، ٤٤ .

[٣] الصناجق : الرايات مفردها صنجق ، فى الأصل هى شعار السلطان أما الطبول فهى « الكوسات » فى المصطلح المملوكى وكانوا يبالغون فى الاستكثار منها (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٨ ، ابن خلدون ج٢ ، ص ٦٩٩ .

والحرافيش ونزل السلطان بنفسه ووقف وهو راكب على فرسه تحت سلم المدرج وصار يعطى لكل إنسان من الفقراء من رجل وامرأة وكبير وصغير أشرفياً ذهبياً » [١] .

وقد شارك العامة بعد وفاة الناصر محمد (ت ٧٤١هـ) فى الأحداث السياسية التى دارت رحاها بين الأمراء المماليك المنافسين على السلطة والثروة خاصة أن خلفاء الناصر محمد لم يكونوا على شاكلة سلفهم فى سياسة أمور الدولة .

ففى سنة (٧٤٢هـ / ١٣٤١م) اشتد الصراع على العرش بين الأمراء السلطانية من أتباع السلطان علاء الدين كجك ـ وارث العرش ـ والأمير قوصون الناصرى ـ الطامع فى العرش ـ وكان الأخير يتباهى بكثرة جنده ويقول : « إيش أبالى بالأمراء وغيرهم ! عندى سبع مائة مملوك ألقى بهم كل من فى الأرض » .

وفى هذه الأثناء أمر الأمير أيد غمش أجناد الحلقة ومماليك السلطان وأجناد الأمراء بالحضور إليه لمحاربة قوصون « ... وأقبلت العامة كالجراد المنتشر ، فنادى أيد غمش يا كسابة ! عليكم بإصطبل [٢] قوصون ومماليكه ، فألقى حينئذ قوصون واستسلم » [٣] .

وكانت العامة تعاون العسكر المماليك فى محاصرة القلعة بجمع النشاب « السهام » لهم من الأرض كى يعاودا الكرة على قوصون ، ولما تم القبض عليه شرعت العامة فى نهب بيوت المماليك الموالين له إلا أن والى القاهرة قبض على عدد منهم وضربهم بالمقارع وسجنهم بعدما شهرهم ، فاجتمع جمهور من « الغوغاء » ورجموه من كل جهة « فهرب الوالى » [٤] وسط صيحات العامة بالويل له والدعاء للسلطان .

---

(١) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٤٢ ـ ٤٤ .

(٢) الإسطبل : مجموعة من المبانى لسكن الأمير وأسرته ومماليكه وخدمه وخيوله (سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المملوكى ، ص ٣٩١ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج٢ ق٢ ، ص ٥٨٧ ـ ٥٩٠ .

(٤) المقريزى : السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج١٠ ، ص٥ .

وهذه الرواية تكشف عن طبيعة العامة فى علاقتها بأهل الحكم والتى تراوحت بين المحبة والعداوة حسبما يتراءى لهم فى إطار الصراع بين السلاطين والأمراء الذين تعاملوا مع هؤلاء العامة باعتبارهم أداة معاونة فى خضم هذه الأحداث الدامية فإذا ما انتهت لمصلحة هذا أو ذاك انفض العامة وعادوا إلى أحوالهم العادية فى الحياة اليومية .

وإذا كان السلطان الناصر محمد قد نجح خلال عهوده الثلاثة (٦٩٣ ــ ٦٩٤هـ) ، (٦٩٨ ــ ٧٠٨هـ) ، (٧٠٩ ــ ٧٤١هـ) فى كسب تأييد العامة وتأليف قلوبهم حوله ، بل إنه أورث أبناءه هذا الحب والتأييد إلا أنهم لم يصونوا هذه العاطفة الشعبية تجاههم يدل على هذا ما حدث من جانب السلطان الناصر أحمد بن محمد فى سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م ــ ويرويه لنا المؤرخ ابن تغرى بردى : « وفى يوم الاثنين الخامس من شعبان . تجمعت العامة بسوق الخيل ومعهم رايات صفر وتصايحوا بالأمير أيدغمش زودنا لنروح إلى أستاذنا الملك الناصر ونجئ صحبته فكتب لهم مرسوما بالإقامة والرواتب فى كل منزلة وتوجهوا مسافرين من الغد » [1] وكان العامة بذلك يرومون إلى الأمور إلى ما كانت عليه من الهدوء والاستقرار بعد أن انتابهم الخوف من أن يحكمهم أحد من خارج البيت القلاوونى كما حدث فى السنوات الانتقالية لحكم السلطان الناصر محمد (كتبغا : ٦٩٤ ــ ٦٩٦هـ ، ولاجين ٦٩٦ ــ ٦٩٨هـ وبيبرس الجاشنكير ٧٠٨ ــ ٧٠٩هـ) .

وما أن حضر السلطان الناصر أحمد من الكرك إلى القاهرة وسط حفاوة وترحيب من العامة حتى رغب فى الرحيل مرة أخرى لتصبح البلاد نهبا لمجموعة من الأمراء يتلاعبون بالسلاطين كيفما يحلو لهم بينما كان عامة القاهرة يقفون غالبا موقف المشاهد يبكون لموت سلطان ويفرحون لميلاد سلطان جديد .

ومن الملاحظ أن الدور السياسى لعامة القاهرة كان يتصاعد فى مراحل الضعف السياسى لسلاطين المماليك وهو ما يبدو واضحا فى عصر أبناء وأحفاد الناصر محمد

---

[1] ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٠ ، ص٥١ ، ٦٩ .

(٧٤١ ـ ٧٨٤هـ / ١٣٤٠ ـ ١٣٨٢م) مما يعنى أن العامة كانوا يفضلون حكم السلاطين الأقوياء المستبدين على حكم السلاطين الضعفاء المتهاونين ولذا كان بيبرس وقلاون والناصر محمد فى نظرهم من « أعظم ملوك الترك » .

ففى يوم الأربعاء ٤ رجب سنة ٧٤٢هـ وقعت الفتنة بين الأمير رمضان ابن الناصر محمد وبين أخيه الصالح إسماعيل (٧٤٣ ـ ٧٤٦هـ) بسبب خروج الأمير رمضان عن طاعة أخيه ورغبته فى الإطاحة به وخلعه من السلطنة بالتعاون مع طائفة من المماليك . « واتفقوا على ذلك » .

وقد شارك العامة فى تأييد هذا الاتفاق بعد أن وهنت قوة السلطان واعتلت صحته ، وأصبح العامة من شفائه يائسين ، فلما عادت إليه عافيته نفض العامة عن تأييد الأمير رمضان « وانفلوا عنه » [١] .

وفى سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م شارك عامة القاهرة فى القضاء على محاولة الأمير يلبغا الأتابك لعزل السلطان الأشرف شعبان (ت ٧٧٨هـ / ١٣٧٧م) وتوليه الأمير أنوك بن الأمجد حسين أخى السلطان .

« ... وقصد بيته بالكبش فرجمته العوام ، ... وطلعوا به إلى قلعة الجبل بعد المغرب فسجن بها » [٢] .

وفى سنة ٧٦٩هـ / ١٣٦٨م اشتد الصراع بين المماليك السلطانية والمماليك الأجلاب بقيادة أسندمر الناصرى فتعاون العامة مع المماليك السلطان فى رمى « الأجلاب » بالحجارة حتى انتهت المعركة لمصلحة « المماليك السلطانية » .

« ... ، وتتبعت العامة عند ذلك الأجلاب فى الأزقة والحارات وأخذوا منهم جماعة » [٣] .

---

[١] ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج١٠ ، ص ٨٢ ـ ٨٤ .
[٢] ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج١١ ، ص ٣٧ ـ ٤٠ .
[٣] المقريزى : المصدر السابق ، ج٣ ، ق١ ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

ومن الواضح أن مشاركة عامة القاهرة فى الأحداث الجارية بين الفرق المملوكية المتصارعة على النفوذ الحاكمى كانت تتم دون إدراك لما كان يحدث داخل مقر الحكم السلطانى يدل على ذلك أن السلطان الأشرف شعبان بعد أن شفع فى الأمير أسندمر الأتابكى عاود الأمير الكرة عليه هو والأمير خليل بن قوصون – ابن بنت السلطان الناصر محمد – وحاولا – معا – قتل السلطان فبادر السلطان بالنداء فى العامة « هؤلاء مخامرون فارجموهم ، فصاحت العامة بأجمعها ، مخامرون ، ورجموهم بالحجارة » [١] .

وهنا يبدو التعاطف الشعبى مع السلاطين فى ضوء حرص العامة على استقرار أحوال البلاد واستتباب الأمن الداخلى برغم ما كانت تعانيه العامة من مظاهر الحرمان السياسى والظلم الاجتماعى من منطلق قناعتهم بأن « ما لا يدرك كله لا يترك كله » .

وهذا التعاطف الشعبى من جانب عامة القاهرة ظهر بصورة ملحوظة مع بداية حكم الأتراك المماليك الجراكسة وكان لهم الدور فى تمكين الأمير برقوق من حكم البلاد وانتصاره على منافسيه من الأمراء فى أحداث سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م إذ كان الأمير برقوق يتقرب للعامة [٢] ويدافع عنهم ويحسن إليهم « حتى أحبوه وتعصبوا له » وتخوفوا أن يحكمهم الأمير بركة الجوبانى الذى أمر والى القاهرة بالقبض على « الزعر والعبيد » فازداد خوفهم إلى نودى على لسان الأمير الكبير برقوق بالأمان .

« من سخركم يا عوام اقبضوا عليه » [٣]

وتؤكد المصادر أن الظاهر برقوق لم يكن ليقدر أن يقيم دولة المماليك الجراكسة دون تأييد عامة القاهرة ومؤازرتهم له وذلك بعد أن تخلى عنه مماليكه

---

[١] المقريزى : المصدر السابق ، ج٣ ، ق١ ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .
[٢] المقريزى : المصدر السابق ، ج٣ ، ق١ ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .
[٣] كان « بركة » مملوكاً لبرقوق وتمرد عليه ، ولما عاد برقوق للحكم فى سنة ٧٩١ هـ علقبه حتى الموت (ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٤ ، ص ٩٤ – ٩٩) .

فى بداية الصراع على « جركسة » الحكم مع منافسة الأمير اينال الذى وعد العامة بأمور كثيرة إن كتب له النصر على عدوه اللدود « برقوق » .

ويصف المعاصرون أحوال القاهرة فى ظل أحداث الصراع بين برقوق ومنافسيه من الأمراء بأنها تحولت إلى عاصمة دموية أشبه ما تكون بميدان قتال حمل فيها العامة السلاح وصارت لهم اجتماعات وعصبيات وأحزاب ، « وغلقت الأسواق ، واشتد خوف الناس من النهابة وبطل الحكم وصار الأمر لمن غلب »[1] .

وكاد الأمير برقوق أن يستسلم بعد أن « آيس من الحياة » لولا أن تجمعت العامة حوله من كل مكان كأنهم « جراد منتشر » ولم يأل جهداً فى التقرب إليهم والتواضع لهم عسى أن يؤلف قلوبهم على طاعته ويكونوا له عضداً فى مسعاه نحو دست « السلطة ومن ثم لم يكن عجباً أن نقرأ على لسان برقوق فى المصادر هذه العبارة » يا أخوتى هذا وقت المروءة[2] .

وقد ساعد العامة « منطاش » فى صراعه الدامى مع يلبغا الناصرى الذى هرب من مصر لينهب العامة اصطبله وما فيه من "خيل وقماش" ثم يطلع الأمير المنتصر « منطاش » إلى السلطان المنصور حاجى معلناً طاعته له بقوله :

« أنا مملوكك ومطيع أمرك »[3]

وقد صار منطاش بعد تأييد العامة له وتوليه منصب الأتابكية يتطلع بقوة نحو كرسى السلطنة فأخذ فى الاستعداد لمحاربة منافسه الجديد السلطان الظاهر برقوق الذى تسلطن بعد خلع السلطان المنصور حاجى أخر ملوك أسرة قلاون فى سنة ٧٨٤/١٣٨٢م .

---

(١) المقريزى : المصدر السابق ، ج٣ ، ق١ ، ص ٦١١ ـ ٦١٥ ، ابن حجر : أنباء الغمر ، ج١ ص ٢٩٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٩ .

(٢) المقريزى : المصدر السابق ، ج٣ ، ق١ ، ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ .

(٣) ابن حجر : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٣ .

وتبدو العلاقة بين التعاطف السلطانى والولاء السياسى للعامة فى ضوء التحولات العكسية لعامة القاهرة فى تأييدهم ضد أمير أو فرقة ضد أخرى مثلما حدث عندما تحول العامة عن الأمير يلبغا الناصرى إلى الأمير « منطاش » بسبب عودة « المكوس » التى كانت قد أبطلت فى الشطر الأول من حكم السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤ ــ ٧٩١هـ) وصار العامة يصنفون المماليك حسب تعاطفهم السياسى فإذا وقع أحد المماليك فى قبضة العامة سألوه : ناصرى أم منطاشى ؟ فإذا وجدوه ناصرياً أنزلوه عن فرسه ونهبوه وقادوه إلى الأمير منطاش [١] ومن ثم كان على منطاش أن يستعين بتأييد العامة له فى الوثوب على منافسة برقوق وخلعه من السلطنة إلا أن الأمور صارت إلى ما لا يشتهى منطاش لسببين : الأول : أن المماليك الجراكسة الذين كانوا معه ضد برقوق تخلوا عنه شيئا فشيئا لينضموا إلى أستاذهم برقوق وذلك لشحه معهم وعدم إنفاقه عليهم ، والآخر : أن عامة القاهرة تعرضوا لمختلف صور الضرر المادى بسبب الضرائب والغرامات والمصادرات التى فرضت على كافة الشرائح الاجتماعية حتى قيل أنه ألزم بعض الأثرياء من العامة المقبوض عليهم بدفع مبالغ كبيرة من المال بلغت مائة وخمسين ألف درهم [٢] .

ولذا تطلع عامة القاهرة إلى عودة سلطانهم الظاهر برقوق من الشام إلى مصر خاصة بعد أن تنازل السلطان المنصور حاجى لبرقوق عن السلطنة وعبروا عن ذلك من خلال تأييدهم المطلق لبرقوق الذى تمكن من هزيمة الأمير « منطاش » فى دمشق سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م لينعم عامة القاهرة فى بداية حكمه الثانى بنوع من الاستقرار النسبى [٣] .

---

(١) المقريزى : المصدر السابق ، ج٣ ق٢ ، ص ٦٢٠ ، ٦٢٨ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج١١ ، ص ٢٨٦ .

(٢) المقريزى : المصدر السابق ، ج٣ ق٢ ، ص ٦٧٨ ــ ٦٨١ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج١١ ، ص ٣٦٠ ــ ٣٦٣ .

(٣) ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج١١ ، ص ٣٦٩ .

المعارضة السياسية للعامة :

لم يكن عامة القاهرة فى جميع الأحوال مجرد أداة سياسية فـــى يـد السـلطة المملوكية تستخدمها كيفما شاءت ، بل كان للعامة دور فى معارضــة أهـل الدولـة والتصدى للسلطان والأمراء فى مواجهة ما يتخذونه من إجراءات تعسفية ضدهـم أو ضد غيرهم من رجالات الدولة الذين يعتزون بهم .

وقد لفتت هذه الظاهرة السياسية أنظار أحد الرحالة الذين زاروا القــاهرة فـى بدايات القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى إذ سمع أن جمهور غفير مـن عامة القاهرة وقف أسفل القلعة منددين بإجرائه الظالم ضد أحـد الأمـراء الأخيـار المعروفين بكثرة الصدقات على الأيتـام « من كسوة ونفقة وأجـرة لمـن يعلمـهم القرآن .. » فما كان من الناصر إلا أن استجاب لهم فأخرجه من سجنه [١] .

وفى سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م نادى العامة فى القاهرة بعـزل الوالـى الأمـير الطنبغا الماردانى ، وتعيين الأمير نجم الدين بدلا منه بسبب ما اقترفه فى حقهم مـن قتل وجرح وتنكيل أثناء الفتنة الدائرة بين الأمير أيدغمش والأمير قوصون .

وليس بالضرورة أن يستجيب النظام السياسى الحاكم فى كل أمر يعرضه عليـه العامة أو كل مطلب شعبى فى شئون الحياة العامة ، بل على العكس من ذلك تمامـاً فربما يمتنع السلطان أو أهل الدولة عن النزول على إرادة العامة أو ربمـا يتظـاهر السلطان بالاستجابة لهم على سبيل التهدئة السياسية دون أن يكـون هنـاك إجـراء تنفيذى مثلما حدث فى ١٦ شعبان سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م عندما « قبـض السـلطان على الاستادار على عبد الله بن محمد الطبلاوى فاجتمعت العامة ورفعوا المصـاحف والأعلام بالرميلة وسألوا إعادة الطبلاوى فضربوا وشتموا فتفرقوا » [٢] .

ومن الأمثلة الشائعة فى المصادر المعاصرة تلك التى تشير إلى معارضة العامة لسياسة الدولة فى رفع الأسعار بشكل سافر ومفاجئ يثير غضب الناس لعدم قدرتـهم

---

[١] ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٣٦ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج٨ ، ص ١٥٤ .

[٢] ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج١٠ ، ص ٥١ .

على الشراء بسبب ضعف الأجور ، فضلا عن عدم توفر السلع الأساسية التى يحتاجون إليها يومياً كالقمح والشعير ، والفول ، وغيرها من السلع .

ففى سنة ٧٨٢هـ / ١٣٨٠م ارتفع سعر الغلال بالقاهرة وتعذر وجود الخبز بالأسواق فاستغاث العامة فى عودة المحتسب جمال الدين العجمى وعزل الدميرى الذى اختفى بمنزله خوفا على نفسه من العامة .

« وفى يوم الاثنين ١٣ جمادى الآخرة ، أعيد العجمى إلى الحسبة بدلاً من الدميرى ففرح العامة فرحاً زائداً » [١] .

وفى ٢٢ ربيع الآخر سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م « صاح العوام وشكوا من المحتسب ابن البرجى وسألوا عزله ، وفى ثالثه وقف أوباش العامة تحت القلعة ورصدوا ابن الترجى حتى نزل ورجموه بالحجارة حتى كاد يهلك لولا امتنع ببيت أحد الأمراء » [٢] .

ومن استقراء الرواية السابقة نلاحظ أن المعارضة أحيانا كانت تحدث على التآمر المتبادل بين أهل الدولة فى زمن كانت الوظائف تباع وتشترى بالمال عياناً جهاراً ومن ثم فإن البعض كان يستأجر الأوباش من العامة بغرض إحراج السلطة ودفعها إلى العزل والتعيين فى هذه الوظيفة .

وكان هذا النوع من المعارضة يأتى على هوى السلطان لأن يحقق هدفين بأداة واحدة أحدهما ، الحصول على المال من الشخص المعزول عن طريق « المصادرة » والآخر ، الحصول على المال من الشخص المعين فى الوظيفة عن طريق « البذل » فضلا عن ظهوره السياسى أمام العامة بأنه يعمل لصالح العامة للمصريين يؤكد ذلك ما حدث فى زمن السلطان الظاهر برقوق (٨٠١ ــ ٨١٥ هـ / ١٣٩٨ ــ ١٤١٢م) إذا ثارت العامة ضد الأمير شهاب الدين أحمد بن الزين بعد أن « كادت

---

[١] المقريزى : المصدر السابق ، ج٣ ق١ ، ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

[٢] المقريزى : المصدر السابق ، ج٣ ق٢ ، ص ٨٧٥ .

أن تقتله » فما كان من السلطان إلا أمر بعزله وضربه بالمقارع ضرباً ولم يكتف بهذا العقاب الشديد بل ألزمه بسداد أربعمائة ألف درهم لخزينة السلطان [١] .

ويبدو أن العامة كان تستغل هذه الإجراءات التعسفية من جانب الحكومة المملوكية لممارسة أعمال السلب والنهب لأرباب الوظائف فى الدولة معتمدين على حالة الفوضى والاضطراب وغياب الحصانة الأمنية لهم . مثلما حدث فى ١٥ شوال سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م عندما أشار أحد الأمراء على السلطان بعزل الكتّاب النصارى لتهدئة نفوس العامة إلا أن السلطان لم يكن من مصلحته عزلهم وهم آداه جباية الأموال من الرعية ، فلم يجد أسلوبا لمعالجة هذا الموقف الحرج سوى أن يخرج الحاجب وينادى فى الناس « من وجد نصرانيا فله ماله ودمه » ، وهنا سارع العامة من النصارى والمسلمين بالسطو على هؤلاء الكتاب ليس لكونهم من النصارى ولكونهم أداة عسف للسلطة المملوكية « وأخذوا منهم شيئاً كثيراً ، ... ، وأما ما سلبوه من العمائم والثياب والمهاميز والفضة فشئ كثير » [٢] .

وهذه الرواية تكشف عن السياسة المزدوجة التى كانت تنتهجها الدولة فى إدارة شئون البلاد إذ تستغل نقمة العامة على أحد كبار الموظفين ـ الذى يمثل السلطان فى سياسته حيال رعيته ـ وتسارع إلى عزله أو تسليط العامة عليه بعد أن يكون السلطان قد حقق من خلاله أهدافه الاستغلالية ضد الرعية .

أعمال العنف والاغتيالات السياسية :

وقد تطور الدور السياسى فى أواخر هذا العصر من مرحلة الاشتراك فى الأحداث كأداة فى عملية الصراع السيلسى بين المماليك أو المعارضة السياسية لممارسات النظلم الحاكم إلى مرحلة العنف والحركات الإجرامية السرية من جانب العامة فى القاهرة الذين زادت أعداد الفئات السفلى منهم (الزعر والحرافيش ، والمنلسر ، ...) كرد فعل لمساوئ الإدارة السياسية الحاكمة ، وتدهور الأحوال

---

[١] المقريزى : المصدر السابق ، ج٣ ق٢ ، ص ٩٦٥ .

[٢] المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٦١ .

الاقتصادية بسبب سوء توجيه الدولة لوسائل الإنتاج وتدنى القيم الاجتماعية لغياب مفهوم العدالة وتكافؤ الفرص بين الحكام والمحكومين ناهيك عن الإسراف الشديد لأهل الدولة فى فرض الضرائب والمغارم على عامة المصرين للإنفاق على عوائد الترف والرفاهية فى حياتهم الاجتماعية الخاصة ــ كل هذه وغيره من مظاهر الظلم الاجتماعى كان مبرراً كافياً لظاهرة العنف السياسى الذى بلغ حد التصفية الجسدية لبعض المماليك الذين لم يرعوا عهداً ولا ذمة فى علاقتهم بأبناء المجتمع المصرى ، حتى صاروا يدخلون الأسواق ويخطفون القماش والبضائع من الحوانيت ، ويغتصبون النساء فى الحمامات ، ويعتدون على الحرمات فى كل مكان بل صاروا يستخفون بالسلطان والأمراء إن هم منعوهم عن فعل ذلك من المنكرات .

« وصار الناس فى غاية الضنك »

« ... ، وفيه تزايد شر الجلبان وجاروا على الناس ، ... » [١]

ويذكر ابن أياس أنه فى أواخر سنة ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤ م « كثر الأذى من العبيد والزعر ، وكثر قتل القتلى ، ... ووجد شخص من المماليك الأينالية مقتولاً بمنزله ولا يعلم من قتله وغير ذلك جماعة كثيرة » [٢] .

« ... ، فقتل فى ذلك اليوم جماعة من الغلمان واثنان من المماليك السلطانية » [٣] .

ومما يلاحظ فى هذه الروايات المتصلة بأخبار العنف السياسى وجرائم القتل أن المؤرخ يذكرها فى أواخر هذا العصر وكأنها نشرة إخبارية شبه يومية من يستمع إليها بعتادها فى ظل تدهور الأوضاع الاقتصادية والسياسية وغياب الدور العسكرى للفرسان المماليك وبالتالى فإن العسكر إذا فقدوا واجباتهم الأساسية فى القتال والتدريب فى أوقات الحرب والسلم فانهم يتحولون تدريجياً إلى ممارسة أعمال قد

---

[١] ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ج٤ ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

[٢] ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٠٥ .

[٣] نفسه : ص ٣٦٤ .

تصل بهم إلى احتراف أنواع معينة من الجرائم التى تضر بالأمن العام لعامة الناس والأمن السياسى للدولة .

« وفى ذى الحجة سنة ٩١٢ هـ / ١٤٠٦ م هجم المنسر تحت الليل على شخص من الأمراء العشرات يقال له خشكلدى الهوارى ونبحوه وهو راقد فى فراشه وأخذوا كل ما فى البيت ولا يعلم أحد من فعل ذلك » [١] .

وها تبدو الصورة الأمنية للدولة قاتمة ومؤسفة فى مجتمع يقوم النظام السياسى فيه على طبقة من المقاتلين العاجزين عن التصدى لجرائم الاغتيال للعسكر أو أن يستدل على الفاعل أو يكون هناك أى نوع من الإجراءات الرادعة التى تحول بين مرتكبى هذه الأفعال الإجرامية البشعة وممارسة ذلك فى أوقات لاحقة ، ولم لا ؟ والضعف السياسى للدولة قد بلغ منتهاه إذ يذكر المؤرخ فى أحداث سنة ٩١٦ هـ / ١٤١٠ م أن العسكر (المماليك) « منعوا الأمراء من الركوب والمرور فى الطرقات وامتنعوا عن تنفيذ أوامر السلطان » [٢] .

وعلى كل فإن هذا العنف السياسى ـ من وجهة نظرنا ـ كان نوعاً من المقاومة الاجتماعية تعبيراً عن حالة الفوضى السياسية وسوء الولاية من جانب المماليك ، وكذا الضنك والقهر واليأس من جانب العامة .

هبات العامة :

تناولت المصادر المملوكية هبات العامة من منظور طبقى باعتبارها هبات « أوباش » أو « غوغاء » واقترن لفظ « العامة فى مثل هذه الهبات بصورة » الزعر والحرافيش [٣] فى ممارستهم لأعمال السلب والنهب وترويع الآمنين من مختلف فئات العامة ، وإزعاج السلطة الحاكمة .

---

[١] ابن إياس المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٠٨ .

[٢] نفسه : ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

[٣] ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١ ، ص ٤٦ ، ٥١ .

بينما تناولت المراجع الحديثة هذه الهبات في موضوع اقتصادى بحسبانها « ثورات شعبية » [١] كان يقصد بها تحقيق أهداف اجتماعية معينة مثل تخفيف الضرائب ، وتخفيض الأسعار وزيادة الأجور ، وتوفير السلع الأساسية فى الأسواق وغير ذلك من الأهداف التى يتطلع إليها العامة فى ظل التمايز الطبقى وانعدام تكافؤ الفرص .

وقد تحدث المؤرخون المعاصرون عن أنماط من الثورات السياسية التى كان الهدف منها قلب نظام الحكم وإحداث تغييرات فى النظم والأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية مثلما هو الحال فى ثورات العربان التى كانت تعبيراً عن العداء المتبادل بين « العرب » و« الأتراك » والشعور الدفين لدى العربان بأنهم « أصحاب البلد » [٢] وأنهم أحق بالحكم من هؤلاء المماليك « العجم » وهو الشعور الذى ظل ملازما للثوار والمتمردين من « العربان حتى نهاية العصر المملوكى » [٣] .

والواقع أن « هبات العامة » لم ترق فى مضمونها إلى مستوى « الثورات » إذ أن العامة لم يكن فى أذهانهم فكراً سياسياً محدداً أو موجهاً إلى أطماع سلطوية مثلما هو كان فى أذهان « العربان » ومن ثم فإن دراسة هبات العامة ــ فى رأينا ــ يمكن فهمها فى إطار « المجاعة » وصورا لظلم الاجتماعى التى عانى منها المصريون فى هذا العصر .

---

[١] عن الموضوع : حسين نصار : الثورات الشعبية (بيروت ، مطابع إقرأ ، ط٢ ١٩٨٠م) . ولمزيد من التفاصيل : إبراهيم على طرخان : النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٦٨م) ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، قاسم عبده قاسم : أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٩م) ، ص ١٨١ ــ ١٨٣ .

[٢] المقريزى : السلوك ج١ ق٢ ، ص ٣٨٦ ، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، ص٩ .

[٣] ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٢٥٣ .

كما أن هذه الهبات قد خلت من الانتماءات المذهبية مثلما هو الحال فى هبات العبيد السودان الذين عاودا الظهور المسلح تحت ستار الانتماء إلى « آل البيت » فى بداية حكم سلاطين المماليك كذلك كانت هبات « السودان » مرتبطة بانتمائهم السياسى للدولة الفاطمية « الشيعية » (١) .

إذن يمكن تحجيم أسباب هبات العامة فى عصر سلاطين المماليك فى ضوء البعد الاجتماعى ، والحاجاتً المعيشية اليومية التى تأثرت إلى حد كبير بالأوضاع الاقتصادية والسياسية المتدهورة ، ومظاهر التمايز الطبقى ، وأطماع الحكام فى المحكومين .

فالفتن والمؤامرات السياسية فى صفوف عسكر المماليك كانت تؤثر سلباً فى صور النشاط الاقتصادى وجميع النشاطات التجارية فى مدينة القاهرة ، مما يترتب عليها الارتفاع المحموم فى الأسعار ، والذى تبدو آثاره واضحة على محدودى الدخل من العامة إذ لم يكن يقدر على ملاحقة هذا التزايد المطرد فى أسعار السلع سوى فئة قليلة من العامة ، أما السواد الأعظم من العامة فإنهم يصبحون فى شدة وجهد من تزايد الأسعار (٢) .

وكانت الدولة عند حدوث الغلاء تقوم بسلسلة من الإجراءات المعتادة تبدأ بعزل المحتسب أو الوالى على سبيل التهدئة للاضطرابات والقلاقل التى يحدثها العامة وتنتهى بفتوى من بعض العلماء المقربين من السلطان بأن هذا الغلاء سببه « ذنوب العامة » وأن عليهم التفكير عنها بالدعاء والاستغفار والصوم كى تزول الغمة .

---

(١) كان بالقاهرة فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ) نحو خمسين ألف عبد أسود وبعد القضاء على معظمهم فى مذبحة ١٠ رمضان سنة ٥٦٩هـ عاودا الظهور فى بداية العصر المملوكى . (ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص١٠٣ ـ ١٠٤ ، المقريزى : السلوك ، جـ١ ق٢ ، ص٤٤٠ ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق جمال الدين الشيال ومحمد حلمى محمد (القاهرة ، ٦٧ ، ١٩٧٣) جـ٢ ، ص٢٦٦ ـ ٢٧٣ .

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٢٦٠ .

وكان من عادة السلاطين عند حدوث الغلاء أن يتصدقوا بالمواد الغذائية وبعض المال علـى « الفقراء » وذوى الحاجة لحين انفراج الأزمة كنـوع مـن « تسـكين الضرر » على قول أحد المعاصرين (١) .

ويصف لنا المقريزى فى « السلوك » فرحة عامة القاهرة بعـودة المحتسـب جمال الدين محمود العجمى بعد إعادته للحسبة فيقول : « وفى الاثنين ثالث عشـرينه (جمادى الآخرة سنة ٧٨٢هـ) خلع على جمال الدين محمود العجمى فـأعيد إلـى حسبة القاهرة ففرح العامة به فرحاً زائداً وكادوا يحملون بغلته وهو عليها بالخلعـة ، وأتلفوا من ماء الورد الذى صبوه عليه وعلى من معه ومن الزعفران الذى تخلقـوا به شيئا كثيرا وبالغوا فى إشعال الشموع والقناديل بالقاهرة ، ووقفت له المغانى تزفه إذا مر بها فى مواضع عديدة فكان يوما مشهوداً » .

ويرجع المؤرخ سبب ذلك إلى « الغلاء » وتعذر وجود الخبز فى الأسواق لعـدة أيام « فظنوا أن قدوم الجمال محمود يكون مباركاً » (٢) بينما يصف لنا فـى نفـس أحداث السنة سخط العامة وثورتهم علـى المحتسب شمس الدين محمـد الدميرى فيقول :

« فارتفع سعر الغلال وطلبها الناس (أعيان التجار) للخزن طلباً للفائدة فيـها (الاحتكار) فكثر قلق الناس واستغاثت العامة فى عزل الدميرى من الحسبة وسـألوا عودة العجمى ، وهموا برجم الدميرى مراراً فاختفى بمنزله خوفاً منهم » (٣) .

وقد تكرر هذا المشهد مرارا مما كان يدفع السلطان إلى التدخل أحياناً بصـورة من الشدة والعنف فى مواجهة هبات هؤلاء العامة وغالبا ما كان السلطان المملوكـى يستجيب لرغبة العامة فى عزل أحد المحتسبة على سبيل التهدئة لمشاعرهم الثـائرة من ناحية والمداراة السياسية لأسباب الأزمة التى يكـون المتجـر السـلطانى هـو

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٢٦١ .
(٢) المقريزى : السلوك ، ج٣ ق١ ، ص ٣٩٥ .
(٣) نفسه : ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٥ .

المسئول الأول عنها طمعا فى مزيد من الكسب على حساب عامة التجار بما تعود أثاره السلبية على سكان القاهرة جميعا .

ففى سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م نودى فى القاهرة بالأمان بعد أن هدأت الاضطرابات من جانب العامة وكان النداء :

« يا عوام إن كنتم راضيين بمحتسبى القاهرة بمصر وإلا عزلناهما فطلع جماعة من الغوغاء إلى تحت القلعة وصاحوا لا نرضى بهما فرسم (السلطان) بعزلهما » [١] .

وفى بعض الأحيان كان السلطان ينتهز فرصة هياج العامة على أحد الولاة أو أحد أرباب الوظائف من أهل الدولة المغضوب عليهم لكى يتخلص منه إرضاء للعامة من ناحية ولنفسه من ناحية أخرى مثلما حدث فى إحداث سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م مع المحتسب جمال الدين محمود العجمى الذى كان متعاطفا مع أحد الأمراء المنافسين للأمير برقوق قبل توليه السلطنة مما أوغر صدره ضده [٢] .

ولم تكن الدولة فى مثل هذه الأوقات العصيبة وعند حدوث الغلاء تنسى مد يد العون إلى « الفقراء » و« الحرافيش » فى محاولة منها لدرء الهبات الشعبية والتخفيف من حدتها لما كانت تمثله تلك الفئات الدنيا من تأثير بالغ على درجة اشتعال هذه الهبات .

مثلما حدث فى ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م وسنة ٧٧٥ هـ / ١٣٧٣م فى العصر المملوكى الأول وأيضا فى سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م وسنة ٩١٢ هـ / ١٥٠٦ م فى العصر المملوكى الثانى إذا كان السلاطين يقومون بفتح شون القمح والغلال

---

[١] المقريزى : السلوك ، ج٣ ق١ ، ص ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١١ ، ص ١٧٩ ـ ١٧٩ .

[٢] المقريزى : المصدر السابق ، ج٣ ق١ ، ص ٣٨٧ ، ٣٩٥ .

وتوزيع نسب معينة على الفقراء والحرافيش أو توزيع هؤلاء العامة على الأمراء وأعيان التجار لإعالتهم لحين انتهاء الأزمة [١] .

ومن المرجح إن « الغلاء » كان مرتبطا فى هذا العصر بمظهرين أساسيين هما : احتكار الدولة ومياسير التجار لبعض أنواع السلع الأساسية وأهمها القمح وغش العملة الذى يؤدى إلى هبوط قيمتها وكثرتها فى أيدى الناس .

ففى سنة ٧٢٠ هـ / ١٣١٩ م كانت هبة العامة القاهرة بسبب امتناع تجار القمح عن بيعه لأصحاب المطاحن والمخازن وكان السلطان الناصر محمد بن قلاون غائبا عن البلاد فلما عاد وخرج « كريم الدين » إلى لقائه صاحت به العامة وقذفوه بما لا يليق من الألفاظ وتكاثروا عليه من كل جهة وشكوا ما بهم من آمر الفلوس ورد الباعة لها وقلة الخبز فى الأسواق [٢] .

كما إن المقريزى يذكر لنا فى أحداث سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٧ م إن غش النقود أو العملة بمعرفة الدولة كان من أهم أسباب الغلاء بسبب اختفاء النقود الأصلية من الذهب والفضة و « رواج الفلوس » مما احدث نوعا من التضخم نتيجة كثرة هذه الفلوس واختفاء السلع فى الأسواق وهو ما يؤدى بالضرورة إلى ارتفاع الأسعار إذ أن المعيشة الكريمة فى نظره « لا تصلح » إلا بوجود الذهب و الفضة فى أيدى الناس [٣] .

وكان عامة القاهرة يهبون فى وجه المحتسب الذى لا يضمن لها الاستقرار فى أسعار المبيعات من السلع الأساسية ولا يستطيع أن يوقف نزيف الاستغلال من جانب كبار التجار وعلى رأسهم السلطان نفسه وأمراؤه .

---

(١) ابن إياس : المصدر السابق ، ج١ ق١ ، ص ٣١٩ ، ج١ ق٢ ، ص ١٢٥ ، ص ٤٨٢ ، ج٤ ، ص٩٤ ، المقريزى : ج١ ق٢ ، ص ٥٠٦ ــ ٥٠٨ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج٢ ق١ ، ص ٢٠٦ .

(٣) المقريزى : إغاثة الأمة ، ص ٤٧ .

ففى سنة ٧٧٥ هـ / ١٣٨٠ م ثارت العامة واستغاثت السلطان فى عزل المحتسب « الدميرى » وتعيين آخر بدلا منه [(١)] .

ومثلما حدث فى سنة ٨٢٨ هـ / ١٣٢٥م عندما ثارت العامة فى القاهرة على المحتسب بدر الدين العينى وذلك بعد أن عز وجود اللحم الضأن و البقرى من الأسواق وارتفع سعره وكذلك سعر القمح أيضا مع كثرته و علو ماء النيل فثارت العامة على بدر الدين العينى ورجموه لكون انه كان محتسبا . واتسعت القضية حتى كادت أن تكون فتنة عظيمة وأمر السلطان الوالى بان يوسط جماعة من العوام حتى شفع فيهم بعض الأمراء [(٢)] .

وفى سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٣٥ م ارتفعت الأسعار بالقاهرة فى جميع المواد الغذائية « وقد حكر على الفلفل ففلا يباع إلا للسلطان فقط ولا يشترى إلا منه خاصة » .

و « ... ركب السلطان للرماية فضج العامة و لشتكوا من قلة الخبز فى الأسواق مع كثرة وجود القمح بالشون « فلم يلتفت السلطان إليهم » [(٣)] .

ومما تجب الإشارة إليه أن ظاهرة الغلاء فى نهاية عصر المماليك وما صاحبها فى نفس الوقت من كثرة المظالم والمكوس التى عانى منها عامة المصريين فى القاهرة ــ لم تقف فى ردود أفعالها عند حد إثارة القلاقل والاضطرابات فى أنحاء العاصمة بهدف الضغط على السلطة المملوكة للتدخل الفورى والسريع لحل الأزمة بل كانت تمتد إلى أبعد من ذلك مما هو أشد سوءا على النظام الاقتصادى للدولة والذى تمثل فى هجرة كثير من أرباب العمل (التجار ــ الحرفيون ــ الصناع)

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ق٢ ، ص ٢١٠ ، المقريزى : السلوك ، ج٣ ق١ ، ص ٣٩٥ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ١٠١ .

(٣) المقريزى : المصدر السابق ، ج٤ ق٢ ، ص ٩٦٤ .

ميادين العمل واتجاههم إلى الخوانق والربط والزوايا هروبا من حياة الفقر والفاقة وكثرة مساوئ أهل الدولة .

وفى بعض الأحيان كانت العامة تثور على أهل الدولة ليس من أجل مصالحهم أو تحسين أحوالهم المعيشية وإنما من أجل نصرة بعض السلاطين أو الأمراء الذين يتعاطفون معهم لسبب أو آخر .

مثال ذلك فى سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤٣ م إذ ثار عدد كبير من عامة القاهرة على الأمير قوصون و مماليكه وسبب ذلك أن هذا الأمير كان يطمع فى منصب السلطنة بعد وفاة السلطان الناصر محمد والزم المماليك السلطانية بالمشى فى خدمته كما كانوا فى الأيام الناصرية وكان مع كثرة إحسانه قد القى الله بغضته فى قلوب الناس جميعا حتى صاروا يلهجون بها (١) .

وفى سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٨م ثارت العامة على المماليك اليلبغاوية «الاجلاب» نصرة للسلطان الإشراف شعبان بن الناصر محمد (٧٦٤ ـ ٧٧٨ هـ) وكان هؤلاء المماليك تحت قيادة الأمير أسند مر الناصرى يريدون قتل السلطان وإقامة سلطان غيره وقد كانت العامة حاملة منهم لقبح سيرتهم وكثرة فسادهم وجورهم على الناس وصارة يهجمون على النساء فى الحمامات ويخطفون الصبيان المرد من الأسواق ويخطفون القماش والبضائع من على الدكاكين فتعصب عليهم العامة قاطبة (٢) .

وتشير هذه الرواية وغيرها إلى أن السلاح القتالى لعامة القاهرة كان يتمثل بصورة أساسية فى « الحجارة » لرجم من يبغضونه من أهل الدولة بينما كان المماليك يقاومون العامة ويعتدون عليهم فى مثل هذه الهبات بالسيوف والسهام وغيرها من وسائل القتال الحربى إن المصادر تذكر مدى بشاعة المقاومة المملوكية

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج٢ ق٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٠ ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ق٢ ، ص ٦٧ ـ ٧٠ .

لإحدى هبات العامة سنة ٧٧٠ هـ / ١٣٦٩ م بسبب « قتل المماليك لبعض ذويهم من المتفرجين بأراضى اللوق » حتى صارت جثث العوام مرمية فى الطرقات على بعضها [١] .

وفى سنة ٧٩٨هـ /١٣٩٦م ثارت عامة القاهرة ضد السلطان الظاهر برقوق بسبب « سجنه للوالى عبد الله بن محمد الطبلاوى ومعه بعض أقاربه ، وصادر أمواله والتى بلغت حوالى مائة وستين ألف دينار وستمائة ألف درهم بالإضافة إلى أحمال القماش الحرير والصوف والفرش وغيره ولم يقبل فيه شفاعة الناس الذين تجمعوا وعلى رءوسهم الأعلام والمصاحف » [٢] .

وفى سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م صدر المرسوم السلطانى بأخذ ربع سنة كاملة على الأوقاف وأن يؤخذ من أملاك القاهرة من بيوت وربوع وحوانيت وحمامات وغيطان ومراكب وغير ذلك أجرة عشرة أشهر كاملة وذلك لتفرقة « النفقة على الجند » .

وثارت العامة ورجمت الأمير الأتابكى قتب الرجبى والأمير طراباى ــ رأس رؤس النوب ــ حتى أسالت دمه . فلما رأى المماليك ذلك سلموا سيوفهم ووقعوا فى العوام وجرح منهم جماعة وقتل فى ذلك اليوم نحو ثلاثة من الثوار « واستمر النهب والقتل قرب المغرب ، وقبض على جماعة من الزعر والعبيد ووسط منهم حوالى أربعة عشر إنساناً » .

« وكادت القاهرة أن تخرب عن آخرها » [٣]

وهنا نلاحظ أنه كلما اقتربنا من أواخر هذا العصر زادت حدة الصدام بين المماليك السلطانية وهبات العامة مما يعنى الضعف السياسى للسلاطين فى الفترات

---

[١] المقريزى : السلوك ، ج٣ ق١ ، ص ١٧٤ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ق٢ ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

[٢] المقريزى : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٨٩٧ ، ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٢ ، ص١٥ .

[٣] ابن إياس : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٥ ــ ١٧ .

الأخيرة من عمر الدولة والتدهور الحاد فى الأوضاع الاقتصادية إلى حد أن المماليك صاروا ينزلون إلى أماكن العامة فى المتنزهات ويمارسون العبث والفساد « من أخذ عمائم الرجال ، واغتصاب النساء والصبيان وتناول معايش الباعة وغير ذلك » [١] من مظاهر الانحلال الاجتماعى .

وهكذا تميزت سياسة الدولة تجاه هبات العامة بنوع من الازدواجية الشديدة ففى الوقت الذى نقرأ فيه أن السلطان فى مثل هذه الظروف يحاول التودد إلى العامة والتهدئة من ثورتهم وتسكينهم بالوعود والآمال العريضة فى غد أفضل كان يعطى أوامره لمعاونيه بالتعامل مع العامة بمنتهى القوة والشدة التى بلغت حد القتل والإبادة لأعداد كبيرة منهم فى بعض الأحيان .

ومع هذا فإن هذه السياسة التى مارسها سلاطين المماليك بحذق وبراعة شديدين لم تحل بينهم وبين فطنة العامة فى كشف حقيقة هذه السياسة وهو ما كان يجعلهم كذلك يمارسون سياسة مزدوجة فى ولائهم السياسى للسلاطين والأمراء من منطلق ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية غير المستقرة .

وفى الوقت نفسه كان السلاطين يضعون بعض فئات العامة فى رحاب رحمتهم وكرمهم مثل « الفقراء » أو « الدراويش » من سكان الجوامع والخوانق الذين رعتهم الدولة أيما رعاية وأجزلت لهم العطاء فى كافة الأوقات حتى صاروا يحصلون فى أيام شهر رمضان على « رطل لحم مطبوخ لكل واحد منهم » .

ويفرق السلطان على كل زاوية نحو خمسة آلاف درهم [٢] ومن ثم فإننا لم نقرأ فى المصادر المعاصرة أن هؤلاء « الدراويش » شاركوا فى

---

[١] المقريزى : المصدر السابق ، ج٤ ق٢ ، ص ١٠٢ .

[٢] ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٣ ، ص ٣٣٨ .

هبات العامة بل على العكس فإنهم كانوا أداة سياسية في يد السلطة المملوكية لتأديب العامة بما فيهم صفوة أهل العلم من الفقهاء والخطباء ، والمفسرين وسائر أنماط العلماء .

وهو ما أشار إليه صاحب إحياء علوم الدين فى موسوعته الفقهية عند وصفه لهيبه هؤلاء الناس فى نفوس العامة الذين كانوا يتركون أعمالهم ويلازمون هؤلاء أياماً معدودة (١) .

وقد تميزت هبات العامة على طول العصر بالسلبية فى نتائجها ــ إلى حد كبير ــ وقصورها عن إحداث التغيير فى الأوضاع السياسية والاقتصادية ، بل أن هذه الهبات اتخذت موقفاً مزدوجا من شخص السلطان الجالس على العرش فلا هى تريده فى كثير من الأحوال ولا هى قادرة على استبعاده فى كل الأحوال ، وبالتالى فإن هؤلاء العامة برغم كثافتهم السكانية العالية لم يكن لهم الحد الأدنى من المشاركة فى السياسة العامة للدولة ــ داخليا وخارجيا ــ أو الحد الأدنى من ملكية وسائل الإنتاج أو نصيب شبه عادل من الثروة الإنتاجية . باستثناء بعض العناصر من المعممين ومياسير التجار الذين داروا فى فلك السلطة فى إطار مصالحهم الشخصية غير أن وضعهم الاجتماعى كان مرهونا برضا السلطان عنهم وهو ما جعلهم فى حالة طبقية مذبذبة إلى حد كبير .

وقد حرص هؤلاء المعممون على إرضاء السلطان عن طريق تجنيد أنفسهم فى خدمة النظرية السياسية للدولة وخاصة أرباب الوظائف الدينية من الفقهاء والقضاة وغيرهم الذين حرصوا على تكييف نصوص الدين لتنسجم مع أهواء السلاطين وشهواتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية دون مراعاة لحقوق الرعية التى جعلها الشرع مقدمة على حقوق الرب ذاته !

« وكان السلاطين يميلون إلى فتاواهم » (٢)

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين ، ج٣ ، ص ٣٤٨ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص ٥٣٢ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٥٣ ، ٥٤ ، ١٨٢ .

وفى ظل هذه المتناقضات بين مصالح الطبقة الحاكمة ومصـــالح العامـــة كـــان الطابع العام لهبات العامة هو طابع المقاومة لعوامل الفقر والحاجة والتى لعبت فيـــها الشرائح السفلى من عامة القاهرة دوراً أساسيا فيها بحسبان أن الفئات العليـــا مـــن العامة كالمعممين ظلت منعزلة فى غالب الأحيان بحكم ارتباطها بالسلطة وإن أبـــدت تعاطفها مع العامة فى بعض أوقات الشدائد والمحن .

الفصل الثالث

الدور الاقتصادى لعامة القاهرة

ملامح الحياة الاقتصادية فى القاهرة - الأسواق والوكالات والفنادق والخانات .... - التجارة المصرية وعوامل ازدهارها فى هذا العصر « التجارة الداخلية - التجارة الخارجية » أنماط الحرف والصناعات فى القاهرة - الحرف والصناعات الغذائية - الحرف والصناعات الكسائية - الحرف والصناعات المعدنية - الحرف والصناعات الخشبية - الحرف والصناعات الترفيهية - الحرف الحيوية الصغيرة - الحرف الرديئة والمحقرة .

يذهب أحد الباحثين إلى أن أهم أسباب الرخاء الاقتصادى الذى تمتعت به القاهرة فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى هو نجاح مصر فى جذب تجارة شرق حوض البحر المتوسط والاستفادة من الخط التجارى بين الهند وأوربا مما حقق للمجتمع المصرى حالة من الانتعاش فى الأسواق عادت على الدولة بثروات طائلة بحيث ظل الاقتصاد المصرى قويا وثابتا حتى نهاية هذا القرن برغم الكوارث الطبيعية التى تعرضت لها البلاد [1] .

وقد فطن سلاطين المماليك إلى أهمية التجارة الخارجية كمصدر أساسى للدخل القومى فى أواسط القرن الثامن الهجرى / ١٤م عقب ظهور أعراض الشيخوخة على النظام الإقطاعى المملوكى إذ أن التجارة الداخلية لم تف بمعالجة آثار انهيار الإقطاع المملوكى مما دفع السلاطين إلى تشجيع حركة التجارة بين القاهرة والعواصم الأوربية وبخاصة المدن الإيطالية ولذا أكثروا من إنشاء الوكالات والخانات والفنادق والقياسر لخدمة أغراض التجارة وتوفير سبل الراحة للتجار الأجانب من المسلمين أو غير المسلمين .

وكان تجار الكارم هم الدعامة الرئيسية للنشاط التجارى المصرى لما كانوا فيه من « عدة وافرة ولهم أموال عظيمة » [2] وبلغت أرباحهم حداً كبيراً أنعشت الدخل المالى للمماليك بسبب نسبة الضرائب العالية التى يدفعها هؤلاء التجار ، فضلا عن استخدام الدولة لهم كمندوبين أو وكلاء فى تسويق السلع السلطانية بالأثمان التى يحددها السلطان فى متجره ، ناهيك عن تجارة العبيد والجوارى من بلاد الترك والتى كانت رائجة فى هذا العصر .

ومما يذكر أن التجار فى العصر المملوكى الأول علموا كمندوبين سياسيين (سفراء) [3] للدولة لدى الدول التى تربطها بمصر علاقات

---

[1] أولج فولكف : المصدر السابق ، ص ٩٦ .

[2] القلقشندى : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٤٥٩ ، المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ق١ ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج٧ ، ص ١٨٣ .

[3] ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج٨ ، ص ٧١ ــ ٧٦ .

اقتصادية خاصة مثل دولة اليمن أو الحبشة وكان لهم دور في تقوية العلاقات السياسية بين هذه الدول وسلاطين مصر مما أثر بصورة إيجابية على الاقتصاد المصري .

ويبدوا أن التجار قد عانوا في بداية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي من الاحتكارات السلطانية للعديد من السلع الأساسية كالقمح والسكر والتوابل والسكر والبهار والمعادن وغيرها مما حدا ببعض التجار إلى الهجرة خارج الأراضي الواقعة تحت سيادة الدولة المملوكية وتحول البعض الآخر إلى عملاء لدى السلطان .

وعلى أية حال فإن رعاية الدولة لهؤلاء التجار لم تدم طويلا في ظل التوجيه الخاطئ لروافد الإنتاج (الزراعة ـ الصناعة ـ التجارة) والذي دفع بعض السلاطين إلى الاقتراض من التجار إما في شكل دين يلتزم السلطان برده إلى أصحابه أو في شكل منحة لا ترد خاصة عند خروج الجند للغزو .

وكانت كثرة الأموال في أيدي هؤلاء التجار في هذا العصر سببا في مغالاة الدولة في فرض الرسوم عليهم كما أكثرت من مصادرة بعض هذه الأموال التي بلغت عند تعرض البلاد لأخطار عسكرية نصف ثروة التجار ، وربما طلب أهل الدولة منهم التعاون فيما بينهم في جمع مبلغ من المال لخزينة السلطان [١] .

ومما يدل على ثراء التجار في هذا العصر أنهم كانوا شركاء للسلاطين والأمراء في مظاهر الترف والبذخ ، وبناء المؤسسات الدينية والاجتماعية والتجارية بل إن أحد التجار لستطاع أن يبني مدرسة من ربح يوم واحد ، وكان لهم نصيب في

---

(١) القلقشندي : المصدر السابق ، ج٤ ، ص٣٢ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص٣٢ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصري ، ص٣٥ ، ٣٦ ، آشتور : المرجع السابق ، ص ٣٩٤ .

الإقطاعيات واقتناء العبيد والجوارى أسوة بالمماليك فى مراحل التدهور السياسى [١] .

أما التجارة الداخلية فقد شملت أرباب المتاجر والحوانيت والباعة والمتسببين الذين ساهموا فى النشاط التسويقى داخل القاهرة .

وقد أمدنا المقريزى فى خططه بخريطة تفصيلية لأسواق القاهرة والتى أدركها « عامرة » فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى / ١٤م بمختلف أصناف السلع كالتوابل ، والبخور ، والعطور ، والشمع ، والصابون ، والزيوت ... و« سائر أنواع المأكل والمشارب والأمتعة » فضلا عن تجارة المنسوجات والسلع الأوربية ، وأشار إلى مدى إقبال العامة على الشراء حتى أنهم كانوا يتنقلون بين الحوانيت فترة طويلة للحصول على حاجاتهم من السلع « لكثرة ذلك عند التجار » ، وكان الازدحام فيها شديداً حتى أن المرء لا يستطيع أن يمر وسط الحوانيت والباعة وطوفان البشر من راغبى الشراء إلا بمشقة ، وربما ظلت أسواق القاهرة مفتوحة لاستقبال المتوافدين عليها حتى منتصف الليل [٢] .

وإذا كان أحد الرحالة الذين زاروا مصر فى القرن التاسع الهجرى /١٥م (العصر المملوكى الثانى يصف أسواق القاهرة بأنها « أحسن وأروع شئ يراه الإنسان لما فيها من كميات كبيرة من السلع ، وشتى البضائع الواردة من الهند لاسيما اللآلئ والأحجار الكريمة ، والتوابل ، والعطور ، والحرائر ، والبضائع النيلية وكل مشموم طيب الرائحة » ويضيف إلى ذلك قوله :

« وليس فى القدرة تعداد جميع السلع » [٣]

---

[١] أنطوان ضومط : الدولة المملوكية ، ص ٢١٧ ، آشتور : المرجع السابق ، ص ٤١٣ وما يذكر أن تجارة العبيد صارت فى أواخر العصر تجارة محلية بسبب حجز العثمانيين لهم تمهيداً لغزو مصر (ابن إياس : بدائع الزهور ، ص ٩٧ ، ج٥ ، ص ٤٥) .

[٢] المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٩٥ ــ ١٠٦ .

[٣] طافور : الرحلة ، ص ٩٧ .

وهنا يسأل الباحث ، فماذا عن أسواق القاهرة فى العصـــر المملوكــى الأول ؟ وتكون الإجابة من خلال إستعراضنا لأنماط النشاط الاقتصادى فى أسواق القاهرة فــى هذا العصر والتى كانت تأتى إليها أصناف المتاجر فى حركة مستمرة طوال العام .

وقد ذكر المقريزى أن عدد أسواق القاهرة فيما بين أرض اللوق إلى باب البحر بالمقس حتى بداية القرن التاسع الهجرى / ١٥م بلغ « اثنين وخمسين سوقا فيها مــا يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتا » [١] .

وتعد أسواق المواد الغذائية من أشهر الأسواق ، وأكثرها ارتباطا بحياة العامــة اليومية التى تعبر عن اتجاهات المجتمع ومدى ثرائه وفقره فى إطار المعروض مــن السلع والبضائع ، والمطلوب من احتياجات الناس .

وكانت أسماء هذه الأسواق تعبر غالبا عن أنواع السلع مثل سوق الرواســين ، وسوق الدجاجين ، وسوق الحلاويين وغيرها ، مــن الأســواق التــى ذكرهــا أحــد المؤرخين المعاصرين [٢] .

وقد أحصى لنا أحد كتاب الحسبة سبع عشرة حرفة غذائية تتنـــوع مــا بيــن الجزارة ، والطبخ ، وصناعة الحلوى وما إلى ذلك[٣] من المـــواد الغذائيــة الجافــة والطازجة اتخذت بعضها تسميات غير مألوفة فى وقتنا الحاضر مثل « النقانقيين »[٤] و « الرواسين »[٥] و « البواردييين »[٦] وقد أدرك صاحب « الخطط » هذه الأنمـــاط الحرفية فى أواخر عهود الثراء المملوكى نتيجة لانتعاش أنمــاط الإنتــاج الزراعــى والصناعى والتجارى فى الفترة السابقة مباشرة لعصر المؤلف .

---

[١] المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

[٢] عن أسواق الغذاء ، المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٠ .

[٣] ابن الأخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ، ص ٤٧ ، ٤٨ .

[٤] النقانق : نوع من السجق (ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص ١٥٨) .

[٥] الرواس : لحم الرأس (نفسه : ص ١٥٩ ، ١٧٢) .

[٦] البوادر : المشهيات « المخلل » (نفسه : ص ١٥٩ ، ١٦٠) .

ومما يشير إلى انتعاش الأسواق فـــى النصـف الأول مـــن عصـــر ســـلاطين المماليك ما ذكره المقريزى فى سياق حديثه عـــن حجـــم الاســـتهلاك الغذائـــى فـــى تلك الفترة « ... ، وسمعت الكافة ممن أدركـــت يفـــاخرون بمصـــر ســـائر البـــلاد ويقولون يرمى بمصر كل يوم ألـــف دينـــار ذهبـــاً علـــى للكيمـــان والمزابـــل » [١] وهو ما يوضح كذلك حجم النشاط الحرفى لأعـــداد كبـــيرة مـــن عامـــة المصريـــين نذكر منـــها : « الطبـــاخين ، والشـــوايين والخبـــازين ، واللبـــانين ، والزيـــاتين ، والخضريين وغـــيرهم » .

وكان يوجد بمدينة القاهرة عدد كبير من حوانيت بيع الطعام بلغت ما يزيد عـــن عشرة آلاف مطعم أضف إليها هذه الأعداد الغفيرة من الباعة الذين يفترشون الأرض أو يقطعون الأرض جيئة وذهابا ومعهم أصناف المأكولات التى يقبل عليـــها العامـــة دون غيرها من الأماكن لرخص أسعارها مما كان يغضب أصحاب الحوانيـــت الذيـــن سعوا بدورهم للتضييق عليهم بمعرفة المحتسب ومعاونيه من مراقبى الأسواق بحجـــة أنهم يزحمون الطرقات ويعاكسون المارة بنداءاتهم المتعارف عليها والتى تثير شـــهية الزبائن [٢] .

والواقع أن أصحاب الحرف الغذائية وباعة الأطعمة والأشربة كـــانوا يقومـــون بدور حيوى فى خدمة عملية الإنتاج إذا علمنا أن جمهور عريض من عامة القـــاهرة كان يقضى النهار بأكمله وربما طرفا من الليل فى مزاولة نشاطهم الحرفى والصناعى فى الأسواق والمصانع وغيرها من أماكن العمل ، وبالتالى فإنهم فى معظمهم كـــانوا يرغبون فى تناول الوجبات الغذائية خارج نطاق منازلهم التى لم تكن مهيئـــة لذلـــك وفى نفس الوقت يستفيدون بالوقت فى زيادة ساعات العمل مما يعود بـــالنفع علـــى المجتمع على أنفسهم .

---

[١] المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٩٥ .

[٢] المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٩٥ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع الســـابق ، ص ٨٧ .

ولهذا فإن الدولة اهتمت إلى حد كبير بمراقبة الأسواق والتأكد من صلاحية المواد الغذائية وجودتها ومطابقتها للمواصفات مع التشديد فى معاقبة كل من تسول له نفسه غش الأطعمة أو الأشربة بإضافة مواد بديلة رديئة إلى المواد الغذائية بما يزيد وزنها أو يعطيها لونا أو طعما يماثل الأنواع الجيدة مثلما كان يحدث مع باعة اللحوم والأسماك ، والجبن والمشبك ، والمهلبية وغير ذلك من الأطعمة التى تثير رغبة المريدين لها من عامة الناس [١] .

ومن استقراء كتب الحسبة يمكن ملاحظة كثرة أنواع الأطعمة التى كانت تباع فى الأسواق بالقاهرة وشوارعها ودروبها ، وكثرة أرباب الحرف الغذائية من خلال التحذيرات شبه المستمرة من جانب المحتسب للذين يخالفون آداب وأصول هذه الحرف معتمدين على عجز الدولة على مواجهة كافة أساليب الغش والتدليس .

« وبالجملة فإن تدليس الصناع وغشوشهم خفية لا تكاد تعرف » [٢]

بل إن مؤلف كتاب « معالم القربة فى أخبار الحسبة » يصرح بأنه يذكر أساليب الغش والتدليس فى صناعة المواد الغذائية على سبيل المثال لا الحصر « مخافة أن يتعلمها أوغاد الناس » [٣] .

وتبين إحدى الروايات مدى الاكتفاء الذاتى من السلع الغذائية فى القاهرة فى الشطر الأول من عصور سلاطين المماليك ، وما آلت إليه من خلل وبوار فى الشطر الثانى من هذا العصر « عصر المماليك الجراكسة » .

تقول الرواية : « أدركت سوق حارة برجوان [٤] أعظم أسواق القاهرة وبه فرنان ولا يحتاج لغيره وكان هذا السوق من سوق خان الرواسين إلى سوق

---

(١) ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص ١٦٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٣ ، ١٨٤ .
(٢) ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ .
(٣) نفسه : ص ١٨٣ ، ١٨٤ .
(٤) برجوان : اسم أحد الخصيان فى قصر الخليفة العزيز بالله الفاطمى (ت ٣٩٠ هـ) ، المقريزى المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣ ، ٤) .

الشماعين معمور الجانبين بالعدة الوافرة من بياعى لحم الضأن السليخ وبياعى اللحم السميط ، وبياعى اللحم البقرى وبه عدة كثيرة من الزياتين وكثير من الجبانين والخبازين واللبانين والطباخين والشوايين والبواردية والخضريين ... ، حتى أنه كان به حانوت لا يباع به إلا حوائج المائدة » .

وقد ذكر أن حال « القصبة » اختل وخرب وتعطل أكثر ما تشتمل عليه الحوانيت بعد ما كانت مع سعتها تضيق بالباعة [١] .

وكانت صناعة الخبز من أهم أنماط الحرف الغذائية في القاهرة وتشمل : الطحانين ، والعجانين ، والقطاعين ، والفرانين ثم باعة الخبز في الأسواق والحوانيت .

وهذه الحرف كانت تخضع لرقابة صارمة من المحتسب الذى حرص على التزام أصحاب المخابز والأفران بجودة الرغيف وعدم إضافة مواد غير مصرح بها ، ونظافة العاملين فى هذه الحرف وخلوهم من الأمراض المعدية [٢] .

ولهذا فإن والى القاهرة فى حملاته التأديبية والرقابية كان يبدأ بالمرور على أماكن الخبز وبيعه [٣] لما تمثله هذه السلعة من أهمية فى حياة الناس اليومية .

وفى هذا العصر صنعت أنواع جيدة من الخبز أشهرها قاطبة خبز « الحوارى » أى الذى يصنع من الدقيق الناصع فى شدة بياضه والمحكم فى نخله ، والمتقن فى عجنه وتقطيعه وخبزه وهو من أنواع الخبز التى لا يقبل عليها سواد العامة لارتفاع سعرها . وهناك نوع آخر من الخبز كان يسمى « بالكماج » وهو يعجن بغير خميرة ونوع ثالث يصنع من جريش الحنطة ويجفف [٤] .

---

[١] نفسه : ص ٩٥ ، ٩٦ .

[٢] ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص ١٥٣ ـ ١٥٥ ، ابن بسام : نهاية الرتبة ، ص ٢٣ .

[٣] المقريزى : السلوك ، ج٢ ق١ ، ص ٣٩٤ ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٤٩ .

[٤] المقريزى : السلوك ، ج٢ ق١ ، ص ١٩٦ .

ويعتبر رغيف الخبز مؤشراً مهماً لمعرفة الحالة المعيشية اليومية لعامة القاهرة يدل على هذا أن الخبز فى النصف الأول من عصر سلاطين المماليك كان من الكثرة والجودة حتى بلغ الإنتاج اليومى لهذه الصناعة نحو سبعة آلاف رغيف ، بينما انخفض الإنتاج بنسبة كبيرة وشحت الأسواق من الخبز فى النصف الثانى من هذا العصر ، ويذكر أحد المعاصرين أن أزمة رغيف الخبز فى عصر المماليك الجراكسة تأثر بها الأغنياء مثل الفقراء وأن الأفران كانت تزدحم بكثير من العامة للحصول على الخبز الذى عز وجوده فى الحوانيت مما كان يحدث نوعاً من الشغب أمام أماكن البيع وربما دفع أحد العامة حياته ثمنا لرغيف الخبز (١) .

وجدير بالذكر أن ارتفاع سعر الخبز كان يؤدى إلى ارتفاع أسعار سائر السلع كاللحوم والألبان والأجبان حتى روايا الماء بسبب هلاك « ما لا يحصى » من البهائم (٢) .

وقد زاول بعض عامة القاهرة حرفة الطباخة التى كانت تعد من أهم الحرف لما تمثله من القيام بعملية إعداد الطعام لمختلف الفئات الاجتماعية من خاصة الناس وعامتهم إذ كانت الغالبية من سكان القاهرة يتناولون الطعام خارج منازلهم والبعض يقوم بشراء ما يحتاجون إليه من الأطعمة من الأسواق فى ساعات النهار والليل لتناولها فى المنازل .

وقد انتشرت فى مدينة القاهرة أعداد كبيرة من المطابخ والمطاعم قدرها بعض الرحالة بما يزيد عن اثنى عشر ألف مطعم هذا عدا كثير من الباعة الجائلين الذين يمشون فى الأسواق والشوارع ينادون على الطعام المطهى ، وكان الطباخون يغدون جيئة وذهابا حاملين المواقد والنيران وأطباق الطعام المعدة للبيع فى حين يحمل سواهم صحاف الفاكهة المعدة للبيع . ووجد بالقاهرة نوعان من المطابخ ، المطابخ التى يرسل إليها الناس

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٢٦٠ .

(٢) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

الأطعمة الطازجة لطهيها مقابل أجر معيـــن والمطــابخ الخاصـــة بطـــهى الأطعمـــة وبيعها إلى الناس ، بينما كانت القصور وبيـــوت الأثريـــاء ــ فيمـــا يبـــدو ــ لـــها مطابخ ملحقة بمساكنهم لطهى ما لذ وطـــاب مـــن الطعـــام [١] .

وقد وضعت كتب الحسبة شروطاً صريحة يلتزم بها أصحاب المطابخ والمطـــاعم منها أن تكون أماكن بيع الأطعمة على مقربة من المحتسب لإمكانية مراقبة أســـاليب إعداد المواد الغذائية وطهيها ومنع محاولات الغش التى تضر بصحـــة العامـــة مـــن مختلف الفئات ، ولذا فإن أصحـــاب الحـــرف والصناعـــات الغذائيـــة كالطبـــاخين ، والكبوديين ، والشـــوائين ، والقصـــابين ، والبقلاليـــن ، والجبـــانين ، واللبـــانين ، والحلوانية وغيرهم خضعوا لمراقبة شديدة من جانب المحتسبة وبخاصة فى العصـــر المملوكى الأول الذى شهد نوعا من الانتعاش الاقتصادى والاستقرار المـــادى لعامـــة الناس ، والانضباط الذاتى من جانب أرباب الوظائف المسئولة عن التموين وصحـــة المواطنين [٢] .

ومن الحرف التى ارتبطت بحياة كل سكان القاهرة ، حرفة « السقاية » والتـــى قامت عليها كثير من الحرف والصناعات الغذائية وغير الغذائية ، ناهيك عن الأهميـــة القصوى للماء فى حياة أى إنسان به تحيا الكائنات وبدونه يموت كل شئ ، ولذا فـــإن نهر النيل الخالد كان ــ ولم يزل ــ سر حضارة المصريين التى قامت أساســـا علـــى الزراعة .

وفى عصر سلاطين المماليك كان السقاءون يقومون بنقل المياه من مصدرهـــا الأساسى ــ النيل ــ إلى الحوانيت والمنازل والمصانع وغيرها من الأماكن مقابل أجر

---

[١] المقريزى : الخطط ، ج ، ص ٩٥ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصـــرى ، ص ٨٧ ، قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ٤٤ ، جاستون فييـــت : القـــاهرة مدينة الفن والتجارة ، ص ٩٦ .

DOPP: OP. Cit. P. 78.

[٢] ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص ١٥٢ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٨١ ، ابـــن بســـام : المصـــدر السابق ، ص ٣٤ ، ٥١ ، ٥٧ ، المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص .

معين ولذا فإن طوائف السقائين كانوا يقطنون بالقرب من الماء نظرا لما يحتاج إليه النقل من جهد ومشقة .

وتطالعنا كتب الرحالة بإشارات مهمة عن عناصر هذه الحرفة فتذكر لنا أن بمصر من السقائين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء وأن القاهرة حوت ـ وحدها ـ « مائتى ألف جمل » لنقل المياه فضلا عن آلاف أخرى من الدواب ـ كالحمير والبغال ـ وآلاف من الحوانيت التى تبيع المياه العذبة اللازمة لحاجات السكان فى المنازل والمارة فى الأسواق والشوارع وغيرهم[١] .

وقد عرفت أحياء القاهرة الساقى الجوال من « سقائى الكيزان » [٢] و « أرباب الروايا والقرب والدلاء » وكانت الدولة تفرض عليهم تعليمات مشددة تتعلق بنظافة الأدوات المستخدمة فى هذا الغرض كالأزيار والكيزان ، وعدم غش ماء النيل بماء الآبار وغير ذلك من الأمور التى تؤثر فى صحة الناس ، فكان على السقاء أن يكون نظيفا اليدين خاليا من العاهات وأن يبتعد عن أماكن الوسخ .

وفى بعض الأحيان كانت تحدث أزمة فى ماء الشرب ويعز وجوده ويزداد الطلب على أرباب الروايا والقرب فيضطر الناس ـ أنفسهم ـ إلى نقل الماء من النيل فى جرار ويحملونها على ظهور الحمير .

ويذكر صاحب الخطط أن كثيرا من السقاءين كان يمارسون حرفة « الإطفاء » حيث يلزمهم والى الشرطة بالتجمع يوميا فى مكان ما تحسبا لوقوع حريق فيسارعون إلى إخماده بالمياه [٣] .

---

(١) البلوى : الرحلة : ورقة ٥٦ ، ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٣٢ .

(٢) ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٣١ ، جاستون فييت : المرجع السابق ، ص ٩٧ ، سهام أبو زيد : الحسبة فى مصر الإسلامية (القاهرة ، ١٩٨٦) ص ٢٠٤ .

(٣) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ١٠٣ .

ولم تكن كميات الماء المأخوذة من نهر النيل ــ بعد تنقيتها وترويقها ــ تبـــاع كلها إلى السكان فى أنحاء القاهرة ، بل كان يؤخذ جزء منها لتملأ به الأسبلة ، كـــى يستطيع غير القادرين على شراء الماء بالنقود أن يحصلوا على ما يحتاجون إليه من ماء للشرب أو الوضوء .

وقد استعملت كلمة « سبيل » للدلالة على العين التى يشرب منها الناس وكانت الأجرة التى يتقاضاها الساقى غير محدودة ــ غالبا ــ إذ تقترن الأجرة زيادة ونقصاناً بوفرة الماء وندرته ، ومدى احتياج الناس إليه ، فى مناسبات معينة ، وكانت الأسبلة تفتح بين صلاتى الظهر والعصر فى أشهر الصيف شديدة الحرارة وذلك حتى يتمكـن عامة القاهرة من إرواء عطشهم بالماء البارد (١) .

وثمة فرق بين « الأسبلة » و « المزملات » إذ كانت الأولى كمـــا يبـــدو مـــن التسمية خاصة بالمارة وعابرى السبيل الذين يريدون ماء الشرب أما « المزمـــلات » فكانت وسائل الشرب داخل المؤسسات والمنشآت لتوفير مورد الماء للمترددين عليها أثناء تواجدهم لقضاء مصالحهم بها ويطلق على المسئول عنها « المزملاتى » .

وقد اشترطت الأوقاف المملوكية فى صاحب هذه الحرفة « المزملاتـــى » عـــدة صفات منها أن يكون حسن الهيئة ، سليم البدن من الأمراض والعاهات ، وأن يعـــامل الناس بالحسنى والرفق والمودة (٢) .

ولم يكن السقاءون برغم أهمية دورهم فى المجتمع أكثر حظاً من أرباب الحرف الصغيرة الأخرى إذ أن أجورهم كانت زهيدة وغير كافية لرفع ضيق الحياة المعيشـــية عنهم إلا فى أوقات معينة فى موسم الجفاف مثلما حدث فى سنة ٨٠٢هـــ / ١٣٩٩م

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٩٠ ، ٩١ ، قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٣١ ، أندريه ريمون : تاريخ مصـــر الاجتمـــاعى ، ص ١٠٠ ، ١٠١ .

(٢) ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص ٣٥٠ ، محمد محمد أمين : الأوقاف ، ص ١٥١ ــ ١٥٤ ، أندريه ريمون : المرجع السابق ، ص ١٠٠ ــ ١٠٢ .

إذ كثر ازدحام العامة على شراء الماء حتى بلغ ثمن الراوية أربعة دراهـــم بعـد أن كانت بدرهم ونصف [١] .

ومـن الحـرف والصناعـات التـى قـامت عليـها بعـض صـور النشـاط الاقتصادى فى القاهرة ، ما يمكن أن نطلـق عليـها الحـرف الكسـائية كالحياكـة والصباغـة والرفـا والخياطـة وغيرهـا مـن الحـرف التـى اتصلـت بصناعـة الملابس بمختلف أنواعها وأشكالها وكـان لـها أسـواق معروفـة فـى القـاهرة المملوكيـة .

ومما لا شك فيه أن الملابس فى هذا العصر قامت على أسـاس مـن التمـايز الطبقى بين الطبقة الحاكمة بجناحيها العسكرى والمدنى وطبقة العامة الأمر الذى جعل أحد المؤرخين من « أولاد الناس » [٢] يعبر عن استيائه من ارتـداء بعـض عامـة المصريين الملابس الفاخرة عند ولايتهم لوظائف معينة فى الدولة وكأن المماليك قـد احتكروا بجانب ملكية الأراضى وأموال المجتمع المصرى ، ملكية الملابس والأزيـاء أيضا .

وكان بسوق « الجملون » فى القاهرة كثير من البزازين الذين يبيعـون ثيـاب الكتان من الخام الأزرق ، وأنواع الطرح ، وأصناف الثياب القطنية وفيها عدد كبـير من الخياطين والبابية [٣] المعدين لغسل الثياب وصقلها وغير ذلك من الأعمـال [٤] . كذلك عرفت أسواق القاهرة حرفة « الرسامين » الذين يزينون الملابـس بالأشـكال الزخرفية بالذهب والحرير [٥] .

---

[١] ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ق١ ، ص ٥٨٥ .

[٢] ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٦ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

[٣] مفردها « بابا » وهو لفظ أعجمى يعنى المضمون المشار إليه (السبكى : معيـد النعـم ، ص ١٣٨) .

[٤] المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ١٠١ .

[٥] نفسه : ص ١٠ .

وقد تصد أشكال الملابس فى هذا العصر خاصة بالنسبة الشـرائح الاجتماعيـة العليا من العسكريين والمدنيين إذ أن كل شريحة من هذه الشرائح كانت ترتدى زيـاً خاصاً من عدة قطع بل إن الأزياء كانت تتغير وتتبدل فى مكوناتها وأشكالها ودرجـة جودتها من درجة وظيفية لأخرى أو حسب الرتبة العسكرية لكل مملوك .

وكانت هناك أسواق بجانب سوق الجملون تكتظ بباعة الثيـاب مـن مختلـف الأنواع مثل سوق الحريريين وسوق الجوخيين ، وسوق الشرابشـيين [١] ، وسـوق الفرايين ، وسوق الأقباعيين [٢] ، وسوق المحايريين [٣] وغيرها من الأسواق التـى كانت مركزاً لمظاهر النشاط الاقتصادى فى مجال الصناعة والتجارة [٤] .

وكانت هناك أسواق يباع فيها الأشياء الثمينة من الملابس التى يقدر عليـها إلا أهل المال والجاه مثل سوق « الفرايين » المشهور ببيع أفخر أنواع الملابـس مـن الفراء الذى يؤخذ من أنواع معينة من الحيوانات (السنجاب ـ السمور) .

وربما حذا بعض العامة من النساء حذو الأمراء والأعيان فى ارتياد هذا السوق وشراء بعض الفراء الثمينة وكذلك القلائد والحلى التى اشتهر بها سوق العنـبريين ، وحى الصاغة (فى شارع المعز لدين الله حاليا) « وصار يحكى ذلك مدة لعزة هـذا الصنف واحترامه لكونه من ملابس السلطان وملابس نسائه » [٥] .

ومما يذكر أن نساء القاهرة بوجه عام كن يملن إلى ارتـداء الثيـاب الطويلـة والمتسعة حتى أنها تغطى القدمين مع تغطية الوجه عند الخروج من المنزل بـأنواع

---

[١] نفسه : ص ٩٨ ـ ١٠٠ .

[٢] الشرابشيين سوق بيع الخلع والتشاريف السلطانية (نفسه : ص ٩٨ ـ ١٠٢) .

[٣] الأقباعيين : سوق بيع الطواقى (نفسه : ص ١٠٢ ـ ١٠٤) .

[٤] المحايريين : سوق بيع ملابس الحج (نفسه : ص ١٠١) .

[٥] المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

من النقاب الذى اتخذ شكل القناع الشبكى الأسود وبه فتحتان للعينين أو شكل قناع أبيض أو أسود (برقع) يغطى الوجه إلى ما تحت العينين بقليل [١] .

وكان فقراء العامة يرتدون الجوخ فى غير وقت المطر ربما لرخص ثمنه إذ كان الجوخ لعمل المقاعد والستائر وثياب السروج ، وكان لبسه مقصوراً على سواد العامة أما طبقة المماليك والأمراء فكانوا يرتدون الجوخ عند سقوط الأمطار إلى أن ساءت الأحوال الاقتصادية للناس جميعاً فى أواخر العصر مثلما حدث بعد عام سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٤م عندما ما غلب على الناس الفقر وغلت أسعار الملابس « ودعت الضرورة أهل مصر إلى ترك ما كانوا فيه من الترف ، وصار معظم العامة يرتدون الجوخ » [٢] .

كما اشتهرت أسواق القاهرة ببيع الأحذية والنعال التى ترتديها النساء ، وإن الفقيرات منهن كن يرتدين نوعاً من الأحذية الرخيصة يعرف « بالمداس » أو هو أى شئ رخيص الثمن « تدوس » بها على الأرض [٣] .

ويمكن للباحث الوقوف على مبلغ الازدهار الاقتصادى فى مصر فى عصر المماليك البحرية (٦٤٨ ــ ٧٨٤هـ / ١٢٥٠ ــ ١٣٨٢م) فى ضوء الدراسة المستفيضة التى قام بها شيخ مؤرخى العصور الوسطى ــ المقريزى ــ عن أسواق القاهرة ، تاريخها ، وتطورها ، وآثارها الباقية فى زمنه (عصر المماليك الجراكسة) حيث يجول بنا المؤرخ بين أحياء القاهرة وكأنه يستدعى من ذمة الفترات التاريخية السابقة أجمل الذكريات التى أدركها فى صباه عن « حال الترف الذى كان فيه أهل مصر » وكأنها يرسم بقلمه لوحة نادرة لعامة القاهرة من التجار

---

[١] نفسه : ص ١٠١ ، ولمزيد من التفاصيل : سعد الخادم : الأزياء الشعبية (القاهرة ، المكتبة الثقافية ، ١٩٦١م) ، ص ١٧ ، ماير : الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتى (القاهرة ، ١٩٧٢) ص ١٢٣ ــ ١٣٢ .

[٢] المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٩٨ .

[٣] نفسه : ص ١٠٥ ، ماير : المرجع السابق ، ص ١٢٩ ، أحمد عبد الرازق : المرأة المملوكية ص ١٩٤ .

والصناع والحرفيين والباعة والسوقة والفقهاء وطلاب العلم ، والنساء والأطفال ، والخدم والعبيد ، والجوارى وغيرها من فئات المجتمع وهم يتحركون ويجلسون ، وينادون ويتحاورون ، ويتساومون ، ويصرخون ، ... ، وسط ما تجود به أرض مصر من خيرات ونعم لا تحصى .

وفى هذا يقول المؤرخ فى معرض ذكره لبعض أسواق القاهرة مخاطباً القارئ « فاعتبر بما قصصته عليك حال الترف الذى كان عليه أهل مصر ولا تتخذ حكاية ذلك هزوًا تسخر به فتكون ممن لا تنفعه المواعظ بل يمر بالآيات معرضا غافلا فتحرم الخير » [1] .

ويقول عند ذكره لسوق « الدجاجين » [2] وما فيه من أصناف « القمارى والهزارات والشحارير ، والبغاوات ، والسمان » : « وكنا نسمع أن السمان ما يبلغ ثمنه المئات من الدراهم وبقية طيور المسموع يبلغ الواحد منها نحو الألف لتنافس الناس فيها وتوفر عدد المعتنين بها ، ... » فإذا كان هذا ما قاله عن سوق واحد فماذا عن باقى الأسواق ؟

ومن أسواق القاهرة التى اشتهرت بصناعة المنتجات الخشبية والمعدنية « سوق الخراطين » و « سوق الكفتيين » وكانا بهما عدد كبير من الحرفيين والصناع الذين تخصصوا فى صناعة « الصناديق والخزائن والأسرة » وغيرها من المصنوعات الخشبية وفيها يقول أحد المعاصرين :

« وكان سوقاً كبيراً معمور الجانبين بالحوانيت المعدة لبيع المهد الذى يربى فيه الأطفال وحوانيت الخراطين ، وحوانيت صناع السكاكين وصناع الدوى يشتمل على نحو الخمسين حانوتاً » .

أما سوق الكفتيين فكان يضم عدة حوانيت لصناعة كل ما يتصل بجهاز العروس « وكان لهذا الصنف من الأعمال بديار مصر رواج عظيم وللناس فى النحاس المكفت

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٩٦ .
(٢) نفسه .

رغبة عظيمة أدركنا من ذلك شيئاً لا يبلغ وصفه واصف لكثرته ، فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت ولابد أن يكون في شورة العروس دكة نحاس مكفت والدكة عبارة عن شئ شبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس أو من خشب مدهون وفوق الدكة دست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض ، ... ، ومثل ذلك دست أطباق عدتها سبعة بعضها في جوف بعض ، ... وغير ذلك من المناير والسرج وأحقاق الأشنان والطشت والأبريق والمبخرة وتبلغ قيمة الدكة من النحاس المكفت زيادة على مائتي دينار ذهبا وكانت العروس من بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب وأماثل التجار تجهز في شورتها عند بناء الزوج عليها سبع دكك ، دكة من فضة ، ودكة من كفت ، ودكة من نحاس أبيض ودكة من خشب مدهون ودكة من صيني ودكة من بلور ودكة كداهي وهي آلات من ورق مدهون تحمل من الصين أدركنا منها في الدور شيئا كثيرا » [1] .

كما أسهم النجارون والخراطون والكفتيون في إثراء العمارة الدينية بالأبواب والمنابر والدكك والكراسي والموائد وحوامل [2] القرآن وصناديق حفظ الكتاب المقدس وغير ذلك من المصنوعات الخشبية .

ومن أشهر أسواق القاهرة التي لعبت دورا في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية « المهامزيين » و « سوق اللجمين » الذي وصفه المقريزي بقوله :

« تقع سوق المهامزيين بالقرب من إليماستان المنصوري وتباع فيه المهاميز التي تستخدم في ركوب الخيل وكان المهماز من الذهب أو الفضة الخالصة [3] ، ... ،

---

(١) المقريزي : الخطط ، ج٢ ، ص ١٠٣ ، ١٠٥ .

(٢) حسن الباشا : القاهرة . تاريخها . فنونها . آثارها (القاهرة ، ١٩٧٠م) ص ٣٦٧ .
Lane Poole: History of Egypt, P. 314.

(٣) المقريزي : المصدر نفسه ، ص ٩٨ .

وقد اتصلت سوق اللجمين بسوق المهامزيين وكانت تباع فيه آلات اللجم وغيرها من المعدات الجلدية التى تستخدم فى ركوب الخيل وكان بها عدد من صناع الطلاء والكفت ، وصناع السروج وأدواتها ، ... ، وكان يباع بسوق المهامزيين أيضا سلاسل الفضة ومخاطم الفضة المطلية تجعل تحت لجم المجور من الخيل خاصة فيركب بها أعيان الموقعين وأكابر الكتاب من القبط ورؤساء التجار ، ... ، وأدركت السروج تعمل ملونة ما بين أصفر وأزرق ومنها ما يعمل من الدبل ومنها ما يعمل سيوراً من الجلد البلغارى الأسود ويركب هذه السروج السود القضاة ومشايخ العلم » .

ومن الرواية السابقة يمكن تصور حشد الحرف والصنائع المتصلة بتجارة الخيل والبغال سواء من حيث احتياجات هذه الدواب من الكساء والأدوات والغذاء والرعاية الطبية والتدريب أو من حيث استخدامها فى وسائل النقل البرى مع غيرها من الدواب كالجمال والحمير [١] .

ومن المعروف أن تجارة الخيل كانت واحدة من أهم مصادر الثروة لدى الناس خاصة الأعراب الذين برعوا فيها وحققوا من ورائها ثروات مالية طائلة معتمدين فى ذلك على شدة حاجة الدولة للخيول فى الحرب والسلم . ولذلك كانت أسواق وإسطبلات الخيل فى أنحاء القاهرة مزدحمة بجمهور من الدلالين والسياس والمنادين وغيرهم من المستخدمين فى رعاية شئون الخيل والذين كانوا محل اهتمام من السلاطين شخصيا [٢] .

ويعد سوق « الحلاويين » من أبهى أسواق القاهرة وهو سوق « الشماعين » لما يشهده من نشاط ملحوظ فى حركة البيع والشراء وما يحتويه من حوانيت شتى

---

[١] المقريزى : السلوك ، ج١ ق٢ ، ص ٥٧٧ ، ٦٣٧ ، ج٢ ق٢ ، ص ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، الخطط ، ج٢ ، ص ٥٢٨ .

[٢] المقريزى : السلوك ، ج١ ق٢ ، ص ٥٠١ ، وعن الموضوع : نبيل عبد العزيز : الخيل ورياضتها (القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٦م) .

أنواع الحلوى الملونة والتى تسمى « المجمعة » وكان لهذا السوق مواسم يزدهر فيها مثل شهر رجب ونصف شعبان ، وشهر رمضان حيث تكتظ بكثير من الناس وكثير من الحرفيين والصناع يبيعون ويشترون أنواع الحلوى التى يتناولها العامة والخاصة من أبناء القاهرة .

وقد كان « سوق الشماعين » (١) يموج موج البحر بالشموع الموكبية والفانوسية وتظل حوانيت هذا السوق مفتوحة حتى منتصف الليل . وكانت تباع فيه كل ليلة كميات كبيرة من الشمع ويزدهر نشاطه فى موسم الغطاس حيث تعلق الفوانيس التى تدخل الفرحة والسرور فى نفوس الصغار والكبار . كذلك كان لهذا السوق موسم كبير فى شهر رمضان لكثرة ما يباع فى هذا الشهر الكريم من شموع موكبية وفانوسية .

« وقد خربت أكثر دكاكينها وكسدت تجارتها نظرا لتدهور أحوال الناس » مثلما تدهور حال سوق الحلاويين بسبب غلاء أسعار السكر وخراب كثير من الدواليب التى كانت بالوجه القبلى ، وكثير من المطابخ بمدينة القاهرة .

« فقل عمل الحلوى ومات أكثر صناعها » ويشير المقريزى وغيره إلى طبيعة العلاقة بين الازدهار الاقتصادى فى مصر والقوى الشرائية لعامة القاهرة بقوله : « كانت الناس قبل هذا (سنة ٨١٧هـ / ١٤١٤م) (٢) تختزن كميات كبيرة من الكعك وتتهادى به « أما الآن » فلم يعد هذه الأشياء (الحلوى) بالأسواق البتة » .

ومن المهم أن نشير إلى أن الدولة كانت تقرر ضرائب على الدواب من الخيول والبغال بواقع ٣٠٠ درهم عن ثمن الحياصة و ٥٠٠ درهم عن ثمن البغل ، ونصف السمسرة من دلالى الخيال أو ما يمكن أن نسميها « ضريبة الدلالة » (٣) .

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٠٠ ، السخاوى : التبر المسبوك ، ص ١٠٩ ، ٣٣٧ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج٢ ق١ ، ص ١٥٠ ، ١٥٢ ، الخطط ، ج٢ ، ص ١١١ ، ١١٢ .

وتعد البغال والحمير من أهم وسائل النقل والمواصلات لكافة الشرائح الاجتماعية من المصريين خاصة النساء وكبار السن الذين كانوا يتنقلون بها من مكان إلى مكان آخر لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس .

ويحصى لنا أحد الرحالة فى القرن الثامن الهجرى /١٤م حوالى ثلاثين ألف مكار بالقاهرة ومعهم الحمير المجهزة بالبراذع واللجم وتمتاز بالسرعة والحيوية حتى يتحقق الهدف المنشود منها كوسيلة من وسائل النقل فى هذا العصر [١] ، وكانت الدابة التى تعجز عن تأدية وظيفتها فى نقل الناس يتم استخدامها فى وظيفة أدنى مثل العمل فى نقل المياه من النيل إلى الحوانيت ومنازل الأهالى [٢] . مع مراعاة تعليمات المحتسب بتعليق أدوات الإنذار فى أعناق الدواب لتنبيه المارة والغافلين من عامة الناس .

ويبدو أن المكارية كانوا (مثل سائقى السيارات « التاكسى » فى زماننا الآن) يستغلون الزبائن ويساومونهم فى الأجر ويفضلون الزبائن الذين يبدو عليها مظاهر الثراء أو الانحلال الخلقى لما يدفعونه من أجور عالية .

« وكثير من المكارية لا يعجبه أن يكارى إلا الفاجرات من النساء والمغانى منهن لمغالتهن فى الكراء (الأجر) » [٣] .

وقد أشار أحد المعاصرين إلى أهمية المكارية والسقانين فى القاهرة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى معرض ذكره لأحداث أزمة حادة فى مياه الشرب حتى كادت القاهرة « ترتج » لاختفاء المكارية والسائقين [٤] .

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة / ص ٣٣ ، ابن الأخوة : معالم القربة ، ص ٣٤٩ .

(٢) أندريه ريمون : المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

Lane Poole: Social Life, P. 6.

(٣) السبكى : المرجع السابق ، ص ١٤٠ ، ابن الأخوة : المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ١٦٣ .

ويمكن فهم طبيعة العلاقة بين قوة النظام السياسى والاستقرار الاقتصادى للمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك فى ضوء رعاية الدولة للأسواق ، وإقامة المنشآت الاقتصادية والاجتماعية التى تخدم حركة البيع والشراء والتبادل السلعى بين الصادرات المصرية والواردات الأجنبية إذ ضمت الأسواق فى هذا العصر كثيرا من الوكالات التى كانت أشبه بالمبنى التجارى الكبير (مول) لتخزين البضائع التى تباع لصغار التجار (تجار التجزئة) الذى يقومون بدورهم ببيعها مرة لأخرى والحصول على فارق الربح ، كما تستخدم لإيواء التجار فى المساكن التى تعلو المخازن ، وهى مبنية بطريقة تساعد هلى حرية الحركة ومواجهة الظروف الطارئة مثل الحرائق وأعمال التخريب أو السرقة والنهب ، إذ يكون للوكالة باب عام واحد له حارس ويغلق هذا الباب ليلا ومن أمثلة هذه الوكالات وكالة قوصون فى زمن السلطان الناصر محمد بن قلاون ، ووكالة الغورى التى أنشئت فى عهد السلطان قنصوه الغورى سنة ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م وكانت تمتلئ بكثير من صغار التجار والباعة فضلا عن بعض عامة القاهرة والمدن الأخرى الذين يرغبون فى الشراء أو مشاهدة البضائع بها .

ومن المنشآت التى اهتم به سلاطين المماليك أيضا الفنادق والخانات لإيواء التجار الأجانب وتوفير كافة سبل الراحة لهم وكان يوجد بها عدد كبير من عامة القاهرة من « العتالين » لنقل البضائع منها إلى أى مكان لقاء أجر زهيد ، وكان الفندق يضم فى أسفله عدد من الحوانيت المخصصة لصغار التجار الذين يرغبون فى شراء البضائع المستوردة لإعادة بيعها مرة أخرى فى أسواق القاهرة .

ويبدو أن الوكالات والفنادق والخانات كانت جميعها ذات أغراض مشتركة تتصل بتخزين البضائع وسكنى التجار [1] .

---

(1) عن الوكالات والفنادق والخانات : المقريزى : السلوك ، ج١ ق٢ ، ص ٥٣٣ ، ٥٥٣ ، الخطط ج٢ . ص ٩١ — ٩٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ج٩ ص ٠ . ج ١١ ، ص ٣٨٤ .

وينبئنا والمقريزى [1] بأخبار القيساريات فى هذا العصر وهى نوع من الأسواق المغلقة التى يسكنها عدد من عامة القاهرة الذين يعملون فى مجال التجارة أو الصناعة أو الحرف التى تنتشر فى هذه الأسواق ليكونوا على مقربة من أماكن عملهم لمتابعة عمليات البيع والشراء ، وكانت القيسارية يعلوها عدة رباع (طوابق سكنية) وحوانيت سكنها صناع الأحذية والأخفاف وبلغت أجرة كل حانوت عشرة دراهم .

ويمكن القول أن أسواق القاهرة كانت بمثابة مؤسسة اقتصادية واجتماعية وسياسية ضمت بين جوانبها مختلف القطاعات الإنتاجية التى لم تكن مجرد عناصر لممارسة عمليات البيع والشراء فحسب بل كانت تمارس كذلك نوعا من الإنتاج الثقافى والمعرفى فى مجال العلاقات بين الأفراد والجماعات فى الأماكن المتفرقة من هذه الأسواق بحيث يمكن لهذه الأنماط البشرية أن تكون ما يمكن أن نسميه « بالرأى العام » لعامة القاهرة وإن كان هذا الدور الحيوى للأسواق قد أخذ فى الانكماش تدريجيا فى ظل عوامل التدهور والتصدع فى البناء السياسى للدولة بفعل الهزات الاقتصادية التى أصابت مصر فى النصف الثانى من هذا العصر مما أثر سلبا على كثافة العاملين بهذه الأسواق وبالتالى كثافة جموع المتوافدين عليها من المصريين داخل القاهرة وخارجها بعد أن « تعطل أكثر ما تشتمل عليه من الحوانيت » وصارت هذه الأسواق مناطق مهجورة وغير مأمونة لكثير من عامة القاهرة وفى هذا يقول ابن إياس :

« وفيه نادى والى القاهرة عن السلطان بأن أهل الأسواق والحارات يعملون دروبا فامتثلوا لذلك ، وبنيت بالقاهرة دروب منها سوق تحت الربع وسوق أحمد بن طولون ، وسوق أمير الجيوش ، وتميز ذلك من الأسواق وَالحارات ، وكانت المناسر كثرت فى تلك الأيام جداً وصاروا يهجمون على الأسواق والحارات يعطعطون بها » [2] .

---

[1] المقريزى : الخطط ، ج ، ص ٨٦ ــ ٩١ .

[2] ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٣٨٣ ــ ٣٨٧ .

وتعد « الحمامات » العامة من الأماكن الاجتماعية التى ضمت عدد كبير من أصحاب الحرف كالحمامين والبلانين ، والمشاطين والمبخرين الذين يمارسون داخل هذه الحمامات التى كانت يعتمد عليها عامة القاهرة من الجنسين نظرا لأن المنازل فى هذا العصر كانت تخلو من الحمامات التى كانت مقصورة فيما يبدو على القصور وبيوت الأمراء وأعيان الدولة .

وكان الحمّامى يشرف عن شئون الزبائن داخل الحمام وقد حددت كتب الحسبة الشروط الواجب مراعاتها عن القيام بهذا العمل حفاظاً على الصحة العامة للمترددين على الحمامات ، وكذلك المحافظة على الآداب العامة وتقاليد الاحتشام وعلى سبيل المثال لا الحصر كان على الحمامى أن يمنع أرباب الأمراض المعدية كالمجزومين والبرصاء من دخول الحمام كذلك عليه أن يلزم الرجال بستر ما بين السرة والركبتين لستر العورات .

وكان يساعد الحمامى شخص أطلقت عليه كتب الحسبة اسم « الوقاف » وهو الذى يتولى مهمة حفظ الملابس وغيرها من المتاع فضلا عن دوره فى فتح الحمام قبيل طلوع الفجر حتى يتمكن الناس من التطهر والوضوء قبل وقت الصلاة [١] .

وكان البلان يتولى مهمة النظافة الشخصية للرجل من إزالة الشعر وتقليم الأظافر وغير ذلك من الأمور التى تحتاج إلى نوع من اليقظة والخفة والمهارة لكى يؤدى عمله على خير وجه وربما كانت وظيفة « البلان » هى نفسها وظيفة « المزين » وهما حرفتان ذات أصل واحد وهو « الحلاق » إلا أن الأعمال الخاصة بالحرفة كانت تتنوع وتتعدد حسبما يتوفر لصاحبها من خبرة [٢] .

---

[١] مفضل ابن أبى الفضائل : النهج السديد / ص ١٢٥ ، ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص ٢٤٠ ٢٤٢ ، قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ ، أحمد عبد الرازق : المرجع السابق ، ص ١٤٤ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، ص ٩٥ .

[٢] ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص ٢٤٢ ، قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

ولم تزل كتب الأدب الشعبى تحدثنا عن بعض المنشآت الاجتماعية ومن بينها الحمامات خاصة بالنسبة لدورها فى حياة الزوج فى بداية الحياة الأسرية [١] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الحمامات فى عصر سلاطين المماليك كانت تعبيرا عن واقعيا عن الحالة الاقتصادية لعامة القاهرة إذ أن الحمام لم يكن مجرد مكان للنظافة والاستحمام ، بل كان له مفهوم أوسع من وظيفته المتعارف عليها إذ كان العامة على مختلف شرائحهم الاجتماعية يتبادلون أطراف الحديث فى شئون حياتهم اليومية . بل إن النساء ــ خاصة ــ كن يتوافدن إلى هذا المكان لاستعراض ما لديهن من مظاهر اجتماعية كالأزياء والحلى والمجوهرات التى تكشف عن حالة الثراء التى يحيا فيها أزواجهن [٢] .

ومن الحرف التى اعترفت بها الدولة « الدعارة » أو « البغاء » فى إطار حاجتها إلى الأموال بمختلف الوسائل المشروعة وغير المشروعة وكانت تفرض ضريبة على أرباب هذه الحرفة عرفت فى المصادر المعاصرة باسم « حقوق القينات » أو « ضمان المغانى » [٣] .

واشتهرت أحياء سكنية فى القاهرة بمزاولة بعض العامة من النساء لهذه الحرفة الرائجة مثل بولاق (بيلاق) والتى يقع بها منطقة الطبالة . وحارة الأرمن التى ذكرها أحد المؤرخين فى إطار ممارسة أهلها الفواحش بطريقة علنية وصريحة إلى حد المرأة أو الجارية أو الشاب إذا دخل أحدهم إلى هذا المكان فإنه لا يستطيع منه فكاكا حتى يؤدى ما يطلب منه من رذيلة أو يفتدى نفسه بشىء من المال .

« لا يقدر أن يأخذه منهم أحد ولو كان من كان » [٤]

---

(١) ألف ليلة وليلة : ج٦ ، ص ١٢٩٢ ، سيرة الظاهر بيبرس : ج٩ ، ص ٥٠٢ .
Lane Poole, W.E, : Modern Egyptians, PP. 35-44.

(٢) ألف ليلة وليلة : ج٦ ، ص ١٢٩١ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٩٥ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج٢ ق١ ، ص ١٥٢ ، الخطط ، ج١ ، ص ٨٩ .

(٤) المقريزى : السلوك ، ج٢ ق٢ ، ص ٦٤٠ ــ ٦٤١ .

ويبدو من قراءة أحد المصادر المملوكية المتأخرة أن العامل الاقتصادى لعب دوراً كبيراً فى انتشار هذه الحرفة فى أوساط بنات العامة فى القاهرة بسبب حاجتهن للمال للإنفاق منه على أنفسهن وعلى ذويهن لسوء الأحوال المعيشية ، ساعد على ذلك رعاية النظام السياسى لهذه الحرفة وعناصرها المختلفة من أرباب الدعارة والشذوذ والقوادة طمعا فى مزيد من أموال الضرائب « المكوس » [١] . وقد أشار أحد المعاصرين إلى أن أحد أسواق القاهرة « الشماعين » كان مركزاً لتجميع أرباب الحرفة من « البقر السارح» « وكن يسهرن حتى ساعة متأخرة من الليل » [٢] .

ومن الظواهر الاقتصادية فى هذا العصر مزاولة نساء العامة فى القاهرة لبعض الحرف والصنائع التى ساهمت فى إثراء النشاط الاجتماعى للمرأة فى زمن كان ينظر فيه « للمرأة » باعتبارها جزءاً من متاع البيت ، ولا تستطيع حرية التصرف أو التفكير إلا فى إطار « الرجل » .

ومما لا شك فيه أن ثمة حرف فى هذا العصر ارتبطت تحديداً بخصوصية المرأة مثل حرفة « الداية » أو « المولدة » التى كان عليها أن تقوم بأعمال مجموعة من الأطباء والممرضات والعمال فى زماننا المعاصر من أجل أن تضع كل ذات حمل حملها ثم تتعهدها بعد ذلك بالرعاية والتوجيهات وكان للولادة فى هذا العصر إجراءات معينة حيث تحضر الداية قبل الموعد بعدة أيام تحسباً لأى شئ ، وعندما تشعر المرأة الحامل بآلام المخاض تجلس على كرسى خاص بالولادة مغطى بالقماش ، ويزين ببعض الزينة كالأزهار والورود ، ويوضع أمام منزل الوالدة إعلاناً عن هذا الحادث السعيد [٣] .

---

[١] ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ١١٨ .

[٢] المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٩٥ ، سيرة الظاهر بيبرس ، ج٧ ، ص ٤٠٧ .

[٣] أحمد عبد الرازق : المرأة ، ص ٣٥ .

Lane Poole, W.E, Op. Cit. P. 509.

كذلك زاولت النساء حرفة « البلانة » و « الماشطة » « الصانعة » (الوشم) وغيرها من الحرف التى تتصل بزينة المرأة وجمالها فى المناسبات المختلفة ، وهو ما أشارت إليه كتب الأدب الشعبى فى عصر سلاطين المماليك إذ يذكر صاحب « خيال الظل » عن « الخاطبة » أنها تعرف « كل حرة وعاهرة وكل مليحة بمصر والقاهرة » [١] .

وجدير بالذكر أن معظم النساء الذين اضطررن لمزاولة تلك الأعمال أو أعمال أخرى فى مجال الحياة العامة كن من « الأرامل » اللاتى صرن فى حاجة إلى المال للإنفاق على أولادهن ، وربما وصل الأمر إلى امتهان بعض بنات هذه الأسر الفقيرة حرفة الدعارة تحت وطأة الجوع والفاقة وغياب قيم العدالة والتكافل الاجتماعى وهو ما سبقت الإشارة إليه [٢] .

ومن الحرف التى ذكرتها المصادر التاريخية والأدبية وزاولها عدد كبير من عامة القاهرة : الإسكافية و « المشاعلية » و « الحمالين » و « التراسين » و « الكساحين » وغيرها من الحرف التى يراها الناس فى معرض القرف والاشمئزاز برغم أن هذه الحرف وغيرها تؤدى دوراً مهماً الناس فى أعمال النظافة ، وتطهير الأماكن من الأوساخ والقاذورات ، التى هم مسئولون عنها ، والتى قد تسبب لهم العديد من الأمراض والأضرار الصحية والنفسية ، بدليل أن المحتسب فى القاهرة كان يراقب عمل « الكاسح » بنفس المستوى الذى يراقب به أصحاب الحرف الأخرى لعلمه بالآثار السلبية المترتبة على إهمال مثل هذه الأعمال الأساسية والتى تنعكس بدورها على القوى الاجتماعية الإنتاجية .

فضلا عن أن هذه الحرف المحقرة فى عيون الناس أنفع وأكثر قيمة من حرف أخرى غير شرعية كالدعارة ، والقوادة ، والشذوذ وغير ذلك مما شاع فى هذا

---

[١] إبراهيم حمادة : خيال الظل ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ ، أحمد عبد الرازق ، المرجع السابق ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

[٢] ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٥ ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

العصر فى إطار القيم والمثل الأخلاقية الغائبة فى أذهان كثير من الحكام والمحكومين (١) .

وعلى عكس هذه الرؤية المتدنية لتلك الحرف نجد حرف مماثلة لها فى الجوامع ، الخوانق والربط والزوايا ومن أمثلتها « الكناسون » و « الفراشون » و « الوقادون » و « الكساحون » و « السباكون » وغيرها كان لها رؤية دينية فى إطار حياة الرضا والزهد والتى شجعت نسبة كبيرة من أرباب الأعمال على هجر أعمالهم والانخراط فى أحضان الدروشة باسم الدين وهم فى الحقيقة يركنون إلى حياة الكسل طمعاً فى امتيازات هذه الأماكن من الأطعمة والأشربة والكساء والمال فضلا عن السكنى دون مقابل (٢) .

ويتبقى فى هذا الفصل أن نشير إلى حقيقة هامة مؤداها أن كثرة العاطلين من الشرائح الاجتماعية فى المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك كانت نتيجة تدهور الأوضاع الاقتصادية وسوء توجيه النظام السياسى لوسائل الإنتاج التى وظفت — إلى حد كبير — فى إشباع حاجات الطبقة الحاكمة (السلطان — الأمراء — الجند) باسم الدفاع عن مصر فى مواجهة الأخطار المحدقة بها من أعداء الإسلام والمسلمين وهو الدور الذى انتهى بنهاية الوجود الصليبى فى المنطقة العربية فى نهاية القرن السابع الهجرى /١٣م وبنهاية هذا الدور لم يعد هناك مبرر حقيقى لاستنزاف ثروات المصريين . والذى أدى إلى انحسار الدور الاقتصادى « الإيجابى » لعامة القاهرة فى إطار التجارة والصناعة والحرف التى أثرت الحياة الاقتصادية فى النصف الأول من هذا العصر — وظهور كثير من أنماط الحرف والأعمال السلبية والدنيئة فى إطار

---

(١) ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص ٢٣٣ ، المقريزى : السلوك ، ج٤ ق١ ، ص ٣٣٣ ، الخطط ، ج١ ، ص ٨٩ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ١٠٥ ، السبكى : المصدر السابق ، ص ١٤٦ ، ألف ليلة وليلة ، ج٦ ، ص ١١٤١ ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٣٨ .

(٢) المقريزى : السلوك ج١ ، ق١ ، ص ٨٢ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٣ ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

« الدعارة » و « الحرفشة » و « الاستجداء » و « الدروشة » وغير ذلك مما ألحق الأضرار بالاقتصاد القومى المصرى وترك آثاره الوخيمة على مختلف مناحى الحياة الاجتماعية لجميع الشرائح الطبقية بما فيها الطبقة الحاكمة الأمر الذى يصفه لنا أحد المؤرخين المعاصرين فى نهاية عمر الدولة بقوله :

« امتنع الخبز من الأسواق ، وكذلك الدقيق ، ووقع القحط بين الناس ، وضج العوام ، وكثر الدعاء على السلطان ، وغلقت أسواق القماش ، واختفى الصنايعية والخياطون واضطربت أحوال القاهرة ، واختفى جماعة من التجار خوفاً من المماليك ، واختفى طائفة من الغلمان لأجل السفر ، وصارت أحوال مصر مثل يوم القيامة كل واحد يقول : روحى روحى » [1] .

---

[1] ابن إياس : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٢٨ .

الفصل الرابع

دور العامة فى الحياة الاجتماعية

النشاط الاجتماعى اليومى لعامة القاهرة فى : « الأسواق - الحمامات - الجوامع - المدارس - الأسبلة - الخوانق » - مظاهر الاحتفالات الدينية والقومية لعامة القاهرة - وسائل التسلية لعامة القاهرة - العادات الاجتماعية والمعتقدات الشعبية - فى ضوء المفاهيم الدينية والموروثات الحضارية - السخرة المملوكية لعامة القاهرة ونتائجها السلبية على الحياة الاجتماعية - التدهور الأمنى فى أواخر عصر سلاطين المماليك وأثره على دور العامة فى الحياة الاجتماعية .

تأتى أهمية دور عامة القاهرة فى الحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك فى ضوء الدور الاقتصادى للقوى العاملة فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين . وهو الدور الذى عبرت عنه كتابات ومشاهدات المؤرخين والرحالة فى فترة السلام التى عاشتها المنطقة العربية مع بداية العقد الأخير من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى فى أعقاب القضاء المبرم على الوجود الصليبى الذى ظل جاثما على صدور العرب والمسلمين قرابة قرنين من الزمان .

ومن المعروف لجمهور الباحثين أن مدينة القاهرة التى وصفها المؤرخون والرحالة فى هذا العصر لم تختلف فى أحيائها وحاراتها ودروبها وخططها عن « القاهرة العثمانية » حتى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى إذ أنه مع بداية حكم الأسرة العلوية فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى حدثت طفرة حضارية غيرت شكل الخريطة المساحية والعمرانية لمدينة القاهرة [1] .

وفى عصر سلاطين المماليك كانت القاهرة مقسمة إلى « حارات » أو «أحياء» وكل حى منها عبارة عن منطقة سكنية يتمتع سكانها بنوع من الاكتفاء الذاتى فى أمورهم المعيشية إذا كان بكل حارة عدد من الأسواق والدكاكين والحمامات والمخابز وغيرها من المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية التى يحتاج إليها عامة القاهرة فى حياتهم اليومية مثال ذلك حارة « برجوان » [2] بالجمالية ، وكان بالقاهرة حتى بداية القرن التاسع الهجرى / ١٥م سبع وثلاثون حارة [3] .

---

(1) راجع المدخل : ص ١٨ ــ ٢٠ .

(2) برجوان : أبو الفتوح برجوان الخادم وكان يتولى أمر القصور الفاطمية . (المقريزى : الخطط ج٢ ، ص٣ ، ٤) .

(3) لمزيد من التفاصيل ، المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣ ــ ٢٣ ويستهل المؤرخ حديثه بذكر « حارة برجوان » التى كانت من أشهر حارات القاهرة ويقول عنها : « وما برحنا ونحن شباب نفاخر بحارة برجوان سكان جميع حارات القاهرة » (نفسه : ص ٩٥) .

ويصف المقريزى حارة برجوان بقوله :

« وأدركت سوق حارة برجوان أعظم أسواق القاهرة وما برحنا ونحن شباب نفاخر بحارة برجوان سكان جميع حارات القاهرة فنقول بحارة برجوان حمامات ويعنى حمامى الرومى وحمام سويد فإنه كان يدخل إليها من داخل الحارة . وبها فرنان ولها السوق الذى لا يحتاج سكانها إلى غيره » [١] وربما كانت الحارة الواحد تضم عدة حارات مثل حارة « الحسينية » التى كان بها « الأسواق ذات المساكن العظيمة فى الكثرة » [٢] .

وكان بالقاهرة نحو أربعة آلاف شارع ودرب . كل منها له بابان وحارسان . وفى بعض الشوارع ما يقرب من خمسة عشر ألف مسكن ولكل سوق كبير فيه لحتياجات السكان اليومية ، ولكل حارة « شيخ » يمثل أهلها فى الاتصال بالسلطة المملوكية ليس من أجل مصالح سكان الحارة فحسب بل من أجل معاونة الدولة فى جمع الضرائب والإبلاغ عن أية معلومات فضلا عن قيامه بتدوين عدد المواليد والوفيات اليومية فى الحى الخاص به والإشراف على فتح وغلق الحوانيت ، ومنع حدوث الجرائم وأعمال السلب والنهب ، وحفظ الأمن وغير ذلك من الأعمال التى أشار إليها أحد المعاصرين فى « خططه » و « حولياته » .

وذكر أن أحياء القاهرة كان يشرف على الأمن بها ليلا أحد أهل الدولة «صاحب العسس » والذى عرفته عامة القاهرة باسم « والى الطوف » وكان يجلس ليلا من بعد صلاة العشاء وحوله « عدة من الأعوان وكثير من السائقين والنجارين والقصارين والهدادين بنوب مقررة لهم خوفاً من أن يحدث بالقاهرة فى الليل حريق فيتداركون إطفاءه ومن حدث منه فى الليل خصومة أو وجد سكران أو قبض عليه من السراق تولى أمره » [٣] وقد أشار السبكى إلى هذه الوظيفة تحت اسم « الحارس » أو « حارس الدرب » [٤] .

---

(١) المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٩٦ .
(٢) نفسه : ص ٢٢ .
(٣) نفسه : ص ١٠٣ ، السلوك ، ج١ ق٣ ، ص ٦٧٣ .
(٤) السبكى : المصدر السابق ، ص ١٤٥ ، ولمزيد من التفاصيل ، على السيد على : القاهرة فى عيون الرحالة الأوربيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر (القاهرة ، مجلة فكر ، العدد ١٣ ، ١٩٨٨م) ص ٨٦ . ٨٩ .

وقد سبقت الإشارة إلى أن طبيعة البناء الطبقى فى هذا العصر جعلت من الطبقة العسكرية مجتمعاً خاصاً ذا سمات اجتماعية تتعارض مع السمات الاجتماعية لفئات عامة القاهرة ، وأن الثراء والجاه اللذين حظيا بهما بعض "بياض العامة" من التجار والعلماء لم يعزلهم عن الاتجاه الاجتماعى العام للمجتمع القاهرى إذ أن الحارة القاهرية كانت تضم بين جوانبها مختلف الشرائح الاجتماعية من الأغنياء والفقراء ، والعلماء والبسطاء على سواء وهو ما يعنى وحده العادات والتقاليد اليومية والموسمية بين أنماط العامة .

يدل على هذا أن أهل العمامة وهم من بياض العامة كانوا ينزلون الأسواق ويقفون وسط الزحام ويتفاعلون مع الباعة وأعراف السوق وإن كان هذا لم يمنع سواد العامة من إفساح الطريق لهم وتقديمهم على أنفسهم فى البيع والشراء احتراماً لهم وتقديراً لمكانتهم فى المجتمع [١] . إذ أن العلاقة بين فئات العامة كانت تستند إلى مجموعة من الأعراف والتقاليد والقيم الدينية التى تجعلهم يعيشون معاً فى سلام ومحبة ووئام باعتبارهم جميعاً نسيج اجتماعى واحد . وهو ما لم يتحقق فى إطار العلاقة بين المماليك وعامة القاهرة والتى قامت على العزلة الاجتماعية والتمايز الطبقى . إذ لم يحاول المماليك الاختلاط بالعامة أو التزوج منهم أو مشاركتهم فى أفراحهم وأحزانهم وعاداتهم وتقاليدهم بل على العكس تعاملوا معهم بنوع من التعالى متناسين بذلك أن أصولهم التاريخية مجهولة الهوية وأن كيانهم الاجتماعى الجديد هو من لحم ودم أبناء المجتمع المصرى [٢] .

وتبدو صور الحياة الاجتماعية للمصرين فى مدينة القاهرة عصر سلاطين المماليك فى ضوء ما أشارت إليه المصادر المعاصرة فى معرض ذكرها لأسواق

---

[١] سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٣١ .

[٢] لمزيد من التفاصيل ، قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى « المدخل » .

القاهرة ، وجوامعها ، ومساجدها ، ومدارسها ، وحماماتها ، وأسبلتها ، وخوانقها ، ومقابرها ، وأضرحتها ، وسجونها ، وغيرها من الأماكن التى شهدت مظاهر الحياة العامة والخاصة لعامة القاهرة .

ويعتبر السوق فى القاهرة النموذج الأمثل لمشاهدة حركة الحياة والتفاعلات الاجتماعية بين جموع الناس على اختلاف أشكالهم وطوائفهم ودياناتهم ، وكانت حركة الناس من الباعة والسوقة والزبائن تستمر طوال اليوم بسبب تنوع البضائع وكثرتها ، ووفرة السلع وتفرقها بين الأسواق المختلفة لانفراد كل سوق بنوع خاص من المنتجات مما كان يترتب عليه أن يظل المشترى فترة طويلة متنقلا بين الحوانيت للحصول على مراده « لكثرة ذلك عند التجار » [١] .

وكان صغر مساحة السوق بالنسبة لكثرة جمهور الباعة والزبائن يؤدى إلى نوع من الازدحام والاختناقات المرورية وهو ما أشار إليه أحد المؤرخين بقوله :

« كان الإنسان لا يستطيع أن يمر فيه من ازدحام الناس ليلا ونهارا إلا بمشقة وكان فيه قبانى يرسم وزن الأمتعة والمال والبضائع لا يتفرغ من الوزن ولا يزال مشغولا به ومعه من يستحثه ليزن له » [٢] .

ويصف أعظم أسواق مصر « القصبة » بقوله :

« وسمعت غير واحد من المعمرين يقول إن القصبة تحتوى على اثنى عشر ألف حانوت ، وقد أدركت هذه المسافة (من الحسينية إلى المشهد النفيسى) عامرة الحوانيت خاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة تبهج رؤيتها ويعجب الناظر هيئتها ويعجز الناظر العاد عن إحصاء ما فيها من الأنواع فضلا عن إحصاء ما فيها من الأشخاص » [٣] .

---

[١] المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٩٥ .
[٢] نفسه ص ٩٦ .
[٣] نفسه : ص ٩٥ .

وكانت نساء العامة تمثلن غالبية رواد الأسواق فى بعض المناسبات والأعياد التى يحتفل بها عامة القاهرة مثل : « النصف من شعبان » و « عاشوراء » و « رمضان » و « عيد الغطاس » و « خميس العهد » لشراء ما يلزم الأسر المصرية من السلع الغذائية والكسائية والترفيهية . وكان من عادة هؤلاء النساء أن يساومن الباعة ويمازحهن جلبا لأفضل السلع والأسعار . وهو ما يراه الباحثين الأجانب نوعا من اللغو لا طائل من ورائه ، وإضاعة للوقت والجهد [١] .

ومن استقراء المصادر المعاصرة نلاحظ أن ظاهرة خروج النساء إلى الأسواق قد أثارت حفيظة المعاصرين من العلماء والفقهاء وخاصة أن النساء كن يخرجن متبرجات وقد خلعن جلباب الحياء ، وبالتالى فإن منعهن من الخروج والمشى فى الأسواق يصبح واجبا شرعيا على أولى الأمر [٢] .

وكثيرا ما صدرت المراسيم التى تمنع النساء من التردد على الأسواق وغيرها من الأماكن لقضاء حاجاتهم باستثناء العجائز منهن . وهو ما نراه فى إطار الإجراءات الاستثنائية عند وقوع أزمات اقتصادية (مجاعة ـ وباء) لا يعول عليها فى تصوير واقع الحياة اليومية للمرأة المصرية فى هذا العصر . بل على العكس فإن عامة نساء القاهرة تمتعن بقسط وافر من حرية الحركة فى اتجاه الأسواق لشراء حاجتهن خاصة أن الرجال فى هذا العصر كانوا مشغولين بأعمالهم الحرفية والصناعية الشاقة فى غالب الأحيان .

---

(١) المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٩٥ ، ١٠٠ ، ابن الحاج : المدخل ، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٩ .

Lane Poole, Social life, P. 4,7.

(٢) ابن الحاج : المصدر السابق ، ص ٢٣٧ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج١٥ ، ص ٩٣ ، ابن إياس : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٨٢ ، قاسم عبده قاسم ، ص ٤١ .

ومما يدل على كثرة خروج النساء فى هذا العصر كثرة المراسيم التى تمنع خروج المرأة فى أوقات معينة ، وكثرة إشارات الاستهجان من جانب المعاصرين لهذه الظاهرة الملفتة للنظر وهى : « زحمة النساء » فى الأسواق وجلوسهن على أبواب « الحوانيت » [١] .

ومما يذكر أن أحد أسواق القاهرة « سوق الشماعين » كان مركزاً لتجمع عدد من النساء الداعرات يقال لهن « الزعيرات » « لهن سيما يعرفن بها وزى يتميزن به وهو لبس الملاءات الطرح وفى أرجلهن سراويل من أديم أحمر وكن يعانين الزعارة ويقفن مع الرجال المشالقين فى وقت لعبهم وفيهن من تحمل الحديد معها » [٢] .

كذلك يذكر لنا المعاصرون أن المرأة القاهرية كانت تحرص على إلزام زوجها بشراء أصناف الحلوى من « سوق الحلاويين » فى مناسبات معينة مثل عيد الفطر الذى كانت « تروق » رؤية هذا السوق فيه « لكثرة ما يوضع فيه من حب الخشكنانج وقطع البندود والمشاش ويشرع فى عمل ذلك من نصف شهر رمضان فتملأ منه أسواق القاهرة » [٣] وربما أدى الأمر إلى حدوث مشاجرات بين الأزواج بسبب مبالغة النساء فى مطالبهن فى إطار عوائد الترف وحب التظاهر أمام الأخريات منهن ، بل إن المرأة كانت تهتم بشراء أنواع معينة من الحلوى وأصناف الفواكه كالهريسة والزلابية ، والبلح والخوخ وغير ذلك « مما تلزمه النساء لأزواجهن » [٤] .

---

[١] ابن الأخوة : المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .

Lane poole, Op. Cit. PP. 17,18.

[٢] المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٩٦ .

[٣] نفسه : ص ١٠٠ .

[٤] ابن الحاج : المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .

وتكشف لنا كتب الأدب الشعبى عن كثرة الخلافات الزوجية بسبب مطالب المرأة وتبرمها من عدم استجابة الرجل لها حتى أنه كان يهجر البيت إلى حيث لا يعلم هروبا من أعباء الحياة اليومية ومسئولياته الزوجية (١) .

ويبدو أن الرجال كانوا يفضلون الابتعاد عن نسائهم لفترة من الوقت على طلاقهن لما يترتب على هذا الطلاق من حقوق مادية للمطلقات لا يقوى عليها الرجال ويكون الانتحار أحيانا أفضل وسيلة للتخلص من هذه الأعباء مثلما حدث في سنة ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م عندما قرر أحد العامة التخلص من حياته لشكوى مطلقته له عند القاضى (٢) .

ولم يكن من عادة الناس فى ذلك العصر أن يعدوا الطعام فى منازلهم ، لذا فقد انتشرت آلاف المطاعم وباعة الوجبات الجاهزة فى القاهرة حيث كان معظم الناس يتناولون الطعام من الباعة الجائلين أو الذين يفترشون الأرض ومعهم المواقد المشتعلة اللازمة لتسخين الطعام . أما بعض الناس فكانوا يرسلون ما يريدون طهيه من الأطعمة لحوانيت « الشرانحيين » أو « الشرايحية » لطهيها بعد خلطها بالتوابل وغيرها ثم يرسلونها مع صبيانهم إلى المنازل فى قدور مغطاة وذلك مقابل أجر معين يأخذونه من الزبائن (٣) .

ولم يتوقف دور الأسواق فى هذا العصر على أعمال البيع والشراء بل امتد ليكون مركزاً إعلامياً لنشر الأخبار وإذاعة المراسيم الحكومية بين فئات العامة ، ومن ثم فإنه يمكن القول أن السوق كان مؤسسة اقتصادية وسياسية واجتماعية تزخر بالنداءات والمناقشات والمساومات والمشاحنات بين أنماط بشرية متباينة ، إذ كانت الحوانيت بؤرة تجمع للمعارف والأصدقاء ، والزملاء لعرض الحكايات والطرائف والنوادر (٤) .

---

(١) ألف ليلة وليلة : ج٣ ، ص ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ج٦ ، ص ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ .
(٢) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٨٣ .
(٣) قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ، ص ٤٤ .
(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، ص ٨٧ ، قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

وقد اعتنت الدولة بتنظيم حركة المرور فى الأسواق ، ومراقبة التزام أصحاب الحوانيت بأعمال الإنشاءات لإصلاح الطريق أمامها وكذلك أعمال النظافة والإضاءة ، وخصصت جماعة من البطالين أطلقت عليهم المصادر لسم « المستصنعة » أو « المستصنعين » لمعاونة الوالى على ما يريد من وسائل المراقبة والإشراف على هذه الأسواق [1] .

إلا أن هذا الاهتمام بتنظيم حركة الأسواق ما لبث أن هبط مستواه تدريجيا فى النصف الثانى من هذا العصر لتناقص الكثافة البشرية من الباعة والزبائن بعد أن « تعطل أكثر ما تشتمل عليه من الحوانيت » [2] ، وفقدت وظيفة « الحسبة » [3] هيبتها مثل غيرها من الوظائف المنوط بها صيانة حقوق الرعية .

ومما يدل على حجم التدهور الذى أصاب الحياة الاجتماعية لعامة القاهرة فى أواخر سلاطين المماليك أن أحد السلاطين كان يمر بنفسه فى الشوارع والأسواق بعد العشاء ويقوم بتوقيع العقوبات البدنية القاسية على بعض العامة ، وإذا مر بحانوت ولم ير عليه قنديلا يسمر المكان .

« وكان يعاونه فى ذلك عدد من العبيد السود ومعهم مكاحل نفط » [4] .

ورغم أن ممارسات بعض السلاطين فى أواخر العصر كان تتسم بالخفة والطيش ، والإساءة إلى « حرمة المملكة » فإن مثل هذه الممارسات الأمنية كانت ضرورية لحفظ الأمن وتضييق الخناق على أرباب الجرائم والمجون والعبث فى الأسواق والحارات والطرقات وكافة أنحاء القاهرة .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٥٧ ، ٥٨ ، المقريزى : السلوك ، ج٢ ق١ ص ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، ج٣ ، ص ٢٣٦ .

(٢) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٩٥ .

(٣) عن الموضوع : سهام مصطفى : الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى نهاية العصر المملوكى (القاهرة ، ١٩٨٦) .

(٤) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ .

« ... ، وكانت المناسر قد كثرت فى تلك الأيام جداً » [١] ويبدو أن هؤلاء اللصوص كانوا يهاجمون الأسواق فى نطاق من السرية ومسلحين بالقسى والنشاب [٢] ، وكان الولاة يأمنون جانبهم خوفاً منهم وربما تعاونوا معهم بغض الطرف عما يرتكبونه من جرائم حتى « أمن السراق » على قول أحد المعاصرين [٣]

وتشير أحداث سنوات ٨٢٠ هـ ، ٩٠١ هـ ، ٩٠٢ هـ إلى أن اللصوص « المناسر » كان يسطون على الحوانيت بعد كسرها ويأخذون ما فيها من البضائع وبخاصة « القماش » ودون أن تتدخل وسائل الأمن أو تحرك ساكنا .

« وفيه هجم المسر على سوق باب اللوق وأخذوا أموال التجار وفتحوا عدة من الدكاكين ، وفعلوا مثل ذلك بسوق الربع ، وكسروا منه عدة دكاكين وأخذوا ما فيها ولم تنتطح فى ذلك شاتان » [٤] .

وكانت أحداث الناس فى « الحمامات » العامة تجد اهتماماً فى الحياة اليومية لما تحويه من أخبار طريفة ومسلية عما يدور فى هذه الأماكن من مظاهر التنافس بين النساء فى إظهار مفاتنهن الجسدية وما يتمتعن به من جمال وجاذبية ، فضلا عن التباهى بما لديهن من الحلى والمصاغ والملابس الفاخرة [٥] .

وثمة قصة ما زالت شائعة حتى الآن على ألسنة الناس حول حريق إحدى الحمامات النسائية وخروج النساء منها عاريات أو شبه عاريات إلا أن بعضهن استحيين الخروج على تلك الهيئة الفاضحة ، فلقين حتفهن فى الحمام وقيل بين العامة « إلى اختشوا ماتوا » من هؤلاء النساء .

---

[١] نفسه : ص ٣٨٧ .
[٢] نفسه : ص ٢١٩ ، ٤٣٤ .
[٣] ابن الصيرفى : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٣٦ .
[٤] المقريزى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤٣٠ ، ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٣١٩ ، ٣٥٢ .
[٥] ألف ليلة ولية : ج٦ ، ص ١٢٩١ ، أحمد عبد الرازق : المرأة ، ص ٣٤ .
Iane, W.E, : Modern Egyptians, PP 35-44.

ولم يتوان القاص الشعبى فى إمدادنا بمعلومات عن مجتمع عامة القاهرة فى الحمامات ومدى ما كان يصل إلى أسماع الرجال عن النساء من أمور تثير فيهم الشهوة والرغبة فى الزواج حتى أن المرأة كانت تخشى على نفسها عند سماع زوجها لتلك الأخبار عن الفتيات الحسان اللاتى يترددن على الحمامات مخافة أن يشرع فى الزواج عليها أو تجول بخاطره صورة امرأة أخرى [١] .

بل أن كثيرا من الزيجات كانت تتم عن طريق لأخبار الحمامات إذ تتوجه « الخاطبة » إلى إحدى الحمامات لرؤية مفاتن إحدى الفتيات أو النساء ثم إبلاغها بعد ذلك لمن يرغب فى الاقتران بها من الرجال .

وفى نفس الوقت كان الرجال يذهبون إلى الحمامات للتزين والانتعاش خاصة فى ليلة الزفاف أو فى المناسبات السعيدة ليكون محل إعجاب زوجته إن هو أثبت فحولته وقدرته على « أخذ وجهها لتحمل منه فى الوقت والساعة » [٢] .

وكانت المؤسسات الدينية كالجوامع والمساجد والمدارس والزوايا والخوانق تموج بأعداد غفيرة من جمهور العامة الباحثين عن العلم والفقه وعبادة الله فضلا عن غير ذلك من الأغراض المعيشية كالسكنى والراحة وتناول الطعام وتلقى الصدقات من أهل البر والرحمة .

ومع تحفظنا على بعض الروايات التى ذكرها ابن الحاج فى شأن خروج نساء العامة متبرجات لزيارة المساجد طلباً للبركة والثواب وهو ما اعتبره هذا الفقيه المغربى « قلة أدب » [٣] وعدم حشمة من المرأة المصرية ، فإننا نرى أن الأسرة المصرية فى القاهرة ـ بوجه عام ـ كان يلتزم أفرادها بما تفرضه عليهم التعاليم الإسلامية السمحاء من مظاهر الأدب والاحتشام باستثناء بعض الحالات الفردية لأبناء المجتمع الذين تشبهوا بالمماليك والأجانب فى بعض عوائدهم الاجتماعية فى الأزياء

---

[١] ألف ليلة وليلة : ج٦ ، ص ١٢٩٢ .

[٢] سيرة الظاهر بيبرس : ج٩ ، ص ٥٠٢ .

[٣] ابن الحاج : المدخل ، ص ٢٦٣ .

والزينة وعوائد الترف والتى بلغت حد مجاراة هؤلاء فى تناول الخمور ، ومزاولة الرقص ، وعدم مراعاة آداب الجلوس فى الأماكن الدينية وغيرها من الأمور التى نراها فى معرض التخصيص لا العموم [١] .

وقد شهدت المدارس فى هذا العصر توافد الآلاف من طلاب العلم مما « ملأ الأخطاط » [٢] ، وكان الطلاب يتمتعون بحرية لختيار المواد الدراسية والانتساب إلى مدرسين معينين يجتمعون حولهم للاستماع إلى محاضراتهم ويظل الطالب يدرس على يد أحد الشيوخ فإذا نال منه كفايته انتقل إلى شيخ آخر وهكذا وربما طاف أنحاء المدارس فى مصر والعالم الإسلامى من أجل هذا الغرض .

وقد قامت العلاقة بين الفقهاء والطلاب على أساس من العطف والاحترام كما بين الأب وابنه على قول أحد المعاصرين أخذا بالحديث الشريف « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغارنا ويعرف لعالمنا حقه » . وبعد إنهاء الطالب دراسته فى أحد العلوم التى تخصص فيها تكتب له وثيقة « إجازة » [٣] علمية تحتوى على اسم الدارس ، وشيخه ، ومذهبه وتاريخ حصوله على الإجازة وتتوقف قيمة هذه الإجازة على سمعة الشيخ الذى صدرت عنه ومكانته العلمية .

ومن مظاهر الاحتفال التى ارتبطت بالنشاط العلمى لعامة القاهرة فى هذا العصر أن الناس كانوا يجتمعون عند افتتاح إحدى دور العلم والتى اعتاد السلطان يحضرها ومعه الأمراء والقضاة والفقهاء والأعيان ، وبعد الافتتاح يمد سماط فيه سائر أصناف الطعام من اللحوم والفاكهة والحلوى كما يقدم للمدعوين شراب السكر والليمون . وغير ذلك من أشكال الضيافة المصرية .

---

[١] سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، ص ٣٥ .

[٢] القلقشندى : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٣٦٧ (وقد بلغ عدد المدارس ٧٠ مدرسة) ، على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج١ ، ص ٨٧ .

[٣] القلقشندى : المصدر السابق ، ج١١ ، ص ٢٤٧ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ص ١٤٥ .

وفى هذه المناسبة الكريمة يخلع السلطان على كل من أسهم فى بناء المدرسة من المعلمين والبنائين وغيرهم ، وكان الطلاب فى المدارس يحتفلون من وقت لآخر بمناسبات معينة مثل « ختم البخارى » أو الفراغ من تصنيف كتاب وفيها يقوم الداعى للحفل بإحضار الحلوى والتفاح والفاكهة والمخبوز ، والبخور ويجلس أهل المدرسة من الشيوخ والطلاب ومعهم الأعيان والقضاة وغيرهم وربما تكلفت المناسبة خمسمائة دينار (١) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الدولة لم تكن تتدخل فى النشاط العلمى أو فى مجال البحث العلمى فى هذه المدارس وكان دورها مقصوراً فقط على بناء المدارس والمكاتب « الكتاتيب » والمساجد مدفوعة إلى ذلك بعدة عوامل منها إظهار التقوى والزلفى إلى الله ، وكسب ولاء مشايخ العلم وطلابه ، وتدعيم مركزهم فى نفوس الرعية فضلا عن دور هذه المعاهد العلمية « السنية » فى التصدى لآثار الفكر الشيعى فى مصر (٢) خاصة أن سواد العامة كانوا مرتبطين عاطفيا بأسماء الصالحين من آل البيت كالإمام الحسين ، والسيدة زينب ، والسيدة نفيسة وغيرهم ممن لازالت علاقتهم الدينية تؤثر فى نفوس عامة المصريين حتى يومنا هذا (٣) .

وكانت « الأسبلة » الملحقة بالمساجد فى مختلف أنحاء القاهرة قاصرة على الأهالى من عامة القاهرة يلتقون حولها لإرواء عطشهم فى أوقات الحر ويتوضئون فيها ليهيئوا أنفسهم لأداء الصلوات ، بينما كانت الأماكن الأخرى كالوكالات والفنادق والخانات يلحق بها أسبلة لتلبية حاجات العابرين والمقيمين من التجار الأجانب أو التجار الوافدين من خارج القاهرة فى أنحاء مصر .

---

(١) ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٣٨١ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٠ ، ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٣٤ ، سيرة الظاهر بيبرس : ج٣ ، ص ٢٠٦ ، ج٤ ، ص ٢٣٦ ، ج٩ ، ص ٤٩٤ .

ويبدو أن الأسبلة كانت أشبه بأماكن الراحة والتسرية بالنسبة لعامة المصريين حيث يجدون فيها بجانب الشرب لهم وما يصحبون من الدواب ـ نوعا من الارتباط الوجدانى بينهم وبين صاحب السبيل الذى أوقفه لخدمة الناس « صدقة جارية » (١) وهو ما تشير إليه بعض العبارات المنقوشة على جدار السبيل بطلب الرحمة والمغفرة لروح فلان وأن يتقبل الله هذا المعروف وربما كانت هناك شخص يتصف بالود والسماحة يقف بجوار السبيل يدعو الناس إلى ارتواء ظمأهم بنداء قصير : « سبيل الله يا عطشان » (٢) .

ومما يذكر أن الأسبلة الملحقة بالمساجد فى مختلف أنحاء القاهرة كانت تقوم بتحفيظ القرآن وتعليم القراءة والحساب لأيتام العامة . وقد جرت العادة أن يلحق السبيل بأحد المساجد أو المدارس تبركاً وتيمناً بالمكان ويكون فى أعلاه "الكتاب" ثم ما يلبث أن ينفصل عنها ليصبح وحدة معمارية مستقلة (٣) .

وفى القاهرة انتشرت الخوانق والربط والزوايا التى اهتم سلاطين المماليك ببنائها لتكون ملجأ لكثيرين من العامة الذين آثروا حياة الكسل والعيش على جهد الآخرين ، بدلاً من العمل والسعى فى الحياة الدنيا مصداقاً لقوله تعالى :

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » (٤) كما أنهم ارتضوا فى سبيل ذلك أن يكونوا أداة للسلطة فى تغييب وعى العامة وإلهائها عن أخطاء الحكام ومظالمهم فى حق العباد .

ومن الغريب أن المصادر المعاصرة أطلقت على هؤلاء الناس اسم «الصوفية» الذين ارتبط وجودهم فى المجتمع بكل مظاهر الانحراف فى العقيدة والأخلاق وفى هذا

---

(١) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، ص ١٥١ .

(٢) Lane, W.E, OP. Cit. P. 18.

(٣) أحمد عبد الرازق : الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، ص ٢٠٠ ، ص ٢٠١ .

(٤) سورة التوبة : الآية ١٠٥ .

يقول أحد الباحثين : « وقد وصل بها الأمر إلى تحريف جوانب جوهرية فى الإسلام ومن ذلك قيام البعض بقراءة ما يزعم أنه قرآن كريم » [١] .

ويقول المقريزى : « ثم تلاشى الآن حال الصوفية ومشايخها حتى صاروا من سقط المتاع لا ينسبون إلى علم ولا ديانة وإلى الله المشتكى » ، ويضيف قائلا : « وأخبرنى الشيخ أحمد بن على القصار رحمه الله أنه أدرك الناس فى يوم الجمعة يأتون من مصر إلى القاهرة ليشاهدوا صوفية خانقاه سعيد السعداء عندما يتوجهون منها إلى صلاة الجمعة بالجامع الحاكمى لكى تحصل لهم البركة والخير بمشاهدتهم » [٢] .

والواقع أن هؤلاء الأدعياء صاروا ظاهرة اجتماعية لا دينية فى أواخر العصر إذ اتخذوا من التصوف « الدروشة » أداة للكسب ووسيلة لاتقاء المظالم وطريقا إلى المجد الموهوم والسمعة الطيبة بين أهل الغفلة من الناس . وهو ما يتعارض شكلاً وموضوعاً مع مفاهيم التصوف الإسلامى [٣] .

وفى تصورنا أن اتساع رقعة الاعتقاد فى أقطاب الدراويش أو ما يطلق عليهم « الأولياء » فى عصر سلاطين المماليك ـ كان مرتبطا إلى حد كبير بتدهور الأوضاع الاجتماعية للسواد الأعظم من العامة وشيوع الفقر والعوز بين كثير منهم ، وتفشى الجهل وكثرة الأوبئة والمجاعات ، وبوار كثير من الحرف والصناعات وانتشار الفتن والاضطرابات بسبب ثورات الجند ، وانعدام الأمن فى الأماكن العامة وغير ذلك من الأسباب التى دفعت أعداد غفيرة من العامة إلى التوسل بالأولياء والمشايخ بل والإيمان فى « كرامتهم وأحوالهم المشهورة » وأنهم على كل شئ قادرون [٤] .

---

[١] أحمد أمين : قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، ص ١٢١ .
[٢] المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٤١٤ ، ٤١٥ .
[٣] زكى مبارك : التصوف الإسلامى (القاهرة ١٩٥٤م) ، ج٢ ، ص ٣٩ ، توفيق الطويل : التصوف فى مصر (القاهرة ، ١٩٨٨م) ج١ ، ص ٤٥ ، ج٢ ص٩ .
[٤] ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٢ ، ص ٤٤ .

ومما يذكر أن أهل الدولة كانوا يشاركون عامة القاهرة فى مثل هذه المعتقدات الباطلة يساعدهم على ذلك المتصوفة من سكان الخوانق والربط والزوايا الذين اعتمدت عليهم الدولة فى نشر روح السلبية والتواكلية بين العامة والتصدى إلى العلماء والفقهاء من ذوى الفكر المستنير [١] .

واستتبع اعتقاد العامة فى الأولياء من ذوى الكرامات إقامة ما يسمى بالمولد فى أوقات معينة يأتى إليها الناس من كل فج عميق ليطوفوا حول مشاهد الأولياء ويتبركوا بهم ويدعونهم وهو ما أشارت إليه كتب الرحالة الذين زاروا القاهرة وشاهدوا العامة وهم يتمسحون بالأضرحة ويأتون بحركات وأفعال « تذوب منها الأكباد » [٢] .

ففى سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٧م عمل الشيخ المعتقد إسماعيل بن يوسف الانبابى المولد على عادته فى زاوية بناصية « منبوبة » [٣] ... ، وحدد من الغد فى المزارع مائة وخمسون جرة فارغة من جرار الخمر التى شربت [٤] تلك الليلة فى الخيم سوى ما حكى عن الزنا واللياطة .

وفى يوم الثلاثاء ٣٥ ربيع الأول سنة ٨٢٦هـ / ١٤٢٢م « ثارت ريح مريبة طوال النهار ، وظهرت فى السماء صفرة كست الجو والجدران ثم أظلم الجو فاشتد فزع الناس ولهجت العامة بأن يوم القيامة تقوم ، ... ورأى أحد المعتقدين فى منامه من يقول له أن هذه الواقعة كانت ستهلك أهل مصر لولا شفاعة رسول الله » [٥] .

---

[١] ابن إياس : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٦٥ (أحداث ٩١٥ هـ) .

[٢] ابن جبير : المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ٢٤ ـ ٢٦ ، ولمزيد من التفاصيل : سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، ٢٣٤ .

[٣] إنبابة : إمبابة من أحياء محافظة الجيزة بالقاهرة (المقريزى : السلوك ج٣ ق٢ ص ٥٧٦) .

[٤] المقريزى : المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

[٥] ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٤ ، ص ٢٥٢ .

وفى عهد السلطان الظاهر حقمق (ت ٨٥٧هـ) شاع بين عامة القاهرة أن السلطان سوف يموت فى وقت معلوم تنبأ به أحد المشايخ وهو المعتقد محمد السفارى المقيم بجامع عمرو بن العاص « وكثر تخبيط العوام فى ذلك » وازدحمت العامة على باب الشيخ المذكور لسماعه . وكان سبب هذه النبوءة أن المعتقد أراد أن يكيد للسلطان جقمق لكونه ضرب فقراءه [١] .

ومما يذكر أن سلاطين المماليك حرصوا إلى حد كبير على تأكيد هذه المعتقدات فى نفوس العامة حتى صارت هذه الأمور من السنن المؤكدة بين جمهور العامة وغير قابلة للجدل أو المناقشة ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن أياس فى سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م أن فتاة صغيرة زعمت أنها رأت النبى عدة مرات وظهرت لها كرامات خارقة منها أنها تشفى الأعمى وتبرئ الأبكم ، فآمن بأحوالها العامة ورجال الدولة من الأمراء المماليك والأعيان [٢] .

وإذا كنا نحن ــ فى بداية القرن الخامس عشر الهجرى / ٢١م ــ نقرأ ونسمع ونشاهد هؤلاء الذين يدّعون أن لهم « كرامات » وقدرات خاصة تصل إلى حد مقاسمة الخالق الأعظم فى عمله « وهو بكل شئ عليم » وقدرته : « وهو على كل شئ قدير » ، فلماذا نندهش عندما نقرأ فى المصادر المملوكية أن واحداً مثل السيد أحمد البدوى يحيى الموتى ويشفى المرضى أو أن آخر مثل أبو العباس المرسى يعلم الغيب ويرى ما يحدث فى « الهند » وهو جالس فى بيته « بمصر » وغير ذلك من الروايات التى يتناقلها العامة فى كل زمان ومكان وتأتى ــ غالبا ــ على هوى الحكام لما تحققه لهم من تغييب وعى المحكومين عن الواقع السيئ لممارستهم تجاه شعوبهم طمعاً فى مزيد من السلطة ومزيد من الثروة .

ولعل أسوأ العادات التى ما تزال قائمة حتى الآن فى مصر كانت إفرازا للتفاعلات الاجتماعية فى أغوار طوائف الدراويش الذين نسبوا أنفسهم إلى

---

(١) ابن تغرى بردى : منخبات من حوادث الدهور ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٢) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٦٥ .

« الصوفية » بهتاناً وزوراً [١] فانتشار عادة تعاطى المخدرات [٢] بين العامـــة روج لها « الفقراء » فى بداية عصر سلاطين المماليك بزعم أنها تزيل همـــوم الإنســان وتدخل فى قلبه « السرور والفرح » بل أن هناك من أفتى بـــأن تعــاطى الحشــيش « حلال » . وفى هذا المعنى يقول المقريزى نقلاً عن كتاب : « السوانح الأدبية فـــى مدائح القنبية » :

« هذا نبات (الحشيش) يعرف بالقنب فأمرنا أن نأخذ من ورقة ونأكله ففعلنـــا ثم عدنا إلى الزاوية فوجدنا فى قلوبنا من السرور والفرح ما عجزنا عن كتمانه فلمــا رآنا الشيخ على الحالة وصفنا أمرنا بصيانة هذا العقار وأخذ علينا الأيمان أن لا نعلم به أحداً من عوام الناس وأوصانا أن لا نخفيه عن الفقراء . وقال إن الله تعـــالى قــد خصكم بسر هذا الورق ليذهب بأكله همومكم الكثيفة ويجلو بفعله أفكــاركم الشــريفة فراقبوه فيما أودعكم وراعوه فيما استرعاكم » [٣] .

وقد أشارت المصادر المعاصرة إلى دور المعتقدات فى الحياة الاجتماعية لعامــة القاهرة ومدى رعاية السلاطين والأمراء للموالد والاحتفالات الدينية والإغداق علـــى أقطاب الدراويش « أصحاب الكرامات » فى الحياة الدنيا ، وتخليد ذكراهم بعد مماتهم وانتقالهم إلى الحياة الأخرى .

ولعل احتفال العامة فى القاهرة بمولد الإمام الحسين وغيره من آل البيت كـــان ــ ولم يزل ــ علامة مميزة فى الحياة الاجتماعية لعامة المصريين فى القاهرة وكافــة

---

[١] عن الموضوع : عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول (القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٤٧م) والكتاب محاولة جادة وقيمـــة مــن المؤلــف لتصحيح المفاهيم الخاطئة لدى العامة عن « الصوفية » كاتجاه عقلى يسمو بالإنسان ويرقى به فى حياته الاجتماعية .

[٢] المخدرات : كل ما يزيل العقل من غير الأشربة وينطبق عليها شرعاً ما ينطبق علـــى الخمــر بأنواعها (سيد سابق : فقه السنة ، ج٩ ، ص ٨٨) .

[٣] المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٢٦ ، سهام مصطفى : الحسبة فى مصر الإسـلامية ، ص ١٩٦ .

أقاليم مصر . ويعد مولد السيد أحمد البدوى (٥٩٦ ــ ٦٧٥هـ) من أشهر الموالد التى كان يحتفل بها العامة فى عصر سلاطين المماليك إذا علمنا أن هذا « القطب » عاصر بداية حكم المماليك فى مصر ، وكان مقرباً من السلطان الظاهر بيبرس ــ مؤسس الدولة ــ الذى أظهر للسيد البدوى احترامه وتقديره لكى يكسب به تأييد العامة والرأى العام لكل المصريين [1] بحيث أننا لم نقرأ فى المصادر أن أحداً من أقطاب الدراويش فى مصر لختلف مع السلاطين المماليك فى اتجاهاتهم السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية على غرار بعض العلماء والقضاة والفقهاء الذين كانت لهم رؤية خلافية مع هؤلاء السلاطين فى إطار فهمهم الصحيح لأمور الشرع .

وجدير بالذكر أن اهتمام سلاطين المماليك برعاية هذه الفئة الاجتماعية جاء امتداداً للسياسة التى انتهجها الأيوبيون فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى بغرض تقريب وجهات النظر بين أهل السنة وأهل الشيعة ولذلك أنشئت خانقاه سعيد السعداء « الخانقاه الصلاحية » فى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م لهذا الغرض الذى يقول فيه المقريزى : « فلما استبد الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد وغير رسوم الدولة الفاطمية ووضع من قصر الخلافة وأسكن فيه أمراء دولته الأكراد عمل [2] هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم » لكى تنتشر «الدروشة» بين مختلف أفراد المجتمع المصرى على اختلاف مذاهبهم الفقيهة .

وقد أشارت المصادر المعاصرة إلى دور الدولة فى نشر مثل هذه العادة السيئة بين العامة خاصة أن « أرباب المنكرات والفواحش » كانوا يدفعون « المكوس » [3] بانتظام لأرباب الجباية وفى نفس الوقت فإن التجار وباعة الحشيش والمسكرات

---

(١) لمزيد من التفاصيل : الشعرانى ذيل لواقح الأنوار ، ج١ ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : السيد البدوى ، ص ١٥٣ وما بعدها .

(٢) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٤١٥ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج٢ ق١ ، ص ١٥٢ ، ج٢ ق٢ ص ٣٧٢ ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٤٨ ، تاريخ ابن الفرات ، ج٩ ، ص٩ ، ابن الصيرفى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٤٥٣ .

يمثلون احتياطيا ماليا طارئا للدولة عندما يضيق بها الحال فيسعى الولاة والجباة إلى مهاجمة أماكن المخدرات ليلا ومصادرة ما فيها من « الأموال » ولم تكن حملات إراقة الخمور وحرق المخدرات فى مناسبات وأوقات معينة إلا نوعاً من المدارة السياسية لرغبة الحكومة فى مشاركة هؤلاء التجار فى مكاسبهم المالية الباهظة .

ولعل مدينة القاهرة كانت تموج فى مناسبات معينة بأعداد غفيرة من العامة الذين يخرجون إلى المتنزهات المنتشرة على ضفاف نهر النيل ومعهم أصناف الطعام والشراب مثل كان يحدث فى مناسبة « كسر الخليج » حيث يخرج عامة القاهرة لمشاهدة السلطان الذى يباشر هذه المهمة فى رهبة وخشوع ولم لا ؟ أليس النيل « سيد الأنهار » لعذوبة ماءه ولأنه كما يعتقد عامة الناس ينبع من « نهر فى الجنة » ؟ (١) .

ويصف المعاصرون هذا الاحتفال فى إطار من الدهشة والإبهار فيقول القلقشندى : « يوم مشهود ، وموسم معدود . ليس له نظير فى الدنيا وفيه تكتب البشارات إلى سائر أقطار المملكة وتسير به البرد » . ويقول المقريزى : « فركب السلطان إلى المقياس وخلق العمود ، ثم ركب فى الحراقة وكسر الخليج الكبير فكان يوماً مشهوداً » ويقول ابن ظهيرة : « وتخرج خلائق عظيمة للفرحة ، ... ، ولهم ما لا يكاد يوصف من المسرة » (٢) .

وكان العامة يرددون الأغانى والأهازيج وهم يسيرون على صفحة النيل فى المركب معبرين عن فرحتهم بهذه المناسبة الغالية والتى كان النيل هو السبب الرئيسى لها على قول أحد المعاصرين (٣) .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ، تحقيق محى الدين عبد الحميد (القاهرة ، د.ت) ج١ ، ص ٣٤٠ الأصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٤٠ ، المقريزى : الخطط ، ج١ ، ص ٤٩٠ .

(٢) القلقشندى : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٩٠ ، ج٤ ، ص ٤٧ ، ٤٨ ، المقريزى : السلوك : ج١ ق٣ ، ص ٦٨٠ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٣) DOPP. OP. Cit pp 20-21.

وكان الاحتفال بثبوت رؤية هلال رمضان من المناسبات التى تبتهج بها عامة القاهرة ويحرصون على المشاركة فيها بالشموع والمشاعل والفوانيس وغيرها .

ومن النوادر التى ذكرها أحد المعاصرين فى مثل هذه المناسبات أنه فى آخر يوم من شعبان سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م تعذرت رؤية هلال شهر رمضان واختلط الأمر على قاضى الشافعية مما ترتب عليه أن أفطر الناس فى اليوم المتمم لعدة هذا الشهر (شعبان) ثم نودى على العامة بالإمساك عن الطعام والشراب « فثار العوام على القاضى » [١] .

وقد جرت العادة أن ينادى فى القاهرة « صيام صيام . حكم من شيخ الإسلام » وذلك حتى يستطيع العامة ترتيب أمورهم والاستعداد لبداية صوم هذا الشهر الكريم حيث تُضاء الأماكن بالفوانيس وتوقد المواقد ويهنئ الناس بعضهم بعضاً بحلول هذه المناسبة الدينية ، وتمتلئ المساجد بالمصلين الذين يحرصون على أحياء هذا الشهر بتلاوة القرآن والصلاة ، وحضور حلقات الذكر [٢] .

ويبدو أن هذه الفريضة كانت لها أهمية خاصة بين سائر الفرائض الأخرى بدليل أننا نقرأ فى المصادر أن أحد العامة قبض عليه «وضرب الحد»[٣] لأنه أفطر فى رمضان ، أو أن السلطان أفرج عن بعض المسجونين مع حلول هذا الشهر ببركاته ونفحاته الإيمانية أو أجزل العطاء للفقراء والمحتاجين فى أنحاء القاهرة ولذا كان العامة ينتظرون هذا الشهر بشوق وحنين دون سواه من شهور العام « وكان السلطان فى هذا الشهر يتصدق على الأيتام ورسم لهم بكسوة على العيد » [٤] .

---

[١] ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ١٣٦ .

[٢] ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ٢٩ ، السخاوى : المصدر السابق ، ص ١٠٩ ، ٣٣٧ .

[٣] كان حد شرب الخمر « ثمانون جلدة » وهو يقاس على حد القذف (سيد سابق : فقه السنة : ج٦ ، ص ٨٩) .

[٤] ابن إياس : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

ومن الأعياد التى شارك فيه علمة القاهرة « عيد النيروز » [١] والذى يصفه أحد المعاصرين فى معرض الاستياء بقوله :

« وكان من عادات علمة النصارى فى هذا اليوم أن يأخذوا واحداً منهم ويلبسونه ثوباً أحمر أو أصفر ليشهروه بذلك ثم يجعلون على رأسه طرطوراً طويلاً ثم يركبونه على حمار دميم فى نفسه ويجعلون حوله الجريد الأخضر. وشماريخ البلح ويجعلون فى يده شيئا يشبه الدفتر كأنه يحاسب الناس على ما يريد أن يأخذه منهم من السحت والحرام . فيطوفون به أزقة البلد وشوارعها على الأبواب وفى الأسواق على الدكاكين والبيوت . فيأخذون منهم ما يأخذون على شبه الظلم والغضب والتعسف ومن أمتنع عن ذلك آذوه بصب الماء عليه . وربما كان فيه من التراب . فيهينونه بالضرب والكلام الفاحش المذموم شرعاً وإن رضيه على سبيل البسط والمزاح وربما أخرجوا صاحب البيت إن هو لم يدفع لهم ما يختارونه وأخرجوا حرمته وزادوا فى أذيته ويحتجون فى ذلك بالفيروز ويقولون ليس فيه حرج ولا أحكام تقع وأما المشالقون فأكثر قبحاً وشفاعة من ذلك مما لا يليق » [٢] .

ومع تحفظنا على التحامل الملحوظ فى هذه الرواية فإننا نرى أن مثل هذه المناسبات كانت لا تفرق بين « مسلم » و « مسيحى » وكان علمة القاهرة يحتفلون به دون أن تكون فى أذهانهم ما يجعلهم فى « حرج » من التعبير عن مشاعرهم الدفينة فى هذا اليوم ولعلى أذكر أننا فى طفولتنا وصبانا كنا نشارك المسيحيين فى أعيادهم ونمارس معهم العادات المتعارف عليها فى مثل هذه المناسبات كتناول أطعمة معينة أو جمع نباتات خضراء أو غير ذلك . بل إن أحد المؤرخين الذى اهتموا بتاريخ مصر الاجتماعى يذكر

---

[١] أول السنة القبطية « شهر توت » والكلمة فارسية يقصد بها الاعتدال الربيعى (المقريزى : الخطط ، ج١ ، ص ٢٢٦ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ق٢ ، ص ٣٦٣) .

[٢] ابن الحاج : المدخل ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ابن إياس : المصدر السابق ، ج١ ق٢ ، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٥ .

لنا فى كتابه : أن عامة القاهرة كـانوا يفرحـون إذ توافـق عيـد للمسـلمين مـع عيد للمسيحيين لتكون الفرحة فرحتيـن « والعيـد عيديـن » [١] .

ومما كان يحتفل به عامة القاهرة "عيد الشهيد" وهو مرتبط فى أذهان عامـة النصارى بزعم أن النيل لا يزيد كل سنة حتى يلقى النصارى فيه تابوتا فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى ويكون ذلك اليوم (الثامن من بشنس) عيداً تشد فيه الرحـال من جميع الأقاليم والقرى ، ويخرج عامة القاهرة على اختلاف طبقاتـهم وينصبـون الخيم على شواطئ النيل وجزائره ولا يبقى مغنى ولا مغنيـة ولا صـاحب لـهو أو ملعوب ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فاتك ولا فاسق إلا ويخـرج لـهذا العيد فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم وتصرف أموال لا تنحصر ويتجـاهر عناك بما لا يحتمل من المعاصى والفسوق وتثور فتن وتقتل أناس ويباع من الخمـر خاصة فى ذلك اليوم بما ينيف على مائة ألف درهم فضة وباع نصرانى فى يوم واحد باثنى عشر ألف درهم فضة من الخمر وكان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائما بناحيـة شبرا من ضواحى القاهرة .

ويشير المقريزى إلى هذا العيد توقفت مظاهره فى الفترة من سنة ٧٠٢هـ إلى سنة ٧٣٨هـ لصدور مرسوم سلطانى بذلك مما أثر سلبا على ما كان يتحصـل مـن « خراج شبرا » الذى كان معظمه يأتى من هذا النوع من الاحتفالات ، فأعيد الاحتفال به مرة أخرى ويصف المؤرخ ذلك بقوله : « وأشيع فى الأقاليم إعـادة عمـل عيـد الشهيد فلما كان اليوم الذى كانت العادة بعمله ركب الأمـراء النيـل فـى الشـخاتير (المراكب الصغيرة) بغير حراريق (المراكب الحربية) واجتمع الناس من كل جهـة وبرز أرباب الغناء وأصحاب اللهو والخلاعة فركبوا النيل وتجاهروا بما كانت عادتهم المجاهرة به من أنواع المفكرات وتوسع الأمراء فـى تنـوع الأطعمـة والحـلاوات وغيرها توسعا خرجوا فيه عن الحد فى الكثرة البالغة وعم الناس منهم ما لا يمكـن وصفه لكثرته » [٢] .

---

[١] ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٨٤٠ .

[٢] المقريزى : الخطط ، ج١ ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

وقد حدثنا المقريزى عن عادات عامة القاهرة فى بعض المناسبات الدينية من الخروج إلى الأسواق لشراء أصناف الحلوى التى كان لها سوق خاص بها فى القاهرة « يحير الناظر حسنها » « وكان السوق فى موسم شهر رجب من أحسن الأشياء منظرا فإنه كان يصنع فيه السكر أمثال خيول وسباع وقطط وغيرها تسمى العلاليق واحدها علاقة ترفع بخيوط على الحوانيت فمنها ما يزن عشرة أرطال إلى ربع رطل تشترى للأطفال فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله وأولاده ... وكذلك فى موسم نصف شعبان » .

وفى منتصف رمضان كان عامة القاهرة يملئون الأسواق لشراء ما يحتاجون إليه من ملابس وأطعمة ووسائل الترفيه للاحتفال بعيد الفطر واشتهر عند نساء العامة بالكعك والبسكويت والذى كان يوجد منه فى هذه المناسبة « ما يملأ منه أسواق القاهرة ومصر والأرياف » [١] .

وقد كانت من عادة الناس أن يختزنوا كميات كبيرة من « الكعك » على سبيل التباهى واستشعار أثر العيد فى نفوسهم ، كما كانوا يتهادون فيما بينهم بالحلوى وأطباق خاصة من الطعام ، وبصفة خاصة الأسماك بأنواعها مما كان يعرض البعض إلى نوع من التخمة أو الاضطرابات المعوية بسبب الإكثار فى الطعام بعد شهر الصوم وقد يحتاجون فى هذه المناسبة إلى بعض الأدوية والأشربة التى توصف لهم بمعرفة الأطباء [٢] .

ومن العادات التى ارتبطت بأول أيام عيد الفطر أو عيد الأضحى ، خروج العامة وأكثرهم من النساء والأطفال – إلى « القرافة » حيث تتحول المقابر إلى « مكان النزهة » يتناولون فيه الطعام ويسترجعون ذكريات الآباء والأجداد « وفيها يكثر اللعب والمزاح » [٣] .

---

[١] المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ١٠٠ .

[٢] ابن الحاج : المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

[٣] ابن الحاج : المصدر السابق ، ص ٢٣٧ ، المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج١ ، ص ٢١ .

DOPP: OP. Cit, PP. 34-35.

وفى يوم « المحمل » كان عامة القاهرة من الرجال والنساء والمشاة والركبان يجتمعون فى هذا اليوم المشهود ويطوفون أنحاء القاهرة فى موكب مهيب تهيج فيه العزمات ، وتنبعث فيه الأشواق ، وتتحرك فيه مشاعر الناس إلى البيت العتيق الذى بمكة مباركا [١] هدى ورحمة .

وقد وصف لنا أحد المعاصرين دوران المحمل الشريف بقوله : « يكون دوران المحمل الشريف المتوجه إلى بيت الله الحرام فى شهر رجب من كل عام بعد النداء بين يدى مصر والقاهرة ثلاثة أيام فيدور فى اليوم الرابع ومعه كسوة الكعبة المشرفة وكسوة لمقام إبراهيم وستر ضريح (قبر) النبى محمد صلى الله عليه وسلم وكل ذلك من الحرير المذهب المنمق النفيس ثم يمرون من باب القاهرة إلى الرميلة تحت القصر تجاه باب السلسلة لينظره السلطان وهو بالخرجة من القصر ومعه القضاة الأربعة ونوابهم وأعيان الدولة وسائر فرق الفقراء بأعلامهم وطبولهم فيقبل جملة الأرض للسلطان ثم يمضى إلى مصر العتيقة ثم يعود إلى القاهرة » [٢] .

وفى يوم « عاشوراء » الذى اعتبره أحد المعاصرين من المواسم الشرعية كان عامة القاهرة يذهبون إلى الأسواق لشراء الحبوب والبخور التى تمنع عنهم «العين» كما حرصت النساء على زيارة ضريح الحسين وقراءة الفاتحة وتقديم الصدقات والنذور احتفالا بهذه المناسبة أو زيارة جامع عمرو بن العاص « ويتمسحن بالمصاحف والمنبر والجدران وتحت اللوح الأخضر » [٣] .

وفى رأينا أن هذه الممارسات من جانب العامة والتى ذكرها المعاصرون فى معرض الاستنكار كانت نوعا من التنفيس الطبقى لعامة القاهرة فى إطار المفاهيم

---

[١] ابن بطوطة : الرحلة : ص ٣٨ .

[٢] ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ٢٠٠ .

[٣] ابن الحاج : المدخل ، ص ٢٤١ .

Lane Poole: Social life, PP. 36-37.

التى كانت تحكم هذا العصر ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بحقوق الرعية فى الاستمتاع بالحياة مثلما يستمتع بها السلاطين والأمراء الذين عزلوا أنفسهم ومن تبعهم من أرباب الوظائف العليا فى الدولة عن عامة الناس استكبارا من عند أنفسهم واستئثارا بعوائد الترف وملذات العيش .

فإذا كان العامة فى مثل هذه المناسبات يرفهون عن أنفسهم بممارسة أفعال سانجة كالتراش بالماء والتضارب بالجلود ، والتظاهر بمعاداة السلطة والتطاول على أكابر الناس [1] فإن هذا لا يمكن تفسيره فى إطار « الشرع » كما يحلو ذلك بعض المعاصرين من المؤرخين والعلماء بل على العكس فإن هذه الممارسات كانت تمثل نوعا من الاحتجاج على ظلم الولاة وتعسف الجباة وضياع حقوقهم الطبيعية فى الحياة الكريمة من جراء التمايز الحاد بين الطبقة الحاكمة والسواد الأعظم من أبناء الطبقة المحكومة .

أما فيما يتصل بما كان يفعله بعض العامة من عادات كشرب الخمر وتعاطى المخدرات ومشاهدة أرباب الملاهى من الراقصات والمشعوذين ، والمخايلين [2] فإن هذا كان يمثل جزءا من الممارسات الاجتماعية التى يشترك فيه « أكبر من فى القاهرة » مع الأوباش والسفلة .

فلم التحامل على الفئات السفلى من العامة ؟ حتى أن للحجاب والولاة كانوا يطاردون هؤلاء الناس فى « أماكن المفترجات » ويقبضون على جماعة منهم ، ويوقعون عليهم العقوبات القاسية كالضرب ، وقطع الأيدى وغير ذلك من وسائل العقاب فى هذا العصر ، [3] ولماذا لم يقوموا بمطاردة السفلة من غلمان المماليك فى مثل هذه الأماكن ؟

---

(١) ابن إياس : المصدر السابق ، ج١ ق٢ ، ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

(٢) Lane Poole: History of Egypt P. 251.

(٣) ابن إياس : المصدر السابق ، ج١ ق٢ ، ص ٣٦٥ .

أما عن مشاركة العامة فى الاحتفالات القومية فإن مظاهرهـا كـانت مرتبطـة ـ إلى حد كبير ـ بالاستقرار الاقتصادى والسياسى فى عهود بعض السلاطين أو عند عودة هذا الاستقرار فى أعقاب الفتن والصراعات .

ومن أمثلة ذلك فى سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م « فى حادى عشـر صفـر ركـب السلطان حسام الدين لاجين المنصورى « وكان محببا للناس » ـ إلى القاهرة التـى أخذت زخرفها وأزينت فى هذا اليوم احتفالا بقدومه فاجتمع العوام لرؤيته مـن كـل مكان ـ وقد بلغت فرحة الناس به إلى حد أنهم استأجروا البيوت الراقية فى الطريـق الذى يمر فيه موكب السلطان بأموال جزيلة فضلا عن الحوانيت التى اصطفـت بـها العامة مقابل نصف درهم أجرة الجلوس لصاحب الحانوت فكان يوم ركوبه من الأيـام المشهورة » [١] .

وتذكرنا المصادر أنه فى يوم السبت ٤ جمادى الأول سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٩م خرج عامة القاهرة لاستقبال السلطان الناصر محمد بعد عودته من الكرك « الولايـة الثانية » ليتولى مقاليد السلطة فى البلاد فى أعقاب حكم السلطان « لاجين » .

« وكادت القاهرة ومصر ألا يتأخر بهما أحد من الناس فرحاً بقدومه » [٢] .

وفى سنة ٧٠٩هـ / ١٣١٠م « الولاية الثالثة » خرج العامة معبرين عن عودة السلطان الناصر محمد ، أوقدوا الحوانيت واستقبلوه بالمغانى وأرباب الملاهى .

« ... ، وزينت له القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء ، ودقت له البشائر »

وفى سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م « زين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتـهم الحلل وثياب الحرير . وبقوا على ذلك أياما » وذلك ابتهاجاً لشـفاء السـلطان مـن إصابة كانت بيده [٣] .

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج١ ق٣ ، ص ٨٣١ ، ٨٣٢ .

(٢) المقريزى : المصدر السابق ، ج١ ق٣ ، ص ٨٧٢ ، ابن تغرى بردى : المصدر السـابق ، ج٨ ص ١١٥ ، ١١٦ ، ابن إياس : المصدر السابق ، ج١ ق١ ، ص ٤٠١ .

(٣) المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ، ق١ ، ص ٧٥ ـ ٧٧ ، ابن إياس : المصدر السابق ، ج١ ق١ ، ص ٤٣١ ، ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

ويبدو أن أفراح العامة فى المناسبات القومية كان يشوبها نــوع مــن الحــذر والترقب ، وهو ما نراه طبيعيا فى ظل الصراعات الدامية بين السلاطين والأمراء فــى هذا العصر حتى صار « العرش » أشبه بقطعة من الصفيح الساخن لمن يجلس عليــه بسبب التوتر وانعدام الثقة والأمان يدل على ذلك أن سفر السلطان خارج البلاد وكــان يصيب العامة بالخوف و « الأراجيف » ولا تطمئن لأحوال الحكم حتى يعود الســلطان وتراه رأى العين .

ففى يوم السبت الثامن من المحرم سنة ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م وصل السلطان إلى القاهرة من الحج « وخرج معظم الناس إلى لقائه بعد ما كان بينهم من أراجيف ، ... وبالغوا فى إظهار الفرح به والدعاء له وأمعنوا فى ذلك فسر السلطان بهذا الأمــر . ودقت البشائر ، وعملت الأفراح ثلاثة أيام » [١] .

وفى ١٤ صفر ســنة ٧٩٢هـــ / ١٣٩٠م وصــل الســلطان برقــوق إلــى الريدانية بظاهر القاهرة ، وخرج إلى لقائــه الســادة الأشــراف وفقــراء الطوائــف بصناجتها والعساكر المصريــة بلبســها وآلاتــها واليــهود بالشــموع وتوراتــها ، والنصــارى بالشــموع وأناجيلــها والعامــة بأجمعــها يدعــون لــه والنســاء « زغرتــوا » [٢] .

وفى هذه المناسبة عبر عامة القاهرة عن فرحتــهم بالغنــاء والرقــص ، ... وخرجت إليه طائفة الحبوس ومعهم سنجق وطبل وهم يرقصون وجاءت إليه طائفــة من الصيادين ومعهم الشباك ... ، ودخل السلطان برقوق وإلى جانبه الملك المنصــور أمير حاج راكبا عن يمينه وحملت القبة والطير على رؤوسهما ولعب قدامها بالغواش الذهب ولاقتهما المغانــى وانطلقت النساء فــى الطرقات بالزغــاريد وكــان يومــا مشهوداً [٣] .

---

[١] ابن تغرى البردى : المصدر السابق ، ج٩ ، ص ١٠٧ .

[٢] ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج١٢ ، ص ٢ ، ٣ .

[٣] ابن إياس : المصدر السابق ، ج١ ق٢ ، ص ٤٣٠ ، ٤٣١ .

وفى سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٩م عاد السلطان الأشرف قايتباى من رحلة طويلة استغرقت نحو أربعين يوماً طاف فيه عدة بلاد من الشرقية والغربية .

« فلما كان يوم الخميس تاسع عشر هذا الشهر (ذو القعدة) دخل السلطان إلى القاهرة من باب النصر فى موكب حافل وقد حمل القبة والطير على رأسه المقر السيفى برقوق أحد المقدمين ، ... فكان له يوم مشهود ، واصطفت له المغانى والنساء على الدكاكين واستمر فى ذلك الموكب حتى طلع القلعة » [١] .

وفى يوم الخميس رابع شوال سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٩م دخل السلطان إلى القاهرة فى موكب حافل ، ... ، والدف والشبابة والأوزان عمال ومدت له أسمطة حافلة [٢] .

وربما كان خروج السلطان للعامة نوعا من المدارة السياسية لتدهور أحوال البلاد السياسية والاقتصادية أو ذرا للرماد فى العيون لما يتعرض له السلطان من دعاية مضادة تسئ إلى عهده أو تعجل بنهاية حكمه مثلما حدث للسلطان قانصوه الغورى فى نهاية عصر المماليك إذ أشاع أعداؤه أنه « قد عمى بعينيه الاثنين » فنزل من القلعة « وشق القاهرة » فاصطف له الناس ، وانطلقت النساء بالزغاريد من « الطيقان » . وكانت القاهرة مزينة زينة حافلة استمرت سبعة أيام [٣] .

والرواية تعكس لنا حالة الضعف السياسى فى نهاية العصر والتى بلغت حداً ضاعت فيه حرمة أهل الدولة بين العوام [٤] . وزالت هيبتهم فى نفوس الرعية .

وقد شاعت بين علمة القاهرة بعض وسائل التسلية التى اعتمدت إلى حد كبير على القوة البدنية واللياقة الصحية مثل « المثاقفة » (المصارعة) و « اللبخة »

---

[١] ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٣٤ .
[٢] نفسه : ص ١٣٨ ، ١٣٩ .
[٣] نفسه : ج٤ ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .
[٤] نفسه ، ص ٤٨٣ .

(التحطيب) ، وربما جذبت هذه الألعاب بعض السلاطين الشبان من أمثال زين الدين حاجى (٧٤٧ ــ ٧٤٨هـ) الذى كان يلعب مع العامة ويلبس التبان ، ويتعرى من ثيابه كلها ليدخل معهم فى أدوار المصارعة مما كان يعطى هذه الألعاب نوعاً من الشهرة والانتشار بين أوساط العامة فى القاهرة .

« ونودى بإطلاق اللعب بذلك فى القاهرة ومصر » [١]

كذلك كانت هناك وسائل للتسلية تميزت بالفكاهة والمهارة وخفة الحركة كالألعاب البهلوانية ، والألعاب السحرية ومناقرة الديوك ، وألعاب القرداتية والكلابية والدببة وخيال الظل وغيرها من الألعاب التى تقوم على الحيل والشعوذة .

وقد شارك بعض السلاطين عامة القاهرة فى هذه الألعاب منهم مثلا السلطان الأشرف شعبان (٧٦٤ ــ ٧٧٨هـ) الذى كان من شدة ولعه بلعبة خيال الظل [٢] أنه صحب المخايلين معه فى رحلته إلى بيت الله الحرام بمكة [٣] .

والسلطان محمد بن قايتباى (٩٠١ ــ ٩٠٤هـ) الذى أقام حفلا فى ربيع الأول سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٩م أحضر فيه أبو الخير ومعه « عدة خيال الظل » والمغانى ، ورئيس المحبظين للترفيه عنه وحاشيته .

« وقد خرج عن الحد فى اللهو والخلاعة والانشراح » [٤]

---

[١] المقريزى : ج٢ ، ص ٢٩٢ .

[٢] خيال الظل : طيف الخيال وهى تشبه الآن مسرح العرائس (الدمى) وانتقلت هذه اللعبة من الشرق الأقصى إلى مصر عن طريق تركيا وعرفت باسم « القراقوز » ، لمزيد من التفاصيل ، عبد الحميد يونس : خيال الظل (القاهرة ، المكتبة الثقافية ، ١٩٦٥م) ص ٩ ــ ٢٥ ، أحمد تيمور : خيال الظل ، ص ٢٠ ــ ٢٢ ، سعد الخادم : الدمى المتحركة ، ص ٧ ــ ٧٢ .

[٣] ابن إياس : المصدر السابق ، ج١ ق٢ ، ص ١٧٤ .

[٤] نفسه : ج٢ ، ص ٢٩٢ .

ورغم شغف بعض السلاطين بألعاب العامة فإن البعض من الآخر وجد في بعض هذه الألعاب ما يتنافى مع القيم والأخلاق والآداب العامة مثل السلطان جقمق (٨٤٣ ــ ٨٥٧هـ) الذى أمر بجمع أصحاب خيال الظل وأحرق جميع ما معهم من الشخوص مع تهديدهم بأشد العقوبات إن هم عادوا إلى سيرتهم الأولى فى « خيال الظل والزعطوطا » (١) .

كذلك فإن المحتسب أنكر على العامة بعض الألعاب كنقار الديوك ، ونطاح الكباش بعد أن أكثر الناس من اقتنائها « وكثر اللعب بالحمام وتظاهر أرباب الملعوب بفنون لعبهم » (٢) .

ويبدو أن هذه الألعاب كانت عند المحتسب أشبه بأنواع « القمار » الذى حرمه الشرع بالنص الصريح (٣) فضلا عما كان يترتب على هذه الألعاب من « فتنة تؤول إلى خراب وشق ثياب وإحداث شجاج » فتسفك الدماء ، وتنهب الحوانيت مما جعل بعض العلماء المعاصرين يراها من جملة المنكرات والفواحش (٤) .

ويشير أحد الباحثين إلى أن سماع السير والحكايات الشعبية كان من أكثر الأشياء المسلية بالنسبة للعامة فقد كان القصاصون يلقونها على مسامع الناس فى مجلس السمر فيهتزون لها طربا لما تحمله هذه السير والحكايات من أحداث تعوضهم نفسيا عن واقعهم المؤلم وتحيى فى نفوسهم الأمل ، وتنتقم لهم من رموز الظلم والعدوان (٥) .

---

(١) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٤٠١ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج٢ ق٣ ، ص ٦٩٥ ، ٦٩٦ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٩٠ « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

(٤) ابن الأخوة : لمصدر السابق ، ص ٣٥١ .

(٥) قاسم عبده قاسم : بين الأدب والتاريخ ، ص ٧٢ .

ويبدو الدور الاجتماعى لعامة القاهرة فى ضوء مظاهر النشاط العمرانى لسلاطين المماليك والذى اعتمد على نظام السخرة ـ إلى حد كبير ـ وخاصة فى الأعمال المتعلقة ببناء وصيانة شبكة الجسور والترع والقنوات والتى أشرفت عليها إدارة خاصة برئاسة أحد الأمراء ذكرته المصادر تحت اسم « شاد العمائر » [١] .

وقد أشار أحد فقهاء العصر لهذه الوظيفة وذكر أن شاد العمائر هذا كان يقوم على العمال المشتركين فى بناء المساجد والمدارس وأنه كان يعطيهم من الأجر دون حقهم ويستعملهم فوق طاقاتهم [٢] .

وتشير الرواية التى ذكرها المقريزى فى أحداث سنة ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م إلى أن والى القاهرة ووالى مصر قاما بتسخير العامة للعمل فى تشييد جسر على النيل « وقبضا على عدد كثير منهم وزادا فى ذلك حتى صارت الناس تؤخذ من المساجد والجوامع فى السحر ومن الأسواق ، والناس ببيوتهم خوفا من السخرة » [٣] .

وكثيرا ما كان عامة القاهرة يتعرضون لأبشع أنواع الحوادث التى قد تودى بحياة بعضهم بسبب خطورة العمل دون أن يكون لهم أى نوع من التأمين على حياتهم أو التعويض عما أصابهم فى شكل ما يمكن أن نسميه بالضمان الاجتماعى بل كان الأمر لا يخرج عن إطار الصدقة والإحسان من السلطان والأمراء .

ففى سنة ٨٧٦هـ / ١٤٧١م وقعت حادثة غريبة وهى أن نجارا كان يعمل بالقلعة فى بعض الأدوار العليا فسقط « فمات لوقته وكان له أولاد وعيال وهو فقير فوقف أولاده وعياله للسلطان بقصة (شكوى) يلتمسون منه شيئا من الصدقة فلما وقفوا إليه أمر لهم بمائة دينار وأمر للميت بثوب بعلبكى وثلاثة أشرفية يجهزونه بها » [٤] .

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج٢ ق١ ، ص ١٣٠ .
(٢) السبكى : المصدر السابق ، ص ١٢٩ .
(٣) المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ق٢ ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، الخطط : ج١ ، ص ١٦٩ .
(٤) ابن تغرى البردى : منتخبات من حوادث الدهور ، ص ١٣١ ، ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٧٠ .

ومما تجدر الإشارة إليه أن دور العامة فى الحياة الاجتماعيـــة قـد أخـذ فـى الانكماش بدءا من منتصف القرن الثــامن الــهجرى /١٤م وحتــى نهايــة العصـر المملوكى نتيجة لكثرة مساوئ ومظالم أهل الدولة مما ترتب عليه كمـــا ذكـر أحـد المعاصرين فتح الباب على مصراعيه « للمقايضات والــنزولات » ، ... ، فلشــترى الإقطاعيات كثير من العامة [١] .

وفى هذه المرحلة الحرجة « تفاحش » أمر المماليك بحيث تحول كثير منهم إلى لصوص ومناسر ونهَّابة فى إطار الضعف السياسى للسلاطين الذين عجـــزوا عـن حماية أنفسهم من بطش هؤلاء العسكر ، فكيف يحمون الرعية ؟ ويشير المقريـــزى إلى هذه الحقيقة فى أحداث سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م بقوله فيـــها « تفـاحش أمـر الأجلاب (المماليك) بحيث سلبوا الناس فى الطرقات وهاجموا الحمامات على النساء وأخذ بالقهر وقصدوا أرباب الأموال بالأذى ، حتى شمل الخوف الناس » [٢] .

وهذه الواقعة صارت أمراً عادياً يذكره المؤرخون فى حولياتهم ضمـن أحـداث هذا العصر مثلما حدث فى سنة ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م إذ « اشتد فساد المماليك الجلبان وكثر عبثهم بالناس وأخذهم ما قدروا عليه من مـــال وحريـم » [٣] . وفــى سـنة ٨٤١هـ / ١٤٣٨م « ... وأخـذوا فــى نهـب الناس وخطف النســاء والصبيـان للفساد » [٤] .

ولا شك أن الفتن والاضطرابات فى أواخر العصر كانت لها نتائج وخيمة على مظــاهر الحياة الاجتماعية لعامة القاهرة أضف إلى هذا سلسلة المجاعات والأوبئــة التــى اجتــاحت القاهرة فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى وكــان مـن أشهرها طاعون سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩١م الذى أودى بحياة ثلث سكان القاهرة [٥] .

---

(١) المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ق٣ ، ص ٧٥٨ ، ٧٥٩ .
(٢) المقريزى : المصدر السابق ، ج٣ ق١ ، ص ١٤١ .
(٣) المقريزى : المصدر السابق ، ج٤ ق٢ ، ص ٨٠٤ .
(٤) المقريزى : المصدر السابق ، ج٤ ق٣ ، ص ١٠٢٦ .
(٥) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٨٦ ــ ٢٨٩ ، ولمزيد من الأمثلة نفسه : ج٣ ، ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٢ ، ٣٨٨ ، ٣٩٤ .

الفصل الخامس

دور العامة فى الحياة الاجتماعية

خصائص ثقافة العامة - فنون القول : « الشعر - الأغانى - الأمثال - التعابير - الفوازير .... السيرة الشعبية - الملاحم - خيال الظل - الأدب التمثيلى » - فنون الشكل : « العمارة - النحت - النقش - الرسم - التصوير - الخزف - الحلى - النسيج - الفخار ، ..... » .

يقصد بالثقافة فى المدلول العام [1] كل المقومات التى يكتسبها الفرد كعضو فى المجتمع ، والإنجازات التى يؤثر بها فى التيار الثقافى الجمعى السائد فى هذا المجتمع فى ضوء الأحداث الجارية الماثلة [2] .

وفى تصورنا أن ثقافة أى مجتمع تسير على التوازى فى اتجاه التيار الاجتماعى المعاصر ، بحيث تعكس لنا العادات و التقاليد و السلوكيات اليومية للأفراد التى يمكن رصدها والوقوف على أهم جوانبها فى إطار الصراعات والمعاملات والاحتفالات ، والعبادات ، والأفراح والأحزان والآمال والأحلام وغير ذلك من المؤشرات الدالة على هوية هذا المجتمع وأحواله السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ويمكن البحث فى « النتاج الثقافى للعامة » فى اتجاهين أساسيين هما :

أولا : ثقافة القول وتشمل جميع السمات الثقافية غير الملموسة كالأفكار ، والقيم والمثل ، والمعتقدات ، والعادات والتقاليد والخرافات ، والأمثال والحكايات والنوادر والألغاز والأشعار والسير والأمانى ، ... ، .

ثانيا : ثقافى الشكل وتشمل جميع الموضوعات والإنجازات التى صنعها الإنسان لتوافق مع البيئة كالعمارة بمختلف أنواعها والفنون المرتبطة بها كالنحت والنقش والتصوير والرسم والزخرفة وغيرها ، والصناعات مثل صناعة الحلى والنسيج والخزف والفخار ، والقطع المعدنية والخشبية كالمسارح والمشكاوات ، والمنابر ، والمشربيات وغير ذلك الفنون التشكيلية .

وتجدر الإشارة هنا وقبل الدخول فى أغراض البحث – إلى أن الفنون القولية لعامة القاهرة ليس بالضرورة أن تكون « عامية اللهجة » كما

---

(1) الثقافة فى معناها اللغوى هى مجموعة العلوم والمعارف والفنون التى يلزم العلم بها والحذق فيها . وفى مدلولها الخاص تعنى الرقى الفكرى والمعرفى يتصف بها فئة معينة من أبناء المجتمع (المعاجم اللغوية) .

(2) عاطف غيث وآخرون : قاموس علم الاجتماع (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩م) ص ١١٠ ـ ١١٢ .

يـرى بعض الباحثين [١] الذين وضعـوا مفـهوما لـلأدب العـامى أسـاء ـ دون قصد منهم إلى كل جماهير الشـعب المصـرى بمـا فيـهم المثقفـون أنفسـهم إذ أنهم جمعوا فى مفهوم واحد بين مصطلحين متغـايرين وإن كانـا متداخليـن همـا مصطلـح الأدب الشـعبى ومصطلـح « الفولكلـور » أو « المـأثور الشـعبى » فالنتاج الثقافى للعامة يصبح عـامى النزعـة طالمـا أنـه بلسـان حـال العامـة وتعبير عن الوجدان الجمعى لهم علـى عكـس الأدب الفـردى الـذى يعـبر عـن ذات مفردة هى ذات المبدع وحـده .

ويختلف مصطلح « الفلكلور » الذى يستخدمه عامة المثقفين باعتباره « أدبـا شعبيا » عن الأدب الفردى و الأدب الجمعى « العامى » فى أنه « مـأثور شـعبى » يشتمل على ممارسات قولية وعملية جمعية يضاف إليها باستمرار مكتسبات جديـدة تمنحه نوعا من الحصانة الثقافية تتوارثها الشعوب جيلا بعد جيـل برغـم عوامـل التطور فى أنماط الحياة البشرية [٢] .

ومما يذكر أن النتاج الثقافى لعامة القـاهرة فـى عصـر سـلاطين الممـاليك تزامن مع عصر الحروب الصليبيـة « حـروب الفرنجـة » وكـانت مصـر هـى بـؤرة الصـراع العسـكرى والسياسـى والاقتصـادى بيـن الشـرق العربـى / الإسلامى و الغرب الأوربى / الكاثوليكى ممـا أتـاح المجـال بشـكل واسـع أمـام قرائح أدباء العامة لكى يزاحموا أدباء الصفوة الذين عقمـت قرائحـهم مـن هـول الغزوات العسكرية فعجـزوا عـن مواجهـة التيـار الثقـافى الشـعبى بتفسـيراته النفسية والوجدانيـة الجريئـة للأحـداث الجاريـة . بحيـث اقتصـر دور الأدبـاء

---

[١] محمود فهمى : الأدب الشعبى العربى « مفهومه ومضمونه » (القاهرة ، دار الاتحاد العربـى ، ١٩٧٢م) ص ٨٠ ـ ٨٤ .

[٢] فاروق خورشيد : السيرة الشعبية العربية (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨م) ص ١٩ ـ ٢١ ، ولمزيد من التفاصيل ، رشدى صالح : الأدب الشعبى (القـاهرة ، ١٩٧١م) ص ١٥ ، قاسم عبده قاسم بين الأدب والتاريخ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

الرسميين على كتابة تـاريخ الدولـة وذكـر أخبـار السـلاطين أو تـأليف بعـض الكتب العلمية اللاتى لا يقترب منها أحد مـن عامـة الشـعب (١) .

أضف إلى هذا أن اكثر السلاطين وأمراء المماليك لم يكن لهم سهم فـى حلبـة الصراع الثقافى العربى ، ومن ثم فإن كثيرا من الأدباء النازحين إلى القـاهرة مـن العراق والشام قد مارسوا حرفا يرتزقون منها مثل أبى الحسين الجزار (ت ٦٧٩ هـ) الذى عمل كحالا بباب القاهرة ، وابن دانيال الموصلى (ت ٧١٠ هـ) وكان يعمل فى الجزارة وابن نباته (ت ٧٦٨ هـ) وغيرهم من الأدباء الشعراء الذين عرفهم هـذا العصر (٢) .

ولقد تميز هؤلاء الأدباء و الشعراء الذين عاشوا على هامش السلطة بعيدا عن أهواء السلاطين بنوع من الدعابة وخفة الروح فـى كتاباتـهم برغـم أن الظـروف المحيطة بهم كانت كئيبة ومؤلمة مما يكشف عن الجانب التلقائى والمـزاج الفطـرى الذى تميز به عامة القاهرة فى أحلك أوقات الشدة (٣) وهو ما عبر عنه لأحد شـعراء الفصحى العرب (٤) فى رؤيته لعامة المصريين بقوله :

كم ذا بمصر من المضحكات ... ولكنـه ضحـك كالبكـاء

ويفسر الباحثين هذا التحرك فى الأدب العربى ليتخذ شكل الفن الشعبى فى إطار الحاجات النفسية للبلدان المستعربة ومن بينها « مصر » ليصبح الأدب أكثر تنوعـا وأوسع آفاقا من الأدب الرسمى « الفنى » الذى ظل حبيسا فى الحدود التى رسـمها أدب الجزيرة العربية منذ العصر الجاهلى (٥) .

---

(١) محمد كامل الفقى : الأدب العربى فى العصر المملوكى (القاهرة ، دار الموقف العربـى ، ط٣ ، ١٩٨٤) ص ١٣٠ ، ١٢٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ٢١٥ ، محمد كامل الفقى : المرجع السـابق ، ص ١٣١ .

(٣) شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (القاهرة ، ١٩٤٥م) ص ٣٧٧ ، ٣٧٠ .

(٤) أبو الطيب المتنبى فى زمن كافور الأخشيدى [الباحث] .

(٥) محمد مندور : فن الشعر (القاهرة ، ١٩٨٥م) ص ١٢٠ ــ ١٢١ .

فإذا أضفنا إلى كل ما ذكرنا أن السلاطين والأمراء المماليك فى معظمهم لم يرق لهم الأدب العربى بحكم أصولهم الاجتماعية والثقافية وبالتالى كانوا أشحاء على شعراء الفصحى الوافدين إلى القاهرة فى أعقاب سقوط عاصمة الخلافة العباسية « بغداد » فى أيدى المغول فى منتصف القرن السابع الهجرى / ١٣م . فكان طبيعيا أن يمتزج هذا الأدب بالبيئة المصرية فى الأسواق و الشوارع ودور العبادة ، والمتنزهات ، وغيرها من الأماكن متحررا من القواعد الفنية الرسمية المتعارف عليها بين الأدباء (١) .

فالعامة لهم آراؤهم ولخيلتهم التى ربما لا ترد فى أذهان أولئك الذين يكتبون النثر أو ينظمون الشعر بوحى من قرائحهم الذاتية ومن ثم فإن عامة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك أعطونا نتاجا أدبيا تبحروا فيه ذوقا وبلاغة تتناسب مع الحاجات النفسية لكل المصريين و التى كان من أبرزها قاطبة الشعر الغنائى الذى « أتوا فيه بالغرائب » على قول أحد المعاصرين (٢) .

لقد كان الشعر الغنائى من أهم أنماط فنون الشعر فى هذا العصر إذ عبر عامة القاهرة من خلاله عن مشاعرهم تجاه الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية السائدة دون مراعاة لأية اعتبارات سلطوية .

ويبدو أن الأحوال الاقتصادية كانت ضعينا لا ينضب لشعر العامة الغنائى وهو ما أشار إليه أحد المؤرخين المعاصرين فى معرض ذكره للأوبئة والمجاعات التى تعرضت لها مصر فى الفترة من سنة ٨٣٣ هـ إلى ٨٥٣ بحيث لم يعد العامة يجدون شيئا يذكر من الخبز أو القمح ومع هذا كانوا يرفهون عن أنفسهم بالخروج إلى « المفترجات، الشوارع يضحكون ويهزلون » فكان هذا دأب الناس (٣) .

---

(١) رشدى صالح : الأدب الشعبى ، ص ٣٤ ، ص ٥٤ ، ٥١ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ج٣ ، ص ١٣٦٢ .

(٣) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٩٠ ، ٨٩ .

ويذكر فى سنة ٧٠٨ / ١٣٠٩ م لنا هذا المؤرخ نموذجا من الشعر الذى كان يردده عامة القاهرة عندما انخفض منسوب النيل وشحت الغلال وارتفعت الأسعار ، وتشاءم العامة بحكم السلطان بيرس الجاشنكير وطالبوا بعودة السلطان الناصر محمد فكانوا يخرجون إلى الشوارع فى القاهرة ويقولون :

سلطاننا ركين ونائبو دقين   يجيبنا الماء من أين
هاتوا لنا الأعرج   يجى الماء يدحرج

وكان السلطان الناصر محمد مقربا من نفوس العامة غير أنه كان يميل إلى وزيره علم الدين بن زنبور الذى كان مكروها من العامة بسبب ظلمه وسوء ولايته فنظموا فيه هذه الأبيات :

ذا ابن زنبور الصاحب   فى الناس لسمه
يا ترى زنبور أين كان .... (١)

وفى سنة ٧٤٣ / ١٣٤١ م شاع بين العامة نبأ القبض الأمير قوصون ـ نائب السلطنة ـ فتوجه العامة فى الحال إلى خانقته خارج باب القرافة ونهبوا ما به من البسط والقناديل وغير ذلك ثم توجهوا إلى جامعه الذى بالقرب من زقاق صلب ونهبوا ما فيها أيضا .

وكان قد ثقل أمره على العامة الذين فرحوا بزوال عهده وعودة الناصر أحمد من الكرك فقالوا :

من الكرك جانا الناصر   وجب معه أسد الغابة
ووقعتك يا أمير قوصون   ما كانت إلا كدابة (٢)

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٨ ، ص ٢٤٤ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ق١ ، ص ٤٢٥ ، ٤٢٤ وقد أعرضنا عن ذكر بعض الكلمات الواردة فى المصادر (الباحث) .

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج١ ، ص ١٩١ ، المقريزى . الخطط ، ج٢ ، ص ٦٠ .

وتذكر المصادر أن عامة القاهرة من فرط فرحتهم بنهاية هذا الأمير الظالم ، صوروه على هيئة تمثال الحلوى وطافوا به على جمل حتى باب زويله وهناك علقوا التمثال وهم يغنون :

شخص قوصون رأينا   فى العلاليق مسمر
فعجبنا منه لما جاء   فى التسمر سكر [١]

ومن الضرورى أن نشير هنا إلى هذه الأغانى [٢] الشعرية التى عرفت باسم « البلاليق » ومفردها « بليقة » اختص بها عامة القاهرة ، وارتبطت بأحداث معينة ثم ما لبثت أن تلاشت تدريجيا بزوال هذه الشخصيات الحاكمة المستبدة إما بالوفاة أو بالعزل أو النفى لكى يتناول العامة شخصيات أخرى بالذم فى كثير من الأحيان وبالمدح أحيانا حسبما يتطلب الحدث ويستدعيه الموقف الاجتماعى أو الاقتصادى أو السياسى .

وكان دأب سلاطين المماليك ظان يتظاهروا أمام العامة بالتقوى والورع والعطف على أهل الحاجة والمسكنة استقطابا لمشاعر هؤلاء العامة وخاصة إبان الفتن السياسية والأزمات الاقتصادية ، وقد بدت هذه الظاهرة بوضوح فى النصف الثانى من هذا العصر الذى شهد تدهورا فى شتى مناحى الحياة فى مصر .

ومن أمثلة هؤلاء السلطان برقوق الذى كان حريصا منذ كان أميرا على التقرب للعامة والتظاهر بأنه « واحد منهم » كى يكتسب تأييدهم فى معاركه السياسية مع خصومه من الأمراء [٣] .

---

[١] ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٩١ ، ١٩٢ .

[٢] أحمد صادق الجمال : الأدب العامى (القاهرة ، الدار القومية ، ١٩٦٦م) ص ١٤١ ــ ١٤٤ .
ويرى المؤلف أن فنون الشعر سبعة وهى القريض والموشح والمواليا والزجل والدوبيت والكان وكان والحماق (القوما) (نفسه : ص ٩٣ ــ ٩٦) .

[٣] المقريزى : السلوك ، ج٣ ق١ ص ٣٦٦ ، ٣٦٥ .

ولذا فقد تفاعل به العامة وظنوا به ما جعلهم يتمنون أن يكون سلطانا عليهم وقد عبروا عن تلك المشاعر بقولهم :

إن برقوق أمير كعبه فى الناس أخضر [١]

وفى سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩م اختفى السلطان الظاهر برقوق ورفض العامة تلبية نداء الأمير يلبغا الناصر فى البحث عنه والقبض عليه مقابل وعده لهم بمكافأة مالية مجزية لمن يرشد إليه قدرت بألف دينار مع التهديد بالويل والعذاب الشديد لمن يخفيه أو يتستر على معلومات تساعد فى القبض عليه . ومع هذا نفرت العامة من مماليك الناصرى الذين عاثوا فى القاهرة فسادا فنظم العامة هذا البيت :

راح برقوق وغزلانه وجاء الناصر وتيرانه [٢]

ومن الحوداث التى أشارت إليها المصادر فى عصر المماليك الجراكسة وتعبر عن خيبة أمل العامة فى السلطان الناصر فرج برقوق (٨٠١ – ٨١٥ هـ) موافقة السلطان فى سنة ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م على الصلح المهين مع القائد المغولى تيمور لنك [٣] (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤م) الذى كان قد استولى على الشام ولم يترك مدنها إلا وهى « خاوية على عروشها » وراح فى هذا الغزو كثير من عامة الشام [٤] .

وكان من نتائج هذا الصلح بعض الهدايا التى بعث بها القائد المغولى إلى السلطان فرج ومن بينها الفيل « مرزوق » الذى استعمله أهل الدولة فى جباية

---

(١) ابن حجر : أبناء الغمر ، ج١ ، ص ١٥٥ ، « والكعب الأخضر » كناية عن التفاؤل وعكسها « الكعب الأشقر » كناية عن التشاؤم بشخص ما (أحمد تيمور : الكنايات العامية (القاهرة ، مطابع الأهرام ، ط٣ ، ١٩٧٠م) ص ٥٤ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٣) تيمور : تمر وسمى « لنك » لأنه كان أعرج (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٥٥ ، المنهل الصافى ، ج٤ ، ص ١٠٣) .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٢ ، ص ٢٢٣ ــ ٢٢٧ ، المنهل الصافى ، ج٤ ص ١٢٢ ــ ١٢٥ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ق١ ، ص ٦٠١ .

الأموال من عامة القاهرة مما جعلهم يتخذون من هذا الفيل رمزا لمظالم الدولة فـــى الرعية .

وفى يوم الاثنين ثانى شعبان سنة ٨٠٤ هـــ خرجت أفواج من العامة لتشـــاهد مصرع هذا الفيل فى القنطرة فنظم شاعرهم هذه الأبيات :

الفيل وقع يوم الاثنين فى القنطرة
لمـــا أفلســـوا غلمـــان الفيـــل ‏ ‏ رامـــــــــوا الحــــــــراف
خـــدوه ورلحـــوا صوب بولاق ‏ ‏ يجيـــبــــو المـــطــــــــاف
رأو شويـــخ مـــن أهـــل الله ‏ ‏ مـــــــا فيــــــه خـــــلاف [١]

وما زال عامة القاهرة يشاركون فى المعارضة السياسية عـــن طريـــق الشـــعر الغنائى الذى يمثل عندهم نوعا من التنفيس عن معاناتهم الاجتماعية فى إطار فســـاد أهل الدولة وسوء ولايتهم لشئون هؤلاء العامة مثلما حدث فى عهد السلطان جقمـــق (ت ٨٥٧ هـــ) يوم القبض على الأمير الأتابكى قرقماس ونزوله من القلعة مقيـــدا بالحديد حيث توجهوا به إلى شاطئ النيل ليركب الحراقة الى الاسكندرية ليسجن بـــها فأظهر العامة سرورهم بالتخلص منه فصنفوا غنوة مطلعها :

يـــا قـــرقمـــاس أفـــو عليـــك ‏ ‏ عمـــلت عملـــة وجـــت عليـــك [٢]

وفى سنة ٩١١ هـــ ـــ ١٥٠٥م اشتد الحرق بالقاهرة وصار كل ليلة يحـــترق عدد من الأماكن بسبب « الدريس » فى بيوت المماليك ، وكان الجند يطاردون العامة ويمسكون بهم ويحبسونهم أياما لنقل الدريس حتى « تعطلت أحوال الناس » وفى هذا المعنى صنف العامة رقصة غنائية تقول :

اهــــــرب يـــــــا تعيـــــس ‏ ‏ وإلا يحملوك الدريس [٣]

---

[١] ابن إياس : المصدر السابق ، ج١ ق١ ، ص ٦٤٨ ، ٦٥٠ .

[٢] المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٠٣ .

[٣] ابن إلياس : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٩٢ .

ويبدوا أن التدهور السياسى العام فى أواخر هـذا العصر قد أثر على منظومات العامة إلى حد الاستخفاف بالسلطة المملوكية القائمة بحيث لم تعد مثل هذه الأشعار الغنائية تعبر عن رؤية العامة لشخصية فردية من أرباب الوظائف العليا فى الدولة بل عن رؤيتهم للنظام السياسى المملوكى كله .

ففى سنة ٩١٤هـ / ١٨٠٥م انتشرت بين المماليك ظاهرة ارتداء العمائم ذات الأحجام الكبيرة « حتى خرجوا فى ذلك عن الحد » وكانوا يمارسون شتى صور الفساد مع العامة من سرقة وخطف واغتصاب فنظم أحد شعراء العامة أبياتا يقول فيها :

قد لبس الصوف كل تيس   قرونه يا لها قرون
فرحت من ذلك مستريحا   لا صوف عندى ولا قرون [١]

وهذه الأبيات الشعرية وغيرها كان العامة يرددونها فى المتنزهات والأماكن العامة باعتبارها نوعا من المواجهة مع نظم الحكم فى إطار معاناتهم اليومية إلى بلغت حدا لا يستطيع معه صبرا .

وكما أسلفنا القول فان أرباب الوظائف الديوانية والدينية كانوا يمثلون الجناح المدنى للدولة ، ويمثلون السلطان فى نظر العامة وفى نظر أنفسهم أيضا مما دفع العامة إلى التعامل معهم باعتبارهم أداة للسلطة فى جباية الأموال والتعاون مع السلطان بالأثم فى نهب حقوق الرعية .

ويذكر المقريزى أن السلطان الناصر محمد بن قلاون كان يستخدم أحد معاونيه وهو النشو [٢] ناظر الخاص (ت ٧٤٠ هـ) أسوأ استغلال فى أعمال الجباية والمصادرات فكان مكروها من الخاصة والعامة على حد سواء .

---

[١] نفسه : ص ١٣٨ .

[٢] عنه : المقريزى : السلوك ، ج٢ ق١ ، ص ٣٤٨ كان نصرانيا وأسلم .

وفى يوم الاثنين الثانى من صفر سنة ٧٤٠هـ / ١٣٠٩م عبر العامة عن فرحتهم بالقبض على الطاغية « النشو » الذى « أكثر من الوقيعة فى الدواوين » واعتبروا هذا اليوم عيدا سعيدا لهم ومما زاد من فرحة العامة فى هذا اليوم أن النيل زاد بعض الأصابع فحسبوه . فألا حسنا إذ هلك النشو واخوته كما هلك فرعون وجنوده فى اليم . ونجا النيل أهل مصر من النشو وعمله السيئ . وفى هذا المعنى قيل :

يا أهل مصر نجا موسى ونيلكم طغا
وفرعون هو والنشو قد هلكا [١]

كما يشير ابن الياس إلى موقف العامة فى رجب سنة ٨٩٦ هـ / ١٤٩١م من وكيل بيت المال ــ بركات الصالحى ــ الذى توفى متأثرا بعاهة فى ساقه وكان غير محمود السيرة كثير الظلم والجور فنظم فيه أحد الشعراء أبياتا يقول فيها :

بركات زاد الظلم فى أيامه وعلى الورى قد جار فى توكله
من رجله كان الهلاك بعاهة فمشى إلى نار الجحيم برجله [٢]

أما أرباب الوظائف الدينية وخاصة « القضاة » فانهم لم يسلموا من لسان العامة الطويل فى الحق ضد المسئولين عن الحكم بين الناس بالعدل وهم غير عادلين .

ففى سنة ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م رسم السلطان الناصر محمد بن قلاون بعزل قاضى القضاة جلال الدين محمد القزوينى وقد كثر حديث العامة عن توليه القضاء بالبراحليل « الرشوة » وكان ابنه يستغل وظيفة أبيه فى تعاطى ــ هو الآخر ــ

---

(١) المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ق١ ، ص ٣٤٩ ، ٤١٣ ، ٤٧٦ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٢٨٢ .

الرشوة حتى ظهرت أثار الترف والنعيم عليه مما ابغض العامة الذين تندروا بقولـــهم « هذا الشبل من ذاك الأسد » ونظم أحد الشعراء هذه الأبيات :

قاض عليـــه الآثام سل صارما بحـــده يلتـــقـــط الدراهمـــــــــا
وســـن مـــن أولاده لهـــا دما جـــردهـــم فانتـــهكـــوا المحـــارم

بل أن العامة وجهوا رسالة شعرية إلى السلطان يطلبون مه عزل هذا القـــاضى « الغمة » .

يا ملك الإسلام يـــا ذا الهمـــة أزل عنـــــا هـــذه الغمـــــــــة [١]

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض السلاطين من أمثال « قايتباى » و « الغورى » كانوا يلتمسون الفتاوى من قضاة هذا العصر لجمع الأموال بشتى الســـبل وكـــانوا يلزمون نظار الأوقاف بمقررات مالية تحصل من أبواب « المظالم » ففى ربيـــع الأول سنة ٨٩٦ هـــ / ١٤٩١م اضطربت أحوال العامة بسبب فرض أجرة خمســـة اشـــهر على الأملاك والأوقاف بالإضافة إلى شهرين سابقين مما جعل العامـــة تنظـــم مـــوالا غنائيا تحتج به على ذلك :

غزمت شهرين عن أجرة مكانى أمس أصبحت مغموس فى بحر المغارم غمس
أقسم ورب الخلايق والقمر والشمس ما طقت شهرين كيف أقدر أطيق خمس [٢]

ويذكر ابن الياس انه فى يوم الخميس الثانى و العشرين من ذى القعـــدة ســـنة ٩١١هــ / ١٥٠٥م تولى قاضى القضاة ومحى الدين عبد القادر ابن النقيب الوظيفـــة للمرة الثالثة بالسعى « الرشوة » لدى السلطان قنصوة الغورى بمبلغ خمســـة آلاف دينار آخرين لمن سعى له من الأمراء و الخواص .

---

(١) المقريزى : المصدر السابق ، ج٢ ق١ ، ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ .

(٢) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٧٩ والموال « المواليا » غير معروف أصل التسمية تحديدا ويرجح أن التسمية مأخوذة من توالى القوافى (أحمد صادق الجمال : المرجع الســابق ، ص ١٣٥) .

وكان هذا القاضى غير مشكور السيرة رث الهيئة يجافى النفس يزدريـــه مـــن يراه وقد صورته العامة على هذا النحو :

قاض إذا انفصل الخصمان ردهما ... إلى جـدال بحكـم غيـر منفصل
يبدى الزهادة فى الدنيا وزخرفها ... جهرا ويقبل سـرا بعـرة الجمـل
يــا أيــها الناس قفوا واسمعوا ... صفــات قاضيــنـــا التـــى تطــرب
يلوط . ويزنى . ينتشى . يرتشى ... يــنــم يقضـــى بالهـــوى يكذب [١]

وقد شهد شاهد من أهلها وهو قاضى القضاة تاج الدين السبكى (ت ٨٧٧هـــ) على مساوئ كثير من قضاة [٢] هذا العصر حتى أنه ألف كتابا لهذا الغرض .

ومن الطريف أن السيرة الشعبية لم تشأ أن تمر على قضاة هذا العصر مـــرار الكرام بل على العكس فإن القاص الشعبى جعل القـــاضى الظـــالم مصـــدرا للفكاهـــة والسخرية من سمته وهيئته التى تشبه هيئة الوالى الظالم فهو «لا يقول الحق أبـــدا» « ويسرق ليأكل الفطورات العظام والحلاوات » [٣] .

ومن الجدير بالذكر أن مسألة فساد القضاة فى مصر وبـــالتحديد فـــى عصـــر سلاطين المماليك الجراكسة كان مرتبطا إلى حد كبير بالفســـاد السياســـى للدولـــة ، وسوء الأحوال الاقتصادية وهو ما أشار إليه المقريزى صراحة بعـــد أحـــداث ســـنة ٨٠٦هـــ / ١٤٠٤م من أحد أسباب الأزمة الاقتصادية فى مصر هو ولاية الوظـــائف بالرشوة [٤] .

وان كنا نرى أن النظام القضائى فى مصر مثله مثل الوظائف الأخرى فى الدولة كان مرتبطا إلى حد كبير بأهواء الحكام والسلاطين ومع هذا فان هذا العصر قد شـــهد

---

(١) ابن الياس : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٩١ ، ٩٢ .
(٢) السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٧٢ .
(٣) سيرة الظاهر بيبرس : ج٤ ، ص ٢٧٤ ، ج٦ ص ٣٤٢ ، ج٨ ص ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٤٥٥ .
(٤) المقريزى ، إغاثة الأمة ، ص ٤٤ ـــ ٤٦ .

فئة من القضاة من ذوى الهيبة والعفاف والصيانة والذين عرفوا بين العامة بالنزاهة والعدل [١].

وتعد منظومات العامة فى « الخمريات » من أهم الإفرازات الثقافية لأفراد المجتمع الذين سادت بينهم أعراف اجتماعية معينة تتصل بدور المخدرات فى جلب النشوة والسرور والفحولة والتى ساعد على شيوعها أهل الدولة باعتبارها من عوائد الترف وكذلك « الدراويش » أو « الفقراء » الذين يقصدون لستعماله مع ما يجدون من اللذة « التى تزيل عنهم الهموم وتملأ قلوبهم بالفرح والسرور » ـ على قولهم ـ فى هذا الشأن [٢].

وقد حملت بعض أنواع الخمور أسماء بعض السلاطين والأمراء مثل الخمر « التمربغاوى » نسبة إلى السلطان تمربغا والخمر « البشتكى » نسبة إلى الأمير بشتك مما يكشف عن طبيعة العلاقة بين أرباب الدولة وانتشار ظاهرة تعاطى هذه المخدرات فى أوساط العامة حتى أن التدابير الاحترازية التى كانت تتخذها الدولة ضد أماكن بيع الخمور و الحشيش تجد نوعا من السخرية والاستنكار من جانب عامة الناس مثلما يقول الشاعر :

فى خمار الحشيش معنى ومرامى ... يا أهل العقول والأفهام
حرموها من غير عقل ونقل ... وحرام تحريم غير الحرام [٣]

وفى المحرم سنة ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨م أمر الأمير قرقماس الشعبانى بإراقة الخمور وحرق الحشيش وهدم مواضع الحانات وبيوت الفسق وكسر نحو عشرة آلاف جرة « وصارت بركة خمر تجرى فى الرملة » وقيل فى هذا :

---

(١) أحمد أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية (القاهرة ، د.ت) ص ١٦٢ ـ ١٧١ .

(٢) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ١٢٦ ـ ١٢٨ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٣٨٠ .

الخمـــر قـــد بدوه فـــى الأرض طـــــــولا وعـــــــرضا [١]
مـــا كنـــت أرضـــى بهـــــذا يـــا ليتـنـــى كنـــت أرضـــــا

بل إن ثمة أحد شعراء العامة بلغ حد الابتذال فى بعض الأبيات التى يجعل فيـها من نفسه فداء « الخمر » و « النساء » [٢] فيقول :

لا أتـــرك ذا ولا ذا أبـــــــدا لــــو تـقطـــع كـــل كرمة أو ....

بل أن ابن دنيال الموصلى لأحد الأدباء الذين وفدوا إلى مصر من العـــراق فـــى زمن السلطان الظاهر بيبرس (٦٦٥هـ / ١٢٦٦م) ووجد سوق الخمر قـــد بـــارت بسبب الحملات التأديبية للدولة على أماكن بيعها وتعاطيـــها حتـــى « تـــابت البغايـــا والخواطى ، ..... » ، فنظم أبيات فى رثاء الخمر يقول فيها :

مـــات يـــا قـــوم شيخنـــا إبليس وخـــلا منـــه ربعـــه المأنـــوس
والحرافيش حولها يتباكون دموعا يطفـــئ بـــهـــن الوطيـــس

كما يشير نفس الشاعر الأديب إلى أن حظ القاهرة مـــن « مواطـــن الأنـــس » وأماكن المجون قليل قياسا على ما رآه فى بلدان أخرى بقوله :

ارحلـــوا هـــذه بـــلاد عفـــاف وسعـــود الخلاع فيـــها نحوس [٣]

كذلك ينظم ابن دانيال هذه الأبيات التى يحتج فيها شدة الدولـــة فـــى معاقبـــة شارب الخمر ، وهى العقوبة التى بلغت حد « الصلب » يقول :

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ١٢٢ .

(٢) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٢ ص ١٨٤ ، ج٤ ، ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٣) ابن دانيال : طيف الخيال ، (مخطوط) ص ٨ ، ٩ .

لقد كان حد السكر من قبل صلبه　　خفيف الأذى إذا كان فى شرعنا الجلد
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبى　　ألا تب فإن الحد قد تجاوز الحدا [١]

وهكذا كان شعر العامة فى الخمريات مشوبا بالسخرية اللاذعة وخفة الظل وروح الدعابة التى بلغت حد المجون والنزق .

وفى القاهرة كان النيل مصدر إلهام الشعراء العامة فى ضوء العلاقة الوجدانية بين هذا النهر الذى يطلق عليه اسم (البحر) « تكبره واستبحاره » وبين العامة الذين يعتقدون أن هذا النهر ينبع ماؤه من نهر العسل فى الجنة وان الله سخر كل أنهار العالم بين المشرق والمغرب لتغذى النيل « سيد انهار العالم » يأمر فيطاع . وإذا غضب لم تستطع قوة على الأرض إن تحول بينه وبين فيضانه الذى تقشعر منه أبدان المصريين إن هو « زاد » عن الحد أو « نقص » . فالزيادة إذا تناهت غطت السيول أرض مصر « فتصير القوى جميعها فوق التلال والروابى وقد أحاط بها الماء من كل جانب فلا يتوصل إليها إلا فى المراكب أو من فوق الجسور ، .... ، وهبوط الماء عنها عند بدء الزراعة يعنى فساد إقليم مصر وتعذر سكناه لأن ليس فيه إمطار كافية ولا عيون جارية » [٢] .

والرؤية الشعبية للنيل عانت حالة من الازدواجية فهى تارة تصادق النيل وتصفه بالحكمة والكرم والنبل وتارة تتخذه عدوا لها يتصف بالطيش والشح والجور المبين فنقرأ لأحد الشعراء :

كان النيل ذو فهم ولب　　لما يبدوا لعين الناس منه
فيأتى حين حاجتهم إليه　　ويمضى حين يستغنون عنه

---

[١] نفسه : سعيد عبد الفتاح عاشور : ص ٨ ، ٩ ، الظاهر بيبرس (القاهرة أعلام العرب ، رقم ١٤ ، ١٩٦٣م) .

[٢] المقريزى : الخطط ، ج١ ، ص ٥٠ ، ٥١ ، ٦١ ، ٦٣ .

بينما نقرأ لشاعر آخر :

النـيـل زاد جـورا ... بحكمـه المطـاع
يعمـل فـى الرعايـا ... بالبـاع والـزراع [١]

وربما نسيت العامة هذا الجور من جانب النيل إلى سلاطين أنفسهم عبروا عن ذلك بالشعر الغنائى مثلما حدث فى عصر أسرة قلاون عندما انقلب بعض الأمراء على الأسرة الحاكمة وتولوا السلطة فى البلاد ركن الدين بيبرس الجاشنكر وسلاد « الأجرود » وغنوا :

سلطاننا ركين ونائبو دقين ... يجبنا الماء منين ؟ [٢]

وفى بعض الأحيان كان النيل يتحول إلى « حبيب » وتغنى له العامة على أنغام الطبول والدفوف مثلما حدث ففى ربيع الأول سنة ٨٤٤ هـ / ١٤٤٠م وقد أوفى النيل فى ٢٧ أبيب معا « عد من النوادر » ، وكان يوما مشهودا تغنت فيه العامة بهذه « البليقة » :

النيـل أوفـى فـى أبيب ... خشـن يـا حبيـب
وقـد بقينـا فـى ... هنـا يـا فرحتنـا [٣]

وفى شعبان سنة ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م رسم السلطان بفتح السد من غير وفاء وقد بقى عنه ثمانية أصابع فتوجه وإلى الشرطة وفتح السد . ولم يحصل للناس به السرور . واشتد فى هذا اليوم البكاء والنحيب وقال على بن سودون :

يا مسدل الستر على من عصى ... بحلمه مع علمه ما خفا
أرخص لنا الأسعار وألطف بنا ... واستر بماء النيل بر الوفا [٤]

---

(١) نفسه : ص ٦٣ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٤٤ .
(٣) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٢٩ .
(٤) نفسه : ص ٢٨٣ .

ويبدو أن النيل كان يمنح أهل مصر نوعا من المرح وخفة الروح على قول أحد الرحالة الذى شاهد احتفال العامة فى القاهرة بهذه المناسبة (وفاء النيل) ، والمنادون يجوبون الشوارع والأسواق للإعلان عن هذه الزيادة فى ماء النيل « ماء السلطان » [١] . حتى أن أحد الشعراء يقول مازحا :

النيل أفرط فيضا بفيضه المتتابع
فصار مما دهانا حديثا بالأصابع [٢]

ومن اطرف الأبيات لأحد الشعراء تلك التى يتهم فيها الشاعر النيل بالتشبع بعد أن كان سنيا فيقول :

ولقد عهدت النيل سنيا يرى « عمرا » ويتبع أمره تسديدا
والآن أضحى فى الورى متشيعا متوقفا ما أن يحب « يزيدا »

ومن أنماط الشعر الاجتماعى لعامة القاهرة ـ شعر الطعام ـ والذى جاء تعويضا نفسيا عم بعض صور المعاناة والحرمان التى أشارت إليها المصادر جملة وتفصيلا فى إطار الأزمات الاقتصادية التى تعرضت لها مصر فى هذا العصر وانعكست آثارها السلبية على « الطعام » الذى احتل فيه « الخبز » المكانة البارزة فى حياة المصريين الذين أطلقوا عليه اسم « العيش » وكأنهم لا يستطيعون الحياة بدونه حتى أن أحد الشعراء الظرفاء نظم قصيدة مطولة عن هذا الغذاء العجيب فى حياة أبناء مصر استهله ببيت يقسم فيه « بلوح الخبز » .

قسما بلوح الخبز عند خروجه من فرنه وله الغداة فوار
ورغائف منه تروقك وهى فى سحب الثقال كأنها أقمار

---

[١] القلقشندى : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، DOPP. OP CIT P. 20-21
ولمزيد من التفاصيل / قاسم عبده قاسم : النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٨م) ص ١٧ ـ ١٩ .

[٢] نفسه : ص ٢٨٣ .

فكـــأن بـــاطنـــه يكفك درهـــم   وكـــأن ظاهـــر لونـــه دينار [١]

ويروى أن إلياس أن الغلاء لما اشتـد فـــى إحـدى السنـــوات حتـــى بيـــعت « البطة » [٢] الدقيق بأربعمائة وخمسين درهم مما اضطر العامة إلى شــراء الخــبز المصنوع من دقيق الذرة ، وصنفوا رقصة يقولون فيها :

زويـــجـــى ذى المسخـــــرة   يطعمـــنـــى خبـــز الـــذرة [٣]

وفى مصر سنة (٨٢٥ / ١٤٤١هـ) عز وجود القمح فى الأســـواق وتزاحـم الناس على الأفران فى طلب الخبز ، وعم الغلاء أنحاء القاهرة من شدة الأزمة فقـــال الشاعر :

ومـــا منـــة الخبـــز عندى قليلة   لقرضى وهو من عسرتى يغضى [٤]
وقد كنت مثل الليث آكل الفريسة   وقد صرت مثل الفأر آكل بالقرضة

ومن أشعار العامة فى الطعام والتى بلغت حد « الغزل » ما يقوله بن ســـودون فى وصف الطعام « الحبيب المجهول » :

يا واصف الأكل كفيـــت الكلام   كرد على سمعى لذيذ الكلام [٥]
وغنـــى فـــى الـــورى معلنـــا   مـــا طاب وقت قد خلا من طعام
لا تقطـــع الوصـــل حبيبى وقم   زرنـى ولو بالطيف عند المنام [٦]

---

(١) ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج ١٥ ، ص ٩٦٣ ، ص ٤٢٦ ، ابن إيـــاس : المصـــدر السابق ، ج٢ ص ٨٣ ، ٨٤ .
(٢) البطة : وحدة موازين وهى تساوى خمسين رطلا (ابن الأخوة : معالم القربة ، ص ١٥٢) .
(٣) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٣٨ .
(٤) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٠٤ .
(٥) ابن سودون : نزهة النفوس ومضحك العبوس ، ص ٤٧ .
(٦) نفسه : ص ٤٨ ، ٥٠ .

ولقد هام بعض الشعراء شوقا إلى بعض أصناف الحلوى والفاكهة مثال ذلك ما قاله أحدهم :.

يا ما أحلى الموز وهو مقشر　　　يرخى عليه القطر والعلول
آه كنايف بالسكر بتلت　　　قلبى لفقدك فى الهوى متبول [١]

والشاعر أبو الحسين الجزار (ت ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م) كان يحترف العمل بحرفة الجزارة ، ولكن العائد منها كان شحيحا مما دعاه إلى احتراف الشعر ولكن هذه الحرفة لم تعوضه عن خسارته فى الجزارة فعاد مرة أخرى لحرفته الأولى يلتمس فيها الأجر الذى يكفيه وفى هذا يقول :

اعمل فى اللحم للعشا ولا　　　أنال منه العشا ... فما ذنبى ؟ [٢]

ويقول فى شوقه لألوان الطعام :

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر　　　وجاد عليها سكر دائم الدر
واشتاق أن هبت نسيم قطائف　　　السحور وسحيرا وهى عاطرة النشر [٣]

ومن أطرف الأبيات التى تتصف بخفة الروح المصرية والتى يرد بها سراج الدين « الوراق » على أبى الحسين « الجزار » يصف فيها فقره وبؤسه :

رب سامح أبا الحسن وسامحنى　　　فشأنى وشأنه الإسلام
فذنوب الوراق كل جريح　　　وذنوب الجزار كل عظام [٤]

---

[١] نفسه : ص ٤٨ ، ٥٠ .
[٢] أحمد صادق الجمال : المرجع السابق ، ص ١٩٢ .
[٣] السيوطى : أحسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣٢٧ .
[٤] ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٨ ، ص ٨٣ ، ٨٤ ، ابن شاكر فوات الوفيات ، ج٢ ، ص ٣٦ .

وكانت هناك مناسبات اجتماعية ودينية يستلهم منها شعراء العامة ما تجود بــه قرائحهم مثل أفراح الحج والزواج ، والميلاد ، والختان وغير ذلك من المناسبات التــى يجد فيها عامة المصريين متنفسا لمشاعرهم ووسيلة للتعبير عن أحوالــهم المعيشــية بطريقة تدخل فى قلوبهم شيئا من السرور الذى يحتاجون إليه فى إطار حياتهم اليومية وكلامهم الدؤوب فى مناكب الأرض سعيا على الرزق .

ففى مناسبة استعداد بعض المصريين المسلمين لأداء فريضة الحج كان النــاس يخرجون أفواجا من أماكن شتى فى أنحاء مصر والقاهرة لمشاهدة خــروج المحمــل المتوجه إلى الأراضى المقدسة بكسوة الكعبة وقد صنفوا رقصات غنائية نذكر منـــها ما كتبه أحد المؤرخين بقوله :

« فجاءت الناس أفواجا من الخانكاه ومن بلبيس ومــن أمــاكن شــتى بســبب الفرجة على الرماحة ودوران المحمل وصنف العوام رقصة وهم يقولون :

بيــع اللحاف والطراحــة ... حتــى أرى ذى الرماحــة
بيـــع لــى لما فى المخمل ... حتى أرى شكل المحمل [١]

وفى أفراح الزواج تشترك مجموعة من المطربات « جوقة » فى تأدية بعـــض ألوان الغناء التى تضفى على العرس البهجة والانشراح وعلـــى العـــروس صفــات الجمال والعز والدلال .

يــا عــروســة فــى الدلال ... انــجلــى ولا تبــالـــــى
انــجلــى ســت العرايــس ... يــا عــزيــزة فــى الأهالى
كــم ليــكــى أوصاف جميلة ... يــا بديــعــة فــى الجمــال
وصفــك يــا ســت الأقمــار ... حيــن عجــز منــو مقالــى
قلــت مــن عيــن الأعــادى ... صانكــى مولى الموالى [٢]

---

[١] ابن إياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٠ ، ٦١ .
[٢] ابن سودون : نزهة النفوس ، ص ٨٤ ، ٨٥ .

وتميزت زفة العروس ببعض التعابير الشائعة فى مثل هذه المناسبات السعيدة مثل « شوبش وعقبال عندكم » [١] وغير ذلك مما يثير مشاعر الفرح بين الناس .

ومما يذكر أن عادة الغناء فى الأفراح المصرية تأثرت بالعناصر العربية التى سكنت البلاد وعرفت بكثرة الزيجات فيما بينها وبين البنات المصرية فى إطار إباحة المشروع للرجل بالتعددية فى الزوجات الأمر الذى شجع كثير من المصريين المسلمين على استغلال هذه « الرخصة » أيما استغلال بغرض المتعة والإكثار من الذرية وهو ما لم يكن مباحا لعامة المصريين « الأقباط » قبل عصر الفتوحات الإسلامية .

ويذهب أحد الباحثين إلى أن الأغانى المصرية العامية قد اهتمت بالجانب الوصفى لمفاتن العروس الجسدية متأثرة إلى حد كبير بما سبقت الإشارة إليه فى البيئة الثقافية العربية والتى أسرفت فى هذا الغرض الشعرى « الغزل » لدرجة المجون فى عرض مفاتن الأنثى كالعينين والشفتين والخدين ، والكعبين وغيرها من المفاتن التى تؤكد دور البيئة الاجتماعية فى إثراء النتاج الثقافى للعامة [٢] .

وقد وجدنا فى السيرة الشعبية العربية والمصرية العديد من الإشارات التى ترسم لنا صورة تعبيرية لأفراح عامة القاهرة والتى تقودها « جوقة » المغانى تتقدمهن الراقصة « الجارية » فى صحبة « الخلبوص » [٣] وفى يدها الرق لجمع « العوايد » .

---

[١] ألف ليلة وليلة : ج ٦ ، ص ١١٧٤ .

[٢] لمزيد من التفصيل : شوقى ضيف : الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية ، ص ٥٢ ، رشدى صالح : الأدب الشعبى ، ص ٢٤٨ ، التجميل والتزيين والأزياء الشعبية (القاهرة مجلة الفنون الشعبية ، ع ٢٢ ، ١٩٨٨م) ص ٦٨ ، ٦٩ .

[٣] الخلبوص : نوع من الطيور يشبه العصفور (المعاجم اللغوية) .

ومن المؤكد أن البيئة المصرية القديمة لعبت دورا فى هذا المضمار إذ أن كثيرا من الكلمات التى تستعملها فى مناسبات سارة كالميلاد والختان تعود إلى اللغة المصرية العامية القديمة مثل كلمات « السح » و « الدح » و « الكخ » و « برجالاتو » وغير ذلك . وثمة أغنية شاعت بين عامة المصريين فى هذه المناسبات تقول فيه القابلة « الداية » :

يا ملح دارنا كتر عيالنا   يا ملح دارنا كتر صغارنا

ثم يردد جميع الحاضرين :

برجالاتو برجالاتو   حلقة دهب فى وداناتو [١]

وتتمثل نداءات الباعة وأرباب الحرف الشاقة كالبنائين ، والعتالين ، والسقائين والمكاريين وغيرهم أحد ضروب المأثورات « الفلكلورية » التى امتزجت بواقع الحياة الاجتماعية المصرية ، تعبيرا عن الحس الجماعى وانعكاسا لأمانى وأحلام ولشواق العامة نحو حياة أفضل .فنداءات الباعة التى لازالت آثارها فى المجتمع القاهرى حتى اليوم ليس الغرض منها التسلية والترفيه لعامة الناس بقدر ما هى وسيلة لشحذ الهمم وحفز النشاط واستنفار مشاعر الزبائن نحو صاحب النداء لعل الله يجعل من بعد عسره يسرا .

ومن النداءات المألوفة عند عامة القاهرة ويشترك فيها معظم الباعة « صلى على النبى » و « يا فرج ربنا » و « يعوض ربنا » وغيرها من النداءات المهنية الشائعة التى جذبت الحالة واهتم بها الباحثون الأجانب [٢] .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٣٦٣ ، رشدى صالح : الأدب الشعبى ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ألف ليلة وليلة ، ج ٥ ، ص ١١٣٤ ، ١١٣٥ وسيرة الظاهر بيبرس ، ج ٩ ، ص ٥٠٨ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ .

(٢) أندريه ريمون : المرجع السابق ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

DOPP. Op. Cit, P. 20, Lane Poole: Social Life, P. 6.

فالسقاء الجوال فى القاهرة كان يتغنى بالكلمات التى تثير رغبة العامة فى شرب الماء فيقول :

ما شراب إلا من زينب ولا وصال إلا من حبيب
ولا يجلس فى الصد إلا لبيب

ويبدو أن السقاء عرف بين العامة بخفة ظله وحرصه على استدرار عطفهم نحوه مناديا « يعوض الله » وربما كانت العامة تعتمد عليه كرسول غرام بين العشاق عن طريق توصيل الرسائل أثناء قيامه بدخول المنازل لملء الازيار والخزانات وغير ذلك [١] .

ويذكر المقريزى أن نداءات العتالين أثناء نقل عواميد إحدى العمائر إلى القلعة كانت عاملا مساعدا فى إنجاز مثل هذا العمل الشاق بعد أن « أعيا العتالون » فيها . وصارت هذه النداءات « غناء تتداوله الألسن عدة سنين » [٢] .

ومن نداءات باعة الفاكهة وهم يجوبون شوارع القاهرة وحاراتها :

بطيخ بلدنا سوارى أحمر صغير أو أصفر
شفت حبيبى تشابه لونه ممزوج بالسكر
خلى العوازل يموتوا بالمذبح الله أكبر [٣]

وتطالعنا كتب السيرة الشعبية بعشرات الأمثلة لنماذج شعرية تلقائية عرف بها أرباب الحرف والصنائع التى شاعت فى هذا العصر خاصة أصحاب المهن الصغيرة كالحمالين ، والسقائين ، والحلاقين وغيرهم ومن هذه النماذج الشعرية هذا الموال الذى يتغنى به أحد العمال أثناء مزاولة نشاطه اليومى .

---

[١] ألف ليلة وليلة : ج ٦ ، ص ١١٥٣ .
[٢] المقريزى : السلوك ، ج ٣ ق ١ ، ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .
[٣] سيرة الظاهر بيبرس : ج٤ ، ص ٢٣٣ .

يقول الموال :

قلبى عشق بنت ترعى فى جزاير مر
كوز عيون سود ترمى كل فارس مر
طلبت منها الوصال قالت وصالى مر
روح وان هفك الشوق كل ساعة مر [١]

وقد نوه صاحب « المقدمة » إلى تفوق أهل مصر فى هذا اللون من الشعر « الموال » أو « المواليا » وذكر لنا بعض النماذج منها :

هذا جراحى طريا والدما تنضح
وقاتلى يا أخيا فى الفلا يمرح
قالوا نأخذ بثارك قلت ذا أقبح [٢]

وثمة نوع من الأدب العامى شاع فى حياة الناس اليومية عرف بالأمثال و التعابير والألغاز وكلها تأتى فى إطار رؤية العامة لتجاربهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية مع « الآخر » (الأتراك المماليك ـ أرباب الوظائف المحليين ـ الأعراب ، ..... الخ) .

فالمثل القائل « رزق الهبل على المجانين » استعملته العامة للتعبير عن رؤيتها لجباية الأموال ، وولاية الوظائف بالرشوة ، وتعسف أهل الدولة مع عامة القاهرة من التجار والحرفين والصناع جلبا للمكاسب المالية اللازمة لتلبية عوائدهم فى الترف والاستمتاع بالحياة الدنيا .

---

[١] سيرة الظاهر بيبرس : ج ٩ ، ص ٤٩٩ ، ولمزيد من الأمثلة ج ٤ ، ص ٢٢٣ ، ٢٣٠ ، ٢٥٠ ج ٥ ، ص ٣١٤ ، ج ٨ ، ٤٤٨ ، ج ٩ ص ٤٩٠ .

[٢] ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٣٦٢ ـ ١٣٦٤ .

وقد أشار أحد الشعراء العامة إلى هذا المثل فى قوله :

تملكوا الأموال قلت لهم   رزق « الكلاب » على المجانين [١]

ومن المعروف أن الأتراك المماليك برغم ما عرفوا به من « ظلم وجور » مع عامة المصريين إلا أن أهل مصر ظلوا متمسكين بهم إلى نهاية وجودهم السياسى باعتبارهم سياج الأمن لهم ضد الغزوات الأجنبية إلا أنهم كانوا يعانون من وجودهم واعتبروا خدمتهم لهم « علقة » ومن ثم شاع المثل القائل : « آخر خدمة الغز علقة » [٢] .

كما نوهت كتب السيرة إلى المثل القائل « الشقى عمر باق » فى إطار ممارسات بعض الحرافيش والشطار من أمثال « على زنبق » و « شيحه » الذى ارتبطت باسمه « ألاعيب شيحه » و « يسرق الكحل من العين » وغيرها من الأمثال التى يكنى بها فى معرض « الفهلوة والشطارة ، وخفة اليد » [٣] .

ولأن أحاديث العامة عن نهر النيل كانت لا تنتهى على مدار السنة بما يحمله لهم من مفارقات سارة ومجزية فى أوقات مختلفة من حياتهم الموسمية ، صاروا يتداولون بعض التعابير التى توحى بجريان الماء ووفرته فى بعض أشهر السنة ومنها :

---

[١] ابن تغرى البردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٥ ، ص ١٣١ ، المنهل الصافى ، ج ٢ ، ص ١٧٩ أحمد تيمور : الأمثال العامية ص ٢٢٦ وقد أورد صاحب المستطرف المثل « رزق الكلاب على المجانين » (الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف) القاهرة ، ١٨٦٣م ، الباب السادس ص ٣٤ .

[٢] أحمد تيمور : الأمثال العامية ، ص ١ ، أحمد أمين : قاموس العادات والتقاليد والتعابير العامية ص ٢٠ ، سيرة الظاهر بيبرس : ج ٤ ، ص ٢٢٥ ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٥ « كل من عمل ولى تتبعه » ، « يا بخت من كان النقيب خاله » .

[٣] سيرة الظاهر بيبرس : ج ٨ ص ٤٣٨ ، ج ١٠ ، ص ٥٥٤ ، ج ٢ ، ص ٥٥٦ ، ألف ليلة وليلة ، ج ٦ ، ص ١١٦٨ ، أحمد تيمور : الكنايات العامية ص ٣٢ .

« اذا دخل أبيب كان له دبيب »

والمقصود بذلك الشهر : شهر يوليو (تموز) [١] .

وكانت الألغاز والفوازير « الأحاجى » تحتل مساحة فى النتاج الثقافى لعامة القاهرة فى المناسبات المختلفة وكانت الفزورة متشابهة مع المثل والنكتة من حيث تأثيرها الممتع على المتلقين فى إطارها النثرى أو الشعرى .

ومن أدباء هذا العصر الذى أسهموا فى هذا النمط الأدبى « يحى بن العطار » (٧٨٩ - ٨٥٣ هـ) الذى أرسل إليه العامة لغزا شعريا يقول :

يا أيها العطار أعرب لنا عن اسم شىء قل فى سومك
تنظره بالعين فى يقظة كما ترى بالقلب فى نومك [٢]

وتعد سيرة الظاهر بيبرس [٣] من أزهى الأشكال الأدبية التى أفرزتها لنا الحروب الصليبية إبان الصحوة الفكرية العربية التى أعقبت الغزو المغولى لكل من العراق والشام ليواجه بعدها الغزاة المماليك فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م لتتحول الهزيمة العربية فى بغداد إلى نصر مبين فى القاهرة تحت قيادة قطز وبيبرس [٤] .

ومن الطبيعى أن تهتز مشاعر عامة القاهرة فرحا بهذا العمل البطولى الذى استرد به المماليك هيبة الإسلام فى المنطقة العربية بأسرها ، فتفرز لنا قرائح العامة هذا العمل الفنى الذى يعرض البطولة « المصرية » فى إطار

---

[١] المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٥٩ .

[٢] ابن إياس : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ وعن الموضوع : نصر أبو زيد : الفوازير (القاهرة ، مجلة الفنون الشعبية ، ع ١٨ ، ١٩٨٧م) . ص ٦٠ ــ ٦٥ .

[٣] سيرة الظاهر بيبرس (القاهرة ، مطبعة عبد الحميد محمد حنفى ، بدون تاريخ) .

[٤] أحمد أحمد بدوى : الحياة الأدبية ، فى عصر الحروب الصليبية فى مصر والشام (القاهرة نهضة مصر ، الطبعة الثانية ، بدون تاريخ) ، ص ٥٤٥ ــ ٥٥٨ .

البطولة « الفردية » لأحد أبنائها فيما عرف بفن « الملاحم » وهو الفن الذى لا ينسب لمؤلف معين [١] .

وتتكون السيرة من عدة مراحل ذات أساس تاريخى ، والتى يعتبر الظاهر بيبرس أحد مراحلها ، وان كنا مع الرأى القائل ، بأن المرحلة المصرية فى السيرة هى أهم المراحل إطلاقا اذ أنها تكشف عن المقومات الأساسية للعامة فى مدينة القاهرة والتى لم تتغير على مر العصور رغم كل المتغيرات السياسية و العسكرية على الأرض المصرية ، ليظل المصريون محتفظين بسماتهم الإنسانية بما فيها من فكاهة وسخرية وترفع [٢] ، والتى يبين عنها هذا الفصل .

وإذا كان الأصل التاريخى فى السيرة قد توارى خلف التراكمات الخرافية التى وجد فيها العامة إشباعا لحاجاتهم الوجدانية ، إلا أن الدلالات السياسية والاجتماعية التى أبان عنها التزاوج بين الشخصية المملوكية والشخصية المصرية حتى صارتا شخصية واحدة ، وقد كشف عن الجانب « المسكوت عنه » فى المصادر التاريخية التقليدية [٣] .

ومما يذكر أن الظاهر بيبرس (٦٨٥ ٦٧٦هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧م) ظهر على مسرح الأحداث السياسية فى أحلك الظروف العسكرية التى مرت بها المنطقة العربية من الفرات إلى النيل والتى كانت فيها بعض المدن واقعة تحت سيطرة الصليبيين فى منطقة بلاد الشام والتى تمكن المماليك من تحريرها الواحدة تلو

---

[١] من المعروف أن الشعوب التى تعربت فى أعقاب الفتوحات الإسلامية ومنها مصر ، لم تقتنع بالأدب العربى فى صورته العلمية الوحيدة وهى الشعر الغنائى (شعر القصائد) ، فأضافت إليه هذه الشعوب نمطين آخرين هما : فن الملاحم ، وفن الشعر التمثيلى ، لتلبى ظروفها البيئة وحاجاتها النفسية . (لمزيد من التفاصيل محمد مندور ، فن الشعر ، ص ١٢٠ ـ ١٢٢) .

[٢] عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس ، ص ١٨ ـ ٢١ .

[٣] اعتمدت فى رؤيتى للبعد التاريخى فى سيرة الظاهر بيبرس بصفة رئيسية ، على محاضرة الدكتور / قاسم عبده قاسم تحت عنوان « الشخصيات التاريخية فى سيرة الظاهر بيبرس » (القاهرة ، الجمعية التاريخية ، ٧ ديسمبر ١٩٨٦م) .

الأخرى حتى سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م ، عندما نجح السلطان الأشرف خليل قلاون فى القضاء على آخر المعاقل الصليبية فى عكا [١] .

أضف إلى هذا الغزو المغولى للأراضى العربية ـ الإسلامية والذى كان سببا مباشرا فى غروب شمس الخلافة العباسية فى بغداد ، لتشرق من جديد ـ على استحياء ـ فى القاهرة فى سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م .

ومن المفيد الإشارة إلى أن المماليك فى أعقاب انحسار دورهم العسكرى فى المنطقة العربية ، تعاملوا مع سكان البلاد الأصليين باعتبارهم رعايا فى خدمة وجودهم السياسى دون أدنى نوع من المساواة السياسية أو الاجتماعية حتى أن أحد المؤرخين يذكر لنا أن « فتيان المماليك فعلوا بأهل مصر والقاهرة مالا فعله الفرنج بالمسلمين » [٢] .

وقد تجاهلت السيرة الواقع التاريخى المشار إليه ليصبح العمل الفنى مرضيا عنه لدى جمهور العامة ، فجعلت مجيء بيبرس إلى الحكم فى قالب « البطولة الاجتماعية » التى تحظى ببركة أولياء الله الصالحين ، وفيهم الملك الصالح نجم الدين أيوب (ت٦٤٨هـ) ، « ولى الله المذوب » الذى تحبه العامة لأنه « يحكم بالعدل ، ويأكل من كسب يده ويصلى الجمعة فى الحسين » ، كما توحى السيرة بأن الاختيار الصوفى للقائد المصري هو سبب نصره على جميع أعدائه العتاة فى الداخل مما يكشف عن أحد أبعاد السيرة وهو « البعد الدينى » [٣] .

ويبدو أن فكرة « القدرية » قد سيطرت على أحداث السيرة فى جملتها والتى يبدأ بها القاص فى تبريره لقيام الأتراك فى العصرين الأيوبى والمملوكى والتى أحرزها صلاح الدين الأيوبى ، وقطز ، وبيبرس البندقدارى ، إذ أن النصر فى مفهوم

---

[١] سعيد عاشور : الحركة الصليبية (القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، ط ٣ ، ١٩٧٦م) ج ٢ ، ص ١٨٥ وعن الموضوع : سعيد عاشور : الظاهر بيبرس (القاهرة ، أعلام العرب ، ١٩٦٣م) .
[٢] ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص ١٠٧ ، المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٣٨٠ .
[٣] سيرة الظاهر بيبرس : ج١ ، ص ٢٩ ـ ٣٠ ، ج٢ ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

العامة لا يحققه الإعداد العسكرى الجيد فحسب ، وإنما يتحقق بدعاء الصالحين من الصوفية الزهاد وإن حاربوا عدوهم « بالسيوف الخشبية والتروس من خشب الجميز » [١] .

بل إن القاص عند ذكره المماليك الأجلاب فى فترة نشأتهم داخل طباق القلعة قد أغفل – إلى حد ما – المبادئ العسكرية التى يتدرب عليها الحدث المملوكى ، واعتنى – إلى حد كبير – بالجانب المعنوى إذ أن المماليك « يتلون القرآن ويعرفون الخط الحسان ، ويدرون معانيه ، .... » وهم فى ذلك مثل أستاذيهم الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى « قرأ القرآن ، وعرف الحلال من الحرام » [٢] .

كم تهتم السيرة « بالبعد القومى » المفقود فى الشخصيات التاريخية الحاكمة فى هذا العصر ، ولذا فقد حرص الوجدان العامى على اصطفاء البطل من بين صفوف المصريين حيث يكون « جدعا » ، « لا يبالى بالاكابر » ، لكى يكون جيشا عظيما من « أولاد البلد » ليحارب بهم أعداء مصر [٣] .

وتؤكد السيرة على أهمية « البعد الأخلاقى » فى الشخصيات التاريخية ، ليصبح السلطان المملوكى الذى يصل إلى دست الملك بالقوة والاغتصاب بطلا شعبيا يتفقه فى أمور الدين ، وتحضر إليه أقطاب الصوفية من كل أقطار الدنيا لتبايعه على أن يحكم بأمر الله ، « ويعلم الناس الوضوء والصلاة ، ويعظهم بشىء من القرآن وأحاديث سيد الأنام » [٤] .

وكأنما أراد القاص أن يعزل العامة عن مرارة الواقع السياسى والاجتماعى فى هذا العصر فأضفى على الأحداث جوا من الخيالات التى تروق لها نفوس العامة ،

---

[١] سيرة الظاهر بيبرس : ج١ ، ص ١٣ – ١٧ .
[٢] المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٨ ، ٢٩ ، ج٢ ، ص٨٣ ، ٩١ .
[٣] نفسه : ج٢ ، ص٢١٩ ، ج ٣ ، ص١٩٨ ، ج٤ ص٢٢٤ ، ص٣٧٥ .
[٤] نفسه : ج٤ ، ص٢٣٩ – ٢٤١ .

فزخرت السيرة فى بدايتها بالأشعار والنوادر فـــى حب الرسول (صلـــى الله عليــه وسلم) ، وآل بيته رضى الله عنهم ، والتابعين لهم [١] .

وقد احتلت المعتقدات جزءا هاما من اهتمامات العامة فى هذا العصر وهو مـــا نوهت به السيرة فى سياق سردها لمشاهد الأولياء وكرامات أصحابها ، إذ تذكر لنــا السيرة أن السلطان الظاهر بيبرس بعد تتويجه قد توجه إلى الســـيدة نفيســـة ليقــرأ الفاتحة ويهب الثواب إلى حضرة النبى ، ثم إلى روح السيدة ، وبعدها بسط يده تحت القبة داعيا أن تقضى له حوائجه [٢] .

وقد أشار أحد المعاصرين إلى أن عامة القاهرة كانوا يأتون من كل حدب لزيارة قبور أهل الولاية حبا وشفاعة ، وقضاء لمصالحهم عن طريق أصحاب هذه القبـــور المقدسة [٣] .

ومما يذكر أن السلطان الظاهر بيبرس بعد توليه حكم البلاد ، شرع فى إحضـــار الخليفة العباسى من بغداد إلى القاهرة ليؤكد شـــرعية حكمـــه أمـــام العامـــة الذيـــن استبشروا بتقليد شيخ الإسلام والخليفة المسلمين ، لاسيما أن هذا التقليد احتوى على العديد من المبادئ السياسية والاجتماعيـــة مثـــل « الحريـــة » ، و « العـــدل » ، و « المساواة » [٤] وهو ما حرصت السيرة على التنويه به فى ثنايا الأحداث ، إذ أنـــه « لا فرق بين الفلاح والجندى ، والمغربى والكردى ، والبربرى والـــهندى ، وكلنـــا خلقة ربى » [٥] .

ومن طرائف الأحداث التى وردت على لسان القاص ليؤكد على بعض المبـــادئ الغائبة فى الواقع الاجتماعى المصرى المعاصر ، والتى تطلع إليها عامة القاهرة ، أن

---

[١] نفسه : ج٢ ، ص ٤٤ ـ ٥٠ ، ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٧٦ ، ج٣ ص ٢٠٦ ، ج٦ ص ٣٨٣ ، قاسم عبده قاسم بين الأدب والتاريخ ، ص ١٤٩ ، ص ١٥٠ .

[٢] سيرة الظاهر بيبرس : ج٤ ، ص ٢٣٦ .

[٣] المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ .

[٤] المقريزى : السلوك ، ج١ ق٢ ص ٤٥٧ .

[٥] سيرة الظاهر بيبرس : ج٦ ، ص ٣٧٥ .

كبير أعيان مصر ، قد تساوى فى مفهوم العامة مع السلطان ، « وقــد ابـل علـى السلطان عند قيامه وقال له : أنستنا يا جدع ، فقال له السلطان : مرحبا بك يا شـيخ عثمان » [١] .

وفى تصورنا أن أهمية السيرة تبدو فى نتائج الأحداث التى ازدحمت بها كرؤيـة وجدانية تعويضية لعامة القاهرة الذين داعبتهم أحلام التغيير الاجتماعى فى مجتمـع يفتقد إلى العدالة ويستشرى فيه الظلم والفساد ، وتهدر فيه القيم الإنسانية ، ويفقـد الفرد فيه الشعور بالانتماء من خلال شعور التبعية لقوى أجنبية ممثلة فى الممـاليك فى الداخل والصليبيين فى الخارج ، ولذا فان العقلية العامية قد مصـرت البطولـة ، ووحدت العناصر الاجتماعية المختلفة بشكل يتلاءم مع إمكانية إحداث التغييرات فـى أنماط العلاقات الاجتماعية السائدة داخل المجتمع .

وللتدليل على ذلك فان السيرة قد حولت « الجريمة » فى مفهوم العامـة إلـى هدف قومى وهو « سرقة ممتلكات الكفار الفرنج » ، كما أنها حولت أرباب الشطارة و العياقة ، والسرقة ، والقمـار ، والغـش ، والبلطجـة ، والتعريـص ، وتجـارة المخدرات ، وشهادة الزور ، وغيرها من العناصر المصرية التى لعبت دورا سلبيا فى المجتمع ــ إلى عناصر إيجابية من خلال التوبة والتطهير من آثام الدنيا ، ليصـيروا جبهة واحدة مضادة لمختلف عناصر الفساد التى تقف ضد مصالحهم [٢] .

وتعالج السيرة سلبيات المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك من خـلال المواجهة المباشرة بين العامة الشرفاء تحت قيادة البطـل « بيـبرس » ومختلـف العناصر التى تستغل العامة لتحقيق المكاسب الشخصية عن طريق الجشـع والطمـع فيما بين أيدى العامة من الثورة .

وتبدو هذه المواجهة بين العامة والأعداء فى الداخل فى شتى جوانـب الحيـاة الاجتماعية فى الأسواق ، والمصانع ، والمحاكم ، وغيرها من الأماكن التـى يتوافـد

---

[١] المصدر السابق : ج٦ ، ص ٣٧٥ .

[٢] سيرة الظاهر بيبرس : ج٤ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ج٧ ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ج ٢٠ ، ص ٥٥٦ .

عليها العامة لقضاء الحوائج ، وكانت « حارة بيبرس » بما فيها من وفــرة السـلع وثبات الأسعار ، والأمانة فى البيع والشراء نموذجا لما يتطلع إليه عامة القاهرة فـى ظل مظاهر الغلاء التى عرفها هذا العصر حتى « صارت هذه الحارة بيع وشراء ، مع عدم الجور أو الإسراف ، .... ، والقى الله محبة حارة بيبرس فى قلوب أهل مصـــر نساء ورجالا » [١] .

ومما يلفت النظر أن السيرة قد اتخذت موقفا عدائيـــا مشــتركا تجــاه أربــاب الوظائف فى إطار الفكاهة والسخرية بحسبان أنهم جميعا أداة السلطان فى لســتنزاف طاقات مختلف فئات العائة المنتجة ، فتجعل السيرة « الوالى قريب القاضى » الـــذى يحكم بالباطل ويجامل الأقوياء على حساب الضعفاء حتـــى أن كبــير عيــاق مصــر يستطيع أن ينقل هيئة المحكمة حيثما يريد ويجعل العامة يتفرجــون علــى القــاضى ويتضاحكون عليه ويتكلمون [٢] .

وتجدر الإشارة هنا إلي أن موقــف العامـــة مــن قضـــاة هـــذا العصــر كـــان تعبيرا عن انتقاء سمة العدل فى الحكـــم ، والعلاقـــة العكســية بيــن أربـــاب هـــذه الوظائف ومفهومها لدى العامة ، وهو ما نبّـــه إليـــه أحـــد المعـــاصرين بقولـــه « ولكن أين نصر الحق ، وهم لا يدخلون فيه إلا بالسعى ، وبمــــا يذلــوا عليـــه مــن الذهـــب » [٣] .

كما أن السيرة تجعل من أرباب هذه الوظائف مجالا للتندر بين العامة إذ تُنصــر الوالى المسلم وتجعله يسجد للصليب ، وتجعل القاضى أيضا نصرانيا يذهب إلى الديـو ليدبر مؤامرة ضد العمال المصريين « يا مولانا القاضى ما الذى أتى بك هنـــا وأنـــت رجل قاض شهير ، هل ترى الجامع الأزهر ، .... » [٤] .

---

(١) المصدر السابق : ج٦ ، ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

(٢) سيرة الظاهر بيبرس : ج٤ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ج ٧ ص ٣٩٤ ، ج٨ ، ص ٤٥٥ .

(٣) السبكى : معيد النعم ، ص ٧٢ .

(٤) سيرة الظاهر بيبرس : ص ٣٨٠ ، ٣٨١ .

بل إن السيرة تحدد موقفها من سيرة المحتسبة والولاة الذين كانوا يتشددون على العامة في كثرة الإجراءات الأمنية والقيود الاجتماعية ، كمنع النساء من الخروج من الطرقات في أوقات معينة وإلزام السوقة والأهالي بكنس الشوارع وتنظيفها ورشها بالماء والإضاءة وغير ذلك من الإجراءات التي يمتثل لها العامة خوفا من العقوبة إلا أنهم في نفس الوقت كانوا يتهاونون في حقوق الرعية لمهادنة اللصوص والمناسر وأرباب الجرائم والمفسدون مما كان له أسوأ الأثر على حياة العامة وأحوالهم المعيشية [1] .

ولذا فان السيرة تجعل من البطل محتسبا وواليا ليمنع الأذى عن الناس ، ويأمر السوقة أن يبيعوا بالحلال والحق ، ويبطلوا النقص في الموازين والمكاييل ، كما تشرك السيرة أبناء الطبقة العاملة من الأجراء ، مثل الفعالين والحمالين ، والحملين والسائقين ، والزبالين ، وغيرهم من أرباب الحرف المحقرة ـ في هذه البطولة الاجتماعية .

وقد نوه القاص بأحلام هذه الشرائح الاجتماعية في أن يكون لها نصيب عادل من الثروة أو السلطة ، كأن تصبح الولاية أو الحسبة أو غير ذلك من الوظائف من حق أحد هؤلاء العمال ، كما ورد على لسان كبير عياق مصر ، إذ يقول : « اعملني محتسبا صغيرا » [2] .

وتشير السيرة إلى حقوق هؤلاء العمال المنهوبة على أيدي أرباب الوظائف الكبرى في ضوء مقولة أحد خدام الزاوية في القاهرة « اعلم أني خادم بهذه الزاوية من مدة أربعين سنة ولي بها أربعة وظائف ، وقاد ، وكناس ، وملا ، وأقوم بالناس للصلاة ، ولي على ذلك كل شهر أربعة قروش آخذهم من مطبخة العسل لأنه وقف

---

[1] ابن الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان ، ج١ ، ص ٢٢٢ ، ج٢ ص ٣٥٨ ، ج٣ ، ص ٢٣٦ ، ص ٢٥٨ ، المصدر السابق ج٧ ، ص ٣٩٠ .

[2] سيرة الظاهر بيبرس : ج٥ ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٧٨ ، ص ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ج٨ ، ص ٤٥٤ ، ٤٧٠ .

لهذا المسجد ، وفيه رجل عنيد ملتزم يهودى يقال له عزار ولى عنده أجـــرة أربعـــة لشهر بستة عشر قرشا » [١] .

أضف إلى هذا أن القـــاص قـــد جعـــل مـــن كبـــير العيـــاق وهـــو « خـــاطف العمائم » والذى كـــان يـــأكل الخـــبز مـــن غـــير أن يدفـــع ثمنـــه للفـــران ــ أداة لإصلاح صور الانحراف داخل المجتمع حتى تصير القـــاهرة خاليـــة مـــن القـــاضى الظالم والتاجر الغشاش وشيخ العرب المنسر ، حتـــى « شـــاع العـــدل فـــى النـــاس جميعـــهم » [٢] .

ويبدو أن القاص قد اهتم بتجميع مختلف العناصر من العامة لمقاومة العنـــاصر الحاكمة التى عزلت نفسها عن مشكلات أهل البلد الأصليين ، وكانت مرحلة الإصـــلاح الداخلى ضرورة حتمية لمرحلة الإصلاح الخارجى مع القوى الصليبية ، والت لم يكـــن لعامة القاهرة دور يذكر فيها [٣] .

ولم تكتف السيرة بان يكون انتصار القوى الإسلامية على الصليبييـــن مرجعـــه التفوق العسكرى إذ أن المسلمين فى ضرب السيف « ليس لهم مثيل » [٤] ، بل تجنـــح السيرة إلى تفسير هذا النصر فى إطار القوى الغيبية والحيل كـــالتنجيم ، والســـحر ، والكرامات كأدوات أساسية توسل بها القاص لجمهور السامعين من العامة ليخرج بها الأحاديث عن أطوارها التاريخية إرضاء للذوق العامى فى تصور فكرة الصراع بيـــن الخير والشر ، ويعتبر « الحاج شيحه » من أهم العناصر التى لعبت دورا فـــى هـــذا المجال لمصلحة المسلمين ، إذ انه صاحب الملاعيب والحيل التى تفوق بـــها علـــى

---

(١) المصدر السابق : ج٤ ، ص ٢٦٧ ، ٢١٨ ، ج٥ ، ص ٢٩٦ .

(٢) نفسه : ج٤ ، ص ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٧٤ ، ج٦ ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٢ ، ج ٨ ، ص ٤٧١ .

(٣) من المعروف أن الحروب الخارجية التى خاضها الظاهر بيبرس ضد الصليبيين فى الشام لم تشغله عن الشئون الداخلية فى البلاد إذ حرص على إقامة العدل بين الرعية ، عن الموضوع محمد جمال الدين سرور ، الظاهر بيبرس وحضارة مصر (القاهرة ، دار الكتب ١٩٣٨م) ، ص ١٢٧ ــ ١٦٧ .

(٤) سيرة الظاهر بيبرس : ج ٢٠ ، ص ٥٧٦ .

الأعداء ، وقد جعلته السيرة من أولياء الله الصالحين الذين « يسكت بذكرهم الأطفال » [١] .

ويرى أحد الباحثين أن سيرة الملك الظاهر بيبرس ـ كنص فنى ـ تكثر فيها الواقعات تزدحم بالشخصيات التاريخية والخرافية ، وتتسع فيها رقعة الأرض لتكون مسرحا للمواقف والحروب التى لا نكاد نعرف لأحداثها نهاية ، ولا يجمعها خط عريض واحد يضبط سير الحوادث فيها [٢] .

وفى رأينا أن السيرة بما فيها من دلالات سياسية واجتماعية صيغت من خلال المواقف المختلفة التى أشرنا إليها هى نوع من الفكر الثورى لعامة القاهرة وقف دون حيز التنفيذ ، وتناقله الأجيال المتعاقبة ليكون صياغة واقعية فى المستقبل ، وهو ما أدركناه فى منتصف القرن الرابع عشر الهجرى / العشرين ميلادية [٣] .

وتمثل حكايات الشطارة فى العصر المملوكى المتأخر امتدادا تاريخيا لتطور الشطارة والعياقة فى سيرة الظاهر بيبرس .

ومما يذكر أن عصر المماليك الجراكسة شهد حالة من الفساد أجمع عليها المؤرخون [٤] ، إذ اصبح الوصول إلى تخت السلطة من حظ اللصوص وأرباب الحيل

---

(١) المصدر السابق : ص ٥٦٦ ، عن الموضوع عبد الحميد يونس ، الظاهر بيبرس ، ص ٩٦ ـ ١٠٠ ، وأحمد مرسى ، مفهوم الأدب الشعبى ، (الكويت ، عالم الفكر ، مجلد ١٧ ع١ ، سنة ١٩٨٦ ، ص ٧٧ ـ ٨٠) .

(٢) عبد الحميد يونس : المرجع السابق ، ص ١٣ ـ ٣٠ ويقسم السيرة إلى خمسة مراحل تنتهى بالمرحلة الخرافية والتى تشبه القصص المتأخرة فى روايات ألف ليلة وليلة .

(٣) نهاية حكم أسرة محمد على ، إذ ظل المصريون يتطلعون إلى البطل المصرى الملهم بقدراته العقلية والنفسية (الباحث) .

(٤) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٢١٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٢٩ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٤ ، ٨٩ ، ٩٠ .

« المناصف » ويصبح هؤلاء محل إعجاب السلطان الذى يقربهم إليه ويكتب لهم « جامكية وجراية » (١) .

وفى سيرة « على زئبق المصرى » تبدأ مرحلة متطورة فى الأفكار الاجتماعية للعامة والتى تتمثل فى انفراد الشخصية العامية بدور البطولة المطلقة فى الأحداث الجارية إذ أن ـ السيرة تذكر بعض الشخصيات التاريخية المألوفة لدى العامة بصرف النظر عن بعدها الزمانى والمكانى من مسرح الأحداث السياسية فى العصر المملوكى مثل « هارون الرشيد » .

ويواجه البطل المصرى « على » عديد من المواقف الصعبة والمعقدة إلا أنه يتمكن من الإفلات من كل المكائد التى يتعرض لها ويهرب من أعدائه « بطريقة سلسة وتلقائية كما يهرب الزئبق » .

ويرى أحد الباحثين أن المغالطات التاريخية من جانب القاص فى هذه السيرة بقصد إلصاق الأحداث المعاصرة بالشخصيات غير المعاصرة تسترا وراءها من فساد الأنظمة والتى لم تحقق للعامة الأمن والاستقرار (٢) .

بل إن القاص عمد إلى إدارة الأحداث على محور القاهرة بغداد لتأكيد هذا المعنى المشار إليه من ناحية ، وإشباع خيال العامة فى التعرف على بيئة لم يشاهدوها أو يسمعوا عنها من قبل إذ أن البيئة القاهرية بعاداتها وتقاليدها وتعبيراتها وتنتقل مع شطار نصر إلى العراق (٣) .

ومن المفيد الإشارة إلى إقحام بعض الشخصيات التاريخية العربية فى إطار أرباب الحيل والمناصف فى إطار التزاوج بين البيئة المصرية المعاصرة والبيئة العربية فى مواجهة التحديات الماثلة فى ذلك الوقت (٤) .

---

(١) ألف ليلة وليلة : ص ١١٥٦ ، ١١٨٦ .
(٢) فاروق خورشيد : أضواء على السيرة الشعبية (بيروت ، مطابع إقرأ ، بدون تاريخ) ص ٩٩ . ١٠٠ .
(٣) سهير القلماوى : ألف ليلة وليلة (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦) ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .
(٤) ألف ليلة وليلة : ص ١١٨٦ .

وإذا كان الخيال القصصى قد نقل أحداث السيرة من القاهرة إلـــى بغـداد إلا أن القاص ظل متعلقا ببلده مصر « وقال له يا سقاء من أين أنت ؟ » قال من مصـــــر ، فقال له : حيا الله مصر وأهلها (١) .

وتبدو معالم مدينة القاهرة فى العصر المملوكى واضحة فـــى أحـداث السـيرة بأحيائها الشعبية المعروفة لدى العامة مثل الدرب الأحمر والشرابية والخانكة والتـــى لا تزال تحمل أسمائها إلى الآن (٢) .

ولقد توقفت السيرة الشعبية مع المصادر الرسمية فى تحديد أسـباب الوصـول إلى أعلى مناصب الدولة عن طريق الحيلة والشطارة والبذل للسلطان دون النظر إلـى الكفاءة والصلاحية لتولى مثل هذه الوظائف التى تتصل بمصالح العامة مما أدى إلـى شيـوع الظلم والفساد بين الناس ، « فتخطى لأجل ذلك كل جـاهل ومفسـد وظـالم وبالغ على قول المعاصرين » (٣) .

ويذكر أحد مؤرخى العصر المملوكى المتأخر أن الرشوة كانت شـرطا أساسـيا لمن يتولون الوظائف والأعمال حتى صارت ثروة السـلطان تجمـع مـن الأوبـاش والأراذل عن طريق البذل والبرطلة (٤) .

وقد أشارت السيرة إلى أهمية « المناصف » فى تقريب العامة من بلاط الحـاكم وكذلك مبدأ « الغلبة » للوصول إلى أكبر الوظائف فى الدولة ، تذكر السـيرة علـى لسان رئيس الفتيان أنه وصل إلى وظيفة « مقدم الديوان بالقوة والغلبة على مقـدم الديوان السابق . » ... ، والذى نعلمك به أننى تعقبت صلاح الدين المصرى ــ مقدم ديوان مصر ــ ولعبت معه مناصف حتى دفنته بالحيا ، وأطاعتنى وصبيانه (٥) .

---

(١) ألف ليلة وليلة : ص ١١٥٥ .
(٢) المصدر السابق : ص ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٦ .
(٣) المقريزى : إغاثة الأمة ، ص ٤٣ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٤ ، ص ٥ ، ٦ .
(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٤٥٧ .
(٥) ألف ليلة وليلة : ص ١١٥٦ .

وتضع السيرة جرائم الشطار فى ميزان الشجاعة والمروءة والكرم إذ أنهم يلجئون إليها لتحقيق مآربهم وكذلك مآرب العامة الذين يحتاجون إليهم كلما دعت الضرورة إلى ذلك كى يفكوا عنهم اصرهم من الدين والغلبة (١) .

وتبرز السيرة نسبية الشطارة من خلال صور التنافس بين أرباب الحيل والمناصف بغية الوصول إلى بلاط السلطان « طمعا فى حوائج الناس » (٢) .

وتذهب إحدى الباحثات إلى تصوير مناصف الشطار فى معرض الرشوة الحاكمية لبعض العناصر لتحقيق أمنهم السياسى فى مواجهة مظاهر السخط والتمرد من جانب العامة وان كان القاص قد حرص على أن يجنب العامة تلك الفئة ، وان ينفى عنهم مالا يلائم طبيعة السامعين كالقتل والإيذاء البالغ لأحد من الناس ، بل إن الشطار كانوا حريصين على رد المسروقات لأصحابها من العامة (٣) .

وهكذا تُظهر السيرة الشطار فى ثوب يسرْ أعين العامة فى تخيلهم لصورة البطل « على زنبق » فى التعامل مع العامة الكادحين من أرباب الحرف الصغيرة كالسائقين والمزينين والبغالين ، والصباغين ، والسماكين ، والسياس ، والجزارين ، وغيرهم (٤) .

وفى تصورنا أن رؤية القاص العصر المملوكى المتأخر باعتبار أن القائمين على حكم مصر كانوا فى نظر العامة عصبة من المفسدين واللصوص والزناه على قول أحد المعاصرين ــ هى التى دفعت القاص إلى استبدال العناصر المصرية بالعناصر المملوكية فى البلاط السلطانى وإلباسها نفس الصفات التى اتخذها المماليك وسيلة لبلوغ أهدافهم وتحقيق مصالحهم على حساب الأغلبية من العامة .

---

(١) ألف ليلة وليلة : ص ١١٥٥ ــ ١١٥٨ .
(٢) المصدر السابق : ص ١١٥٠ .
(٣) سهير القلماوى : المرجع السابق ، ص ٢٣٨ .
(٤) ألف ليلة وليلة : ص ١١٥١ ــ ١١٦٣ .

ومن المعروف أن علمة القاهرة قد عبّروا عن ارتياحهم لتولى المماليك حكم مصر تحت ستار الخلافة الإسلامية ، واستبشروا بحكم السلطان الظاهر بيبرس ونادوا « بخلود أيامه » لما احتوت عليه خطبة البيعة التى ألقاها الخليفة العباسى من أوامر للسلطان أن يحكم بين الناس بالعدل وأن يرفع عنهم الضيم ووطأة العيش ، وغير ذلك من الأمور التى يتطلع إليها العامة ، ويناهضون أرباب الحكم من أجلها [١] .

وقد أشارت البابة الأولى فى رواية طيف الخيال إلى مدى الازدواج فى الشخصية المملوكية الحاكمة ، وذلك من خلال عرض نماذج ومشاهد ماجنة لمجتمع السلاطين تتسم بالمبالغة والغلو إلا أنها تتفق فى مضمونها مع الواقع التاريخى لحياة أرباب القصور فى هذا العصر [٢] .

وقد ذكر ابن إياس فى هذا المعنى ، أن حب الخلاعة والمجون والميل إلى شرب الخمر والمخدرات وتقريب المغانى وأرباب الفن وغير ذلك من المنكرات لم يمنع حب السلاطين للعلم والفقه والانقياد للشرع [٣] .

وفى البابة الثانية (عجيب وغريب) يتحول المؤلف من الرمز السياسى إلى الرمز الاجتماعى ، فيعرض لجانب اجتماعى هام يتعلق بالعامة الذين يضطرهم الفقر والعوز وضيق ذات اليد إلى ممارسة صنوف الحرف الرديئة التى تقوم على الحيل والشعوذات وأساليب الاستجداء [٤] .

ويرى أحد الباحثين أن أدب الاستجداء الذى شاع فى هذا العصر يمكن التعرف عليه فى ضوء المؤثرات الدينية والفلسفية والمذهبية التى انتقلت إلى القاهرة فى

---

[١] المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٧ .

[٢] ابن دانيال : طيف الخيال ، ص ٩ ، ٨ ، ٧ ، ص ٤٠ ـ ٤٩ .

[٣] ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٦٠ ـ ٦٢ .

[٤] ابن دانيال : المصدر السابق ، ص ٦٧ ـ ١١٠ .

أعقاب سقوط الخلافة العباسية مرورا بدمشق لتختلط بجذور الثقافة العامية ، ولتصبح جزءاً من مكونات الفكر الاجتماعى لمختلف فئات المجتمع المصرى [١] .

ويعتبر أدب التمثيل الفكاهى من أهم المصنفات الفنية التى ذاع فى عصر سلاطين المماليك بين الخاصة والعامة على السواء .

ومن أهم هذه المصنفات رواية « طيف الخيال » لابن دانيال والتى وصفتها المصادر المعاصرة بأنها مصنف فى النكت الغريبة العجيبة ، وأن المصنف مثال صارخ فى المجون والدعابة [٢] ، إذ صاغ من أحداث البيئة الماثلة مادة للفكاهة والترويح عن العامة فى ضوء المتغيرات السياسية فى المنطقة العربية فى عصر الحروب الصليبية ، وفى هذا المعنى يقول ابن دانيال عن كتابه الذى « لم يصنف مثله فى معناه » [٣] .

« يوجد فى الإسقاط مالا يوجد فى الإسفاط [٤] ، على كل أسلوب طريقة وتحت كل خيال حقيقة ... ، » « وفى الهزل راحة من كلال الجسد » [٥] .

ومما يذكر أن صاحب طيف الخيال حضر إلى القاهرة فى أعقاب نقل الخلافة العباسية من العراق إلى مصر ، وكان الخليفة فى ظل الحكم المملوكى ذا وظيفة اسمية إذا اقتصر دوره على بعض الأمور الشكلية والتى أشار إليه أحد المعاصرين بحيث لم يكن له من الخلافة « سوى الاسم » [٦] .

---

(١) فاروق خورشيد علم الأدب الشعبى ، ص ٧ ــ ٢٦ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٩ ص ٢١٥ .

(٣) المقريزى : السلوك ج٢ ق١ ، ص ٩٥ ، ابن إياس : بدائع الزهور ج١ ق١ ، ص ٣٢٦ ، ص ٣٣٠ .

(٤) الأسفاط : مفردها السفط وهو وعاء الطيب ونحوه مما تستعمله النساء (المعاجم اللغوية) .

(٥) ابن دانيال : طيف الخيال ، ص ٦ .

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ج٣ ، ص ٢٧٥ .

وتبدو شخصية الخليفة فى رواية طيف الخيال نموذجا للهزل والتسرية عن عامة القاهرة ، الذين عانوا شظف العيش فوجدوا فى هذا النمط الفنى ما يخفف عنهم هذا العناء من خلال الصور والأصوات والتعبيرات التى تداعب خيالهم وترضى ذوقهم الفنى ، إذ أن المواقف الفكاهية فى الرواية تتسق مع الرؤية المعاصرة لواقع الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

يقول المؤلف تعقيبا على مبايعة الخليفة العباسى للسلطان الظاهر بيبرس فى شعبان سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م « ... ، وجعلناه أميرا على مساخره الجمهور ، وأضفنا إليه من الولايات ما يأتى ذكره من خراب ، ... » (١) .

ويمكن ملاحظة هذه المؤثرات من خلال ما عرف باسم « أدب المقامات » فى الفترة السابقة لهجرة الأدباء والشعراء إلى مصر فى أعقاب سقوط الخلافة العباسية فى بغداد ، وهو ما أشار إليه ابن دانيال فى معرض النصح والإرشاد لأهل الحاجة والمسكنة إذ يقول :

« خذوا من المزاح بقدر ما يعطى الطعام من الأملاح ، وسيروا فى البلاد انصبوا الشباك على العباد ، ... وأركبوا غوارب الإلحاح ، والبسوا دروع الوجوه الوقاح ، وتعاموا مبصرين ، وتتطارشوا سامعين ، وتعارجوا فالسبق لذى العرج ، وتخارصوا فإنه لسان الفرج ، وركبوا على جلودكم المسلوخة ، وحثوا على الإحسان بالطلب فى الشوارع ولتكن أفخر ملابسكم الأسمال وأكثر همكم فى جمع المال ، ... » (٢) .

وقد سبقت الإشارة إلى أن مدينة القاهرة فى عصر المماليك قد ازدحمت بأعداد الشحاذين الذين أثاروا انتباه الرحالة والزائرين الأجانب

---

(١) ابن دانيال : المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٢) ابن دانيال : المصدر السابق ، ص ٧٥ ، ٧٦ ، قارون ، مقامات الحريرى (المقامة الساسانية رقم ٤٩ ، ط باريس) ج٢ ، ص ٤٤١ .

الوافدين على القاهرة من مختلف أنحاء العالم بل إن أحد المصادر المتأخرة تشير إلى مدى انتشار هذه الظاهرة في العاصمة المملوكية حتى أن الأوامر قد صدرت من شيخ الحرافيش بمنع الجعيدية من الشحاذة في القاهرة ما عدا « العميان وذوى العاهات فقط » [١] .

والحقيقة أن أدب التمثيل الفكاهى فى هذا العصر قد تجاوز فى مضمونه حد التسلية ليصبح أداة تعبيرية بالقول والشكل عن بعض الجوانب الاجتماعية والسياسية فى مصر المملوكية [٢] ، ونلاحظ أن الرواية تهتم إلى حد كبير بمشكلة البطالة والتى تبدو فى ضوء تحول بعض أرباب الحرف والصنائع الإنتاجية إلى بعض الحرف التى تعتمد على وسائل النصب والاحتيال ، تلك الحرف التى ذكر المؤلف الدوافع المؤدية إليها من جانب بعض العامة إذ يقول : « لما حال الحال ومال المال وذهب الذهب وانقطع السبب تركنا العمل ومللنا إلى الراحة والكسل وانفردنا بتدبير الحيل وتفرقنا فى تلك الفرق » [٣] .

وتتناول الرواية بعض الجوانب الاجتماعية المرتبطة بالأسرة المصرية والعلاقة بين الزوجين وما سبق ذلك من مقدمات كالخطوبة وحفل القران ، إذ ينتقل المؤلف من طور العبث والمجون فى البابة الأولى إلى طور الأدب والحشمة فتتحول « أم رشيد القوادة » إلى وظيفة الخاطبة لتلبى حاجة المشاهد فى رؤية حفل الزواج وما يسبقه من إجراءات فى إطار الرغبة الإنسانية فى المتعة الحلال واستكمال عرى الإيمان لأن « التناكح سن الوجود ببقاء النسل ، وهو العاصم من الأوزار والدخول إلى النار ونتائجه الأولاد والسادة الأنداد يعمرون الديار وينصرون بالإكثار ويدرك

---

[١] ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ١٨٥ ، سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ٣٨ .

[٢] يعتبر فن خيال الظل ذو وظيفة قومية فى هذا العصر إلا أنه فى العصور اللاحقة تحول إلى الوظيفة الترفيهية البحتة فيما عرف بفن « القرة جوز » ، عبد الحميد يونس خيال الظل ، ص٥، ورشدى صالح ، الفنون الشعبية ، ص ٥٩ ــ ٦١ ، والموسوعة العربية الميسرة (القاهرة ، دار القلم ، ١٩٦٥) ، ص ٧٦٩ .

[٣] ابن دانيال : المصدر نفسه ، ص ٦٧ ، ٧٠ ، ٧١ .

بهم الثأر ويقال بهم العثار ... ، والزوجة المباركة هى الحافظة للعيال والجامعة للمال والمعدة لحسن المآل والمولدة للطعام والممهدة للمنام ، وهى مشتكى الحزن ومستودعة السر والعلن والمساعدة على الأغراض والمعللة من الأمراض والخليلة الصاحبة ، النائحة النادية ، المسامرة الضجيعة ، المطية المطيعة ، وبعد ذلك ينعقد القرآن بحضور الولى والشهود [1] .

كما تعرض مشهدا لزفة العروس يتقدمها المغانى والشمع ومن خلفها البوقات والطبول ثم يكشف العريس بعدها أن الخاطبة وهى « تعرف كل مليحة بمصر والقاهرة » قد خدعته إذ أن العروس قبيحة الشكل [2] ، وهو ما يكشف عن بعض العادات التى مازالت موجودة فى بعض البيئات الشعبية المصرية حتى يومنا هذا .

والواقع أن الابتذال اللفظى الشائع فى نصوص الرواية لا سيما فى البابة الثالثة والتى تعرض لمشاهد « العشق المحرم » بما فيها من إشباع لخيال العامة ــ لا يقلل من إبداع هذا العمل الفنى وتأثيره المباشر فى الحس العامى فى إطار الصراعات المادية والنفسية لأبناء المجتمع الواحد ، وقد أعرض أحد الباحثين المحققين لرواية طيف الخيال عن ذكر بعض العبارات المبتذلة التى تتناول بعض التعابير والإيحاءات الجنسية التى تثير الاشمئزاز فى نفوس القراء [3] .

وعلى أية حال فإن المؤلف كان حريصا على تنبيه العامة إلى الدلالات السياسية والاجتماعية فى روايته وفى هذا المعنى يقول :

خيالنا هذا لأهل الرتب ... والفضل والبذل لأهل الأدب
حوى فنون الجد والهزل ... فى أحسن سمط [4] وأتى بالعجب
فانظره يا من فهمه ثاقب ... ففيه للعرفان أدنى سبب [5]

---

(١) ابن دانيال : المصدر السابق ، ص ٢٩ ، ٣٣ ، ٥١ .
(٢) نفسه : ص ٢٩ ، ٤٨ ، ٤٩ .
(٣) إبراهيم حمادة : خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال ، (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٦٣) ، ص ١٤٩ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ٢٣٨ .
(٤) السمط : العقد ، أو الخيط وقد انتظم فيه الخرز أو القلادة المنظومة ، (المعاجم اللغوية) .
(٥) ابن دانيال : المصدر السابق ، ص ٢ .

كما حرص المؤلف على أن يختم كل بابة بعبارات التوبة والاستغفار إرضاء للوازع الدينى فى نفوس العامة ، وقد غلبت هذه الخاتمة التصوفية على نهايات الروايات الشعبية المصرية بوجه عام ، والتى يبدو أنها دمجة فنية قصد بها الاستجداء فى نهاية كل مشهد كى يتنافس جمهور العامة فى الإحسان إلى صاحب الخيال وإجزال العطاء إليه ، ومن أمثلة ذلك ما يقوله صاحب الخيال على لسان الأمير وصال « ... ما بقى إلا الارتحال وقد عزمت على الحجاز ، وخرجت بالحقيقة عن المجاز وقصدت غسل هذه الآثام بماء زمزم والمقام ، ونويت زيارة سيد الآنام (صلى الله عليه وعلى آله الكرام) » [١] .

ويقول كذلك :

والله لولا خشية الملال	لقلت بها منقطع المقال
ما فيه من مستغرب الأمثال	لكن أخوتى ذوو أفضال
قد حاولوا حقيقة الخيال	وألزمونى ذلك السؤال
فقلت لهم ذلك بأمتثال	مستغفرا ربى ذا الجلال

لى ولذلك الشيخ دانيال [٢]

وتعتبر فنون العمارة والتصوير والنحت من الفنون الكبرى التى برع فيها عامة القاهرة من أرباب الحرف والصنائع ، كالجوامع ، والمدارس ، والخوانق ، والحمامات ، والوكالات ، والأسبلة والتى ظهر فيها التنوع والإتقان والأناقة فى شتى العناصر المعمارية من واجهات ومنارات وقباب وزخارف جصية ورخامية .

ويبدو أن ازدهار العمارة الدينية فى القاهرة يرجع إلى رؤية المجتمع لها فى ضوء تعاليم الدين الإسلامى ، سواء من حيث المنهج الفنى الذى

---

[١] نفسه ، ص ٦٦ ، ص ١١١ ، ص ١٣٣ ، قارن ، ألف ليلة وليلة ، ص ١١٨٨ ، ص ١٣٩٩ .

[٢] ابن دانيال : المصدر نفسه ، ص ١٠٩ .

أوحى به القرآن إلى الفنان المسلم فيما شيده من العمائر ، أو المنهج الأخلاقى والذى يتمثل فى إتقان العمل وابتغاء المثوبة التى وعد الله بها العاملين من عباده [١] .

وقد ساعد على هذا الازدهار العمرانى فى العصر المملوكى الأول ما كانت تدره الانتصارات الحربية من غنائم وأموال غطت النفقات العسكرية من ناحية وأثرت السلاطين ، والأمراء من ناحية أخرى ، فتنافسوا جميعا فى بناء هذه المنشآت [٢] .

وتتمثل براعة الصانع المصرى فى هذا المجال فى ابتكاره لأساليب فنية جديدة اختلفت عن الأساليب التقليدية (البيزنطية والساسانية) فى نماذجها ومن أمثلة ذلك مآذن الجوامع التى تميزت بالتناسق والانسجام مع مختلف عناصر البناء يدل على ذلك جامع السلطان الناصر محمد ابن قلاون بالقلعة فى القاهرة والذى بناه سنة ٧١٨ هـ ، وأعيد تجديده فى سنة ٧٣٥ هـ [٣] .

وقد بدت مهارة الصانع فى الأعمدة الجرانتية ذات التيجان المذهبة والأكتاف المغطاة فى بعض أجزائها بالفسيفساء ، وأيضا فى أبواب الجامع ومنابره والتى استخدم فيه الصانع أسلوب الحفر على العاج والعظم والذى ارتقى فى الفترة ما بين منتصف القرن السابع وبداية القرن التاسع الهجرى [٤] .

أضف إلى هذا الخزانات والدكك والكراسى والتى يوجد عدد كبير منها حتى الآن فى العمائر والمتاحف الإسلامية بالقاهرة [٥] .

---

[١] أشار الحديث النبوى الشريف إلى أن « من بنى بيتا لله بنى الله بيتا له فى الجنة » ، صحيح مسلم ، ج٨ ، ص ٢٢٣) ، أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية ، ص ٢١٠ ، ٢٣٠ .

[٢] سعيد عاشور : العصر المملوكى ، ص ٣٧١ ، ٣٧٢ .

[٣] ديماند : الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد عيسى (القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٤ ص ١٠٩ – ١١١) .

[٤] زكى حسن : فنون الإسلام (القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط١ ١٩٤٨) ص ٧٩ .

[٥] ديماند : الفنون الإسلامية ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

أما فن النحت فى الحجر والرخام والجص فقد بلغ فيه الفنان القاهرى شأوا عظيما كشفت عنه الزخارف والنقوش التى تحلى جدران وأسقف المنشآت المعمارية المختلفة ، فضلا عن المقرنصات وصنجات والعقود المعشقة والألواح الرخامية ، والفسيفساء ، والمنحوتات الحجرية والجصية فى الزخرفة الداخلية ، وقد نحتت تلك الزخارف نحتا غائرا ، واقتصرت فى أغلب الأحيان على الأشرطة والألواح المنقوشة التى زين بها المبنى حسب التصميم ، وتعتبر الزخارف الجصية التى مازالت موجودة فى مسجد الظاهر بيبرس من الأمثلة الدالة على ذلك ، كما تعدّ النقوش الحجرية التى يزدان بها مدخل مدرسة السلطان حسن مثالا رائعاً على ما بلغه فن النحت فى العصر المملوكى الأول [١] .

وقد تميز فن النحت والحفر فى هذا العصر بكثرة الأشكال النباتية والحيوانية على الألواح الرخامية ، وكذلك الزخارف النباتية التى تحلت بها المنابر الرخامية ، والزخارف الجصية التى ازدانت بها الشبابيك الداخلية المصنوعة من الجص داخل الجوامع [٢] .

وقد أبدع الفنانون فى مدينة القاهرة فى صناعة القطع التى ارتبطت بهذه المنشآت الدينية أو المدنية ، والتى صاغها الصانع من المواد الخام المختلفة المتوفرة فى عصره من المعادن والأخشاب وغيرها .

فمن البرونز (النحاس الأصفر) صنعت الآنية الجميلة وحوامل العطور ، والصناديق ومجلدات المصاحف ، والمناضد الصغيرة ، والتى كانت فى غالب الأحوال تشكل بطريقة رائعة وتطعم بالفضة .

أضف إلى هذا المشكاوات والمصاحف المخطوطة بالذهب أو الفضة [٣] .

---

(١) ديماند : المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٢) زكى حسن : المرجع السابق ، ص ٦٣٨ ، ٦٣٩ .

(٣) Lane poole: History of gypt, P. 314.

ومن أبرز الصناع للمنتجات الخشبية فى الجوامع أحمد بن عيسى الدمياطى ، وهو الذى صنع المنبر الموجود الآن فى خانقاة الأشرف برسباى ، وقد نقل إليه من جامع الغمرى الذى تم بناؤه فى سنة ٨٤٣هـ . وكذلك « على بن طنين » الذى صنع منبر مسجد « أبو العلا » فى القاهرة ، ويرجع هذا المنبَر إلى سنة ٨٩٠هـ ، ويمتاز بحشواته المطعمة بالسن والزرتشان وبالزخارف الهندسية [١] .

وتؤكد بقايا الآثار المنبرية فى متحف فكتوريا وألبرت والتى تعود إلى عهد السلطان قايتباى (ت ٩٠١هـ) [٢] تفوق الفنان المصرى فى فنون النحت والحفر وتشكيل القطع الفنية من الأخشاب والمعادن .

كما أسهم النجارون والخراطون المصريون فى إثراء الفن المعمارى فى العصر المملوكى بما خلفوه من تحف متنوعة مزخرفة بأساليب مختلفة متعددة فى الحفر والتطعيم والترصيع بالعاج والأبنوس والزرتشان فضلا عن الزخرفة بالخرط وعمل الشبكيات والتلوين والتذهيب من الأساليب الفنية .

ولقد حفظت المساجد والمدارس والأضرحة وغيرها الكثير من الأبواب والأسقف والستائر الخشبية فضلا عن المنابر الدكك والكراسى والموائد وحوامل قارئى القرآن ، وصناديق حفظ هذا الكتاب المقدس ، وغير ذلك من التحف الخشبية والتى تميزت بالأشكال والتقسيمات الهندسية .

وقد احتلت الزخرفة الهندسية مكان الصدارة فى العمارة الدينية وانتشرت الأطباق النجمية الكاملة أو أجزاء منها فى زخرفة الأبواب والمنابر وما شابه ذلك من الأمثلة المعمارية [٣] .

---

(١) زكى حسن : فنون الإسلام ، ص ٤٧٠ .

(٢) Thomas: OP. Cit., P. 141.

(٣) حسن الباشا : القاهرة ، ص ٣٦٧ .

ومما يذكر أن الزخرفة التصويرية على الأخشاب والمعادن والزجاج والخزف كانت نادرة فى العمائر الدينية ، قياسا على المنشآت الأخرى كالقصور والحمامات (١) .

ومما يفسر لنا طبيعة العلاقة بين التدين الشعبى والفنون العمرانية فى مساجد وغيرها من البيوت الإسلامية والتى بلغت حد الاهتمام بأحواض الوضوء ذات الحوامل الرخامية المحلاة بالأرابسك والنقوش والزخارف الكتابية (٢) .

كما عرف الفنان العامى الرسم والزخرفة على الخزف وقد نجح فى أن يجمع بين الشكل الجمالى والوظيفة المخصصة للقطعة الفنية .

وقد شاع بين عامة القاهرة لستعمال الأوانى الخزفية الرخيصة التى لم يتم حرقها جيدا ، بينما كانت الأنواع ذات الزخارفية الكتابية أو النباتية أو الحيوانية والألوان الزاهية تستعمل فى بيوت الأمراء المماليك (٣) .

ومن أعلام الخزفيين بالقاهرة فى القرن الثامن الهجرى (١٤م) « غزال » والذى يبدو توقيعه ، على قطع كثيرة من خزف هذا العصر (٤) و « غيبى » الخزاف المصرى المشهور فى عصر سلاطين المماليك (٥) .

---

(١) أحمد عبد الرازق : الحضارة الإسلامية ، ص ٢١٧ ، ولمزيد من التفاصيل عن زخرفة المنتجات الخشبية والمعدنية ، زكى حسن ، فنون الإسلام ، ص ٥٥١ ، ٥٥٣ ، حسن الباشا ، المرجع السابق ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

(٢) لا تزال الكتابات القرآنية تحتل مكان الصدارة فى الأعمال الفنية على أسطح العمارة الدينية بما فى لك المناضد والكراسى ، والشمعدانات وغيرها ، أرنست كونل ، الفن الإسلامى ، ترجمة أحمد موسى ، (القاهرة ، مطبعة أطلس ، ص ١١٩ ، ١٢٠) .

(٣) سعاد ماهر : الخزف التركى (القاهرة ، مطابع مدكور ، ١٩٦٠) ، ص ٨٦ ـ ٨٧ ، ديماند : الفنون الإسلامية ، ص ٢٢١ .

(٤) زكى حسن : ص ٣٢٣ .

(٥) ديماند : المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

ويبدو أن تدهور هذه الصناعة فى القرن التاسع (١٥م) أمام الغـزو الأسـيوى لأسواق القاهرة لم يحفز الصانع المصرى على تدوين اسمه على الأوانى التى أنتجها لعدم جودتها سواء من حيث أسلوب الصناعة أو من حيث الزخرفة [١] .

وتبين لنا بعض التعبيرات المأثورة المدونة على عدد من القطع الفنيـة مـدى العلاقة بين النتاج الثقافى للعامة والقيم الاجتماعية السائدة داخـل المجتمـع والتـى تحبب أفراده فى رؤيتها ، واقتنائها دون غيرها من المنتجات ، وكلها تدور فى إطـار « الصبر » و « البركة » والرضا بالمكتوب [٢] .

ولعل استعمال الفنان العامى لمفردات اللغة فى مضاعفة الأثر الفنى لإنتاجه يدل على وحدة الذوق الثقافى بين العامة فى الممارسات القولية أو العملية [٣] .

وقد وجدت بمدينـة الفسـطاط ـ عاصمـة مصـر الإسـلامية ـ مجموعـة من الأحجبة ، والطلاسم التى يرجـع أنـها صنعـت بيـد الفنـان الشـعبى لتلبيـة بعض المعتقدات الدينية لدى العامـة إذ أنـها تجلـب لـهم الخـير وتمنـع عنـهم الشـر [٤] .

وقد جرت العادة أن تكتب الأحجبة بالأحبار ذات الألوان المختلفـة كـالأحمر أو الأخضر ثم تطبق وتوضع فى قطع من الجلد ، تعلق فى الرقبة أو تكون تحت الثياب ، ولا تزال الأحجبة والتمائم رواجا بين العامة ، والتى صارت لونا من ألوان المعرفـة تناولته أقلام الكتاب بدعوى أنها تقضى حاجات الناس [٥] .

---

(١) ديماند : الفنون الإسلامية ، ص ٢٢١ ــ ص ٢٢٤ .

(٢) حسن الباشا : القاهرة ، ص ٣٢٣ ــ ص ٣٢٤ .

(٣) عن هذا الموضوع ، انظر ، أروين إدمان : الفنون والإنسان ، ترجمة حمـزة محمـد الشـيخ (القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٥) ، ص ٥٤ ــ ص ٦٨ .

(٤) سعد الخادم : تصويرنا الشعبى خلال العصور ، (القاهرة ، ١٩٦٣) ، ص ٨٣ ، رشدى صالح الأدب الشعبى ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٥) أحمد أمين : قاموس العادات ، ص ٢٥ .

ولم تقتصر الرسوم السريعة والتخطيطات الآدمية والحيوانية والهندسية علـــى كتابة الأحجبة بل امتدت لتشمل كافة المنتجات التى يحتاج إليها العولم بصفة اعتيادية الحصير ، والكليم ، والمراكب الشراعية والتى نرى بعضا من هذه الرسوم الهندسـية حتى اليوم على العربات (الكارو) حيث تتخذ أشكالا هندسية متباينة مثل المثلـث أو المعين والحواجب أو على هيئة حروف عربية متشابكة ومتكررة كأنها أنـــواع مــن الزخارف المنتظمة الغير طبيعية ، أضف إلى هذا الزخارف التى توجد على الســـلال والمقاطف والطواقى والتى تأثرت إلى حد كبير بزخارف المخطوطات وغيرهـــا مــن الرسوم التى صورت لنا عالم الأدب الشعبى كصورة تطــاحن الفرســان فــى ســيرة الظاهر بيبرس ، وغيرها من السير الشعبية ، وكذلك الرسوم التى لم تزل نراها علـى بعض المقابر والبيوت فى الأحياء الشعبية فى القاهرة [١] وســـائر المــدن والقــرى المصرية .

وقد برع الفنان القاهرى فى الكتابة داخل الدوائر بالخطوط المختلفة وأهمها خط الثلث والذى تميز بحروفه الكبيرة وألفاته ولاماته (حرف أ ، حرف ل) التى كـــانت ترتفع إلى أعلى فى حين تبسط الحروف الأفقية وتنزل إلى أسفل مما يحقق التــوازن والتقابل بين الأحرف .

وقد قام هذا الخط بدور زخرفى هام فى شتى العمائر فى العصـــر المملوكــى ، والمنتجات الفنية كصناعة الزجاج والمعادن والخشب والخزف وغيرها ، واشترك مع الخط الثلث المملوكى الخط الكوفى فى أعمال الزخرفة [٢] .

ويبدو أن اهتمام الصانع اليدوى بتزيين المنتجات بالآيات القرآنية والعبـــارات الدينية والصيغ الإنشائية فى المدح والدعاء ــ والتى لا تزال آثارها حتى اليوم علــى جدران المساجد والعمائر المدنية والأوانى المعدنية والزخرفيـــة والخشــب والعــاج

---

[١] سعد الخادم : المرجع السابق ، ص ٧٥ ، ٧٦ ، ص ٨٣ ، ٨٤ ، ص ٢٣ ، ١٢٤ .

[٢] حسن الباشا : القاهرة ، ص ٢٧٩ ، أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية ، ص ٢٢١ .

والمنسوجات ـ ترجع إلى رؤية الناس لبعض الدلائل العقيدية ومنها « القرآن » بما يمثله هذا الكتاب من قيمة معنوية لا تنفذ إذ أن لحروفه العربية أسرارا خفية يتمثلها عامة المصريين بغرض جلب الخير والبركة والتى تشرح صدورهم فى إطار ما يلاقونه من صور المعاناة اليومية (١) .

وجدير بالذكر أن الخط العربى كان محل اهتمام المماليك ، فكان أول ما يتعلمه الحدث المملوكى هو كتابة « الخط الحسان » (٢) ومما أتاح للخطاطين مكانة اجتماعية تفوقوا فيها على "المصورين" الذين حامت حولهم الشبهات فى ضوء بعض التعاليم الدينية الاستباطية التى تحرم الأعمال الفنية المرسومة (٣) .

وتشى بعض النصوص المحفورة على أسطح بعض القطع بآثار التصرف والتى تكشف عن سمة التناقض بين قيمة الإبداع الفنى للصانع المصرى ، وقيمة الكسب نظير ما يقدمه من أعمال إبداعية والتى لم تتناسب مع هذه القيمة .

يقول الصانع مخاطبا قطعة فنية « المسرجة » :

« أسرجى حولك وأنطفى وبنا لطفك » (٤) . كما حرص على إثبات هويته من خلال تدينه وزهده فى الحياة ، بكتابة بعض العبارات التى توحى بذلك :

« العبد الفقير إلى الله تعالى الراجى عفو ربه الكريم على بن طنين بمقام سيدى أبو على نفعنا الله به » (٥) .

---

(١) أحمد عبد الرازق : المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

(٢) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٢١٤ ، وقد أشرت السيرة الشعبية لهذا المعنى ، (سيرة الظاهر بيبرس) ، ج٢ ، ص ٨٣ .

(٣) أحمد عبد الرازق : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ ، ولمزيد من التفاصيل ، نفسه ، ص ٢١٢ ، ص ٢١٧ أرنست كونل : الفن الإسلامى ، ص ١١٩ .

errit. P. Judd: A History of civilization, P. 118.

(٤) حسن الباشا : القاهرة ، ص ٣٢٤ .

(٥) زكى حسن : المرجع السابق ، ص ٤٧٠ .

وقد اعتاد بعض الصناع أن ينقشوا أسماءهم على معروضاتهم الفنية على استحياء منهم إذ أنهم يرجون النفع والمثوبة من الله ببركة هؤلاء الأولياء .

ومن أمثال هؤلاء « أبو العز » و « أحمد بن عيسى » و « على بن طنين »[1] و « قلسم » ، و « مصرى » [2] ، وغيرهم من الفنانين القاهريين .

ويبدو أن فن التصوير قد تأثر إلى حد كبير ببعض المفاهيم الدينية لدى العامة إذا اعتبروا التصاوير من المحرمات مما دفع الفنان إلى الصور النباتية والهندسية والتى انفرد بها الفن الإسلامى وإن كان قد تأثر بالطرز الفنية الصينية [3] .

ومن المنتجات الشعبية فى العصر المملوكى التى تأثرت بالطبيعة الاجتماعية القاهرية « الحلى » بزخارفها المفرغة كالدنتلا والأسلاك الذهبية ذات الأشكال الهندسية البديعة .

وقد تأثرت هذه المنتجات بالنماذج الصينية التى بدأت تظهر تدريجيا فى ظل التراجع المصرى فى كافة المناحى الاقتصادية [4] كما أسلفنا القول .

وكان بعض الصناع القاهريين يحرصون على إثبات ولائهم السياسى من خلال تدوين بعض العبارات التى تشيد بالسلطان وتدعو بالنصر على أسطح منتجاتهم [5] .

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٢٥ ، ٤٧٠ .

(٢) حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٣٢٨ .

(٣) أحمد عبد الرازق : الحضارة الإسلامية ، ص ٢١٢ ، مانويل جوميث مورينو : الفن الإسلامى وترجمة لطفى عبد البديع وآخر (القاهرة ، ١٩٧٧) ، ص ١٣ ، أرنست كونسل : المرجع السابق ، ص ١٢٤ ــ ١٢٦ .

Gerrit: OP. Cit., P. 118.

(٤) على زين العابدين : المصاغ الشعبى فى مصر (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤) ، ص ٤٦ .

(٥) Thomas, A, : Legacy of Islam. PP. 130-131.

ويشير أحد الباحثين إلى طبيعة العلاقة بين الشكل والوظيفة الاجتماعية فى إحدى الصناعات التى ارتبطت بنساء العامة وهى « القباقيب » ذات الكعب العالى .

ولقد اجتهد الصانع فى إرضاء رغبة المرأة المعاصرة فى إبراز مفاتن قدميها ــ والتى كثيرا ما كانت تزينها بأشكال بديعة من الحناء ــ بالمبالغة فى طول الكعب الذى قد يصل فى بعض الأحيان إلى نحو تسع بوصات [١] .

كذلك اهتم الصانع برسوم الأقمشة ذات الألوان الفاقعة كالأحمر والبنى والأزرق والتى سادت فى عصر الازدهار الاقتصادى للدولة فى القرنين السابع والثامن (١٣ ، ١٤) والتى تميزت بالبساطة عن غيرها فى العصور الحالية فى القاهرة وسائر المدن المصرية [٢] .

وتبين لنا قطعة من المنسوجات الحريرية المحفوظة فى متحف الفن الإسلامى (دار الآثار العربية) بالقاهرة مدى تقدم صناعة الحرائر فى مصر .

وقوام الزخرفة فى هذه القطعة شريطان من الكتابة النسخية المملوكية تتكون فيها عبارة « عز لمولانا السلطان الملك الظاهر » ، وبين هذين الشريطين شريط ثالث من رسوم شجيرات مورقة ، يفصل كل شجيرة منها عن الأخرى رسم فهد يطارد غزالا [٣] .

---

[١] أحمد عبد الرازق : المرأة فى مصر المملوكية ، ص ١٩٤ ــ ص ١٩٦ .

[٢] لمزيد من التفاصيل ، انظر ، محمد جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاون فى مصر ، (القاهرة دار الفكر العربى ، ١٩٤٧) ، ص ٢٩٥ ــ ٢٩٦ ، سعاد ماهر : النسيج (القاهرة ، مطابع الشعب ، ١٩٧٧) ، ص ٨٨ . ديماند : الفنون الإسلامية ، ص ٢٥٦ ــ ص ٢٥٨ ، وكذلك ، سعاد ماهر ، الفنون الإسلامية ، (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ ، ص ٦٣ ــ ٦٩) .

[٣] زكى حسن : المرجع السابق ، ص ٣٦٦ .

كما تميزت المنسوجات المصبوغة والمطبوعة فى العصر المملوكى بدقة الصانع المصرى ومهارته فى انتقاء الخامات الجيدة ، وتثبيت الألوان .

ويبدو أن الصانع اليدوى قد تأثر الطرز الفنية الأسيوية والتى تكشف عنها قطعة من النسيج الحريرى المذهب صنعت خصيصا للسلطان الناصر محمد وعليها نقش يتألف من أشكال ونباتات خرافية [١] .

ومما يذكر أن الملابس المنسوجة والمطرزة والتى شملت مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية فى مدينة القاهرة قد اندثرت تدريجيا فى طرزها المملوكية ، والتى ترتبط بالطبقة العليا فى المجتمع والتى أشار إليها المقريزى فى خططه [٢] ، بينما ظلت الطرز الشعبية باقية حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى (١٩م) .

ومن أمثلة ذلك « الجلباب » الذى مازالت آثاره حتى اليوم لارتباطه بالتقاليد والأعراف المصرية [٣] والثقافة الشعبية السائدة .

وتبين لنا العديد من الطرز الفنية رغبة الفنان العامى فى تلبية مطالب العامة فى مغرض التذوق الفنى .

ولقد اعتمد الصانع فى إخراج منتجاته على المواد الخام المتوفرة بحيث تكون فى متناول الكافة من الناس ، مثال ذلك مادة السكر والتى ازدهر إنتاجها فى العصر المملوكى الأول [٤] أثرت إلى حد كبير فى صناعة تماثيل الحلوى « العلاليق » ذات

---

(١) Thomas: OP. Cit, P. 130

(٢) من المعروف أن صناعة الملابس المملوكية بمختلف أنواعها اعتمد إلى حد كبير على الأساس العسكرى – لوجود الدولة ، وعن أسواق الملابس فى هذا العصر ، المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٩٥ – ص ١٠٤ .

(٣) يذهب أحد الباحثين إلى أن ثمة علاقة وثيقة بين ملابس السيدات (الملبس الشعبى) فى عصر المماليك وعصرنا الحالى ، لمزيد من التفاصيل ، سعد الخادم ، الأزياء الشعبية ، ص ١٧ ، ١٨ .

(٤) المقريزى : الخطط ، ج١ ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

الأشكال الحيوانية المختلفة والتى امتلأت بها أسواق القاهرة فى شتى المناسبات ، وأقبل عليها عامة القاهرة ، وغيرهم من سائر المدن والقرى المصرية [١] .

وقد احتلت صناعة العرائس جانبا كبيرا من اهتمامات الفنان التشكيلى فى القاهرة ، ولم يقتصر دورها على الأطفال والصبية فحسب ، بل امتد ليشمل مختلف الأعمار ، والذين استعملوا بعض أنواع العرائس المحشوة على سبيل التبرك ومنع الحسد [٢] .

وهذه العادة لا تزال موجودة فى القاهرة إذ جرت العادة أن يعلق الناس عروسه أو كفا من المعدن « خمسة وخميسة » [٣] على كل شئ يخشون عليه من أعين الناظرين خاصة إذا كان هذا الشىء جديدا أو ذا قيمة مادية عالية .

وتبدو الصلة بين الفن اليدوى والطبيعة البيئية لعامة القاهرة فى إنتاج المشربيات ـ النوافذ الخشبية ـ والتى حملت من التصميمات الزخرفية ما يناسب أغراضها الاجتماعية فى معرض التذوق الفنى والجمالى للفنان المصرى .

إذ أن الصانع اهتم ـ إلى حد كبير ـ بتكييف الهواء فى فصل الصيف بحيث يؤدى تصميم المشربية إلى كسر حدة الضوء وحجب الشمس المباشرة وإحداث خلخلة لتيار الهواء الداخل من فتحات النوافذ فيصبح رطبا .

ومما يذكر أن المنازل القاهرية روعى فى بنائها أن تحقق هذا الغرض وهو الوقاية من أشعة الشمس المحرقة والاستزادة من الظل وتلطيف درجة الحرارة فيما عرف باسم « المقعد » و « الملقف » [٤] .

---

[١] المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٠٠ ، سعد الخادم ، معالم من فنوننا الشعبية ، ص ١٤ .

[٢] سعد الخادم : المرجع السابق ، ص ٥٣ .

[٣] هى عبارة عن كف فيها خمسة أصابع تصنع عادة من عاج أو من فضة أو نحاس مطلى ويزعم العوام أنها تستلفت النظر فتقع عليها عين الحسود ، فلا يقع الضرر ، أحمد أمين : قاموس العادات ، ص ١٩٥ .

[٤] كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣) ، ص ٧١ ـ ٧٢ .

أضف إلى هذا أهمية المشربية فى تبريد مياه الشرب فى القلل والأباريق الفخارية حتى أن هذا النوع من الشبابيك اكتسب تسميته من هذه الوظيفة [١] .

وتعتبر المشربية وسيلة لحجب النساء من أعين ذوى الفضول من الرجال ، وأن كان هذا لا يمنع المرأة من التجسس على الآخرين [٢] .

ولا تزال القاهرة يوجد بها أنواع من المشربيات التى ترجع إلى القرنين الثانى عشر والثالث عشر (١٨ ، ١٩م) والتى تمتاز بنفس الخصائص التى كانت موجودة فى عصر سلاطين المماليك [٣] .

وتعتبر صناعة الأوانى الفخارية كالقلل من أهم المنتجات التى وجدت قبولا من العامة لأهميتها الوظيفية كوسيلة لتبريد مياه الشرب ، من ناحية ، وأهميتها الفنية كقطعة تشكيلية فى البيت لجلب البهجة والسرور للناظر إليها والشارب من ناحية ثانية والاستمتاع بالشرب من ماءها العذب من ناحية ثالثة .

وكان الفخرانيون « القلالّون » ينتجون أشكالا متباينة من الفخار تمتاز بجدرانها الرقيقة والزخارف والكتابات الجميلة البارزة بالخط الكوفى ، وتزدان بعض القلل بمقابض لتسهل استعمالها وتكون فوهاتها على هيئة رأس طائر أو حيوان كالثور ، وفى هذا النوع قد يستعمل مقبض مجوف لملئها بالماء الذى يصب من فم الحيوان عند الفوهة .

كما حرص الفنان الشعبى على إنتاج نوع من « الزمزميات » الفخارية ، وتكون ذات بُدن مستدير مضغوط ، ورقبة أسطوانية قصيرة على كل جنب منها أذن لتناسب أغراض السفر حيث يمكن تعليقها من المقبض بسرج الراحلة [٤] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٢) Lane Poole: Social life, P. 10.

(٣) ديماند : المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٤) حسن الباشا : القاهرة ، ص ٣٢٥ .

وكان هناك أنواع متعددة من الفخار أكثرها استعمالا تلك التى تتميز برخص ثمنها وهى لا تأخذ قسطا وافرا فى التصنيع ، إلا أن الصانع لم يحرمها من بعض الزخارف التى تكسبها رونقا وجمالا [١] .

كذلك فقد تفنن الصناع فى عمل أباريق لطيفة استخدم فى زخرفتها القوالب الفخارية وقوالب الجص ذات الزخارف المحفورة فى تشكيل بارز على أبدان هذه القطع الفنية المتنوعة .

وقد اعتاد الصانع أن يدون اسمه على بعض الأوانى لإثبات دوره فى إطار الذوق الفنى العامى [٢] . الذى أخرج لنا العديد من القطع الفنية التى تتناسب مع حاجات البيئة الماثلة .

وعلى كل فإن التذوق الفنى العامى فى هذا العصر فيما يتعلق بالفنون التشكيلية اليدوية تميز بأمرين ، الأول : أن إنتاج الأدوات والتحف والقطع الفنية تلائم مع استخدام اليومى لها « الوظيفة الاجتماعية » . والثانى : أن الصانع المصرى اهتم بالجانب الجمالى فى إنتاج هذه القطع ، والمتمثل فى زخرفة وتزيين الأسطح بوحدات زخرفية بديعة [٣] .

كما تميز النتاج الثقافى للعامة بوجه عام بالرؤية الوجدانية للفنان والتى تعكس آمال وتطلعات العامة فى الحياة سواء باستعمال المفردات اللغوية السلسة والتعبير التلقائية البسيطة من غير تعنت أو تكلف ، أو سواء بعمل الأشكال والخطوط والوحدات الزخرفية البسيطة التى ترسم المعانى الفنية القريبة من الذوق العامى والبيئة المصرية السائدة .

***

---

[١] المرجع السابق : ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

[٢] نفسه : ص ٣٢٨ .

[٣] محمد المهدى : كنوز الفن الإسلامى ، ص ٢٤٩ .

خاتمة

كان عامة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك هم السواد الأعظم مــن ســكان العاصمة المصرية ، إلا أن هذا التفوق لم يشفع لهم فى أى أنــواع مــن المشــاركة السياسية ، أو السيطرة على موارد البيئة فى مختلف القطاعات الإنتاجية ــ الزراعة ــ الصناعة ــ التجارة والتى لم يعتن المماليك بالمحافظة عليها أو تطويرها فى ضــوء المتغيرات الاقتصادية التى شهدها الغرب الأوربى فى أواخر القرن التاسع الــهجرى (١٥م) ، بل أنهم كلما فرغوا من لستنزاف إحدى القطاعات الإنتاجية تحولــوا عنــها إلى قطاع ثان ثم قطاع ثالث ، ... وهكذا تلبية لنفقات الجنــد المســتمرة ، وعوائــد الترف والبذخ التى عاش فيها السلاطين والأمراء المماليك .

ولم يمنع النظام العسكرى المملوكى ــ فى ضوء العزلة الاجتماعيــة للممــاليك والتمايز الطبقى الحاد بين الطبقة الحاكمة ومختلف فئات المجتمع المصرى ــ عامــة القاهرة من أن يحتفظوا بالسمات الاجتماعية والموروثات الثقافية والتى لشتركت فيها طوائف المجتمع بغض النظر عن بعض أشكال التمايز فى الــثراء بينــها ، والأدوار الخاص لبعض هذه الطوائف فى علاقتها بالسلطة المملوكية .

وكان عامة القاهرة ، والفئات الدنيا منهم خاصــة ــ كــالزعر والحرافيــش ــ فريسة سهلة لأية أزمة اقتصادية تجتاح البلاد والتى يترتب عليها حدوث المجاعــة أو الوباء أو الاثنين معا ، مما يفتك بأعداد كبيرة منهم ويعرض القــاهرة لحالــة مــن الفوضى الاجتماعية والتدهور الاقتصادى والاضطراب السياسى .

ومما كان يزيد الأمور سوءا أن الدولة حيال هذه الأزمات ــ والتى كثــيرا مــا تعرضت لها البلاد ــ لم تلتزم بتوفير الحلول الإيجابيــة لــها أو تقديــم الخدمــات الاجتماعية المناسبة باستثناء بعض صور التعاطف السلطانى تجــاه بعــض الفئــات كالحرافيش والدراويش بل كانت تدفع لسباب الأزمــة ونتائجــها عــن مســئوليتها المباشرة ، بتوجيه جموع العامة نحو بعض الحلول السلبية فى إطار بعض التصورات الدينية السائجة .

وفى ضوء النظرية السياسية للحكم فى هذا العصر فإن الدور السياسى لعامة القاهرة وقف حدود المشاركة كأداة فى خدمة النظام المملوكى إبان الفتن والصراعات الحزبية للجنود سواء عن وعى منها بهذا الدور تجاه السلاطين أو بدون وعى تجاه البعض الآخر .

إلا أن العامة لم ترض فى بعض الأحيان أن تكون مجرد أداة فى يد السلطة المملوكية فشرعت فى إعلان التمرد والعصيان فى شكل هبات أو انتفاضات لتحقيق أهداف اجتماعية معينة ، غير قادرة ــ فى ذات الوقت ــ على إحداث تغييرات فى الأوضاع السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ــ القائمة . بل أن الدولة قد نجحت فى توجيه تلك الهبات الشعبية لفرض سيادتها على مختلف العناصر المتضاربة مع بعضها البعض .

ومما لا شك فيه أن الحياة الاجتماعية لعامة القاهرة تميزت بسيادة القوالب الدينية التى أظهرتها صورة النشاط اليومى والممارسات الاجتماعية فى الأعياد والاحتفالات والمناسبات المختلفة والتى صارت صورا باهتة فى نهايات هذا العصر فى إطار الأزمة وما يتبع ذلك من نتائج سلبية على حياة أفراد المجتمع ، وشيوع صور الجريمة والفساد والانحلال الأخلاقى الممقوت .

وكانت إفرازات العامة الثقافية تعبيرا تلقانيا عن مظاهر الاغتراب السياسى ، والظلم الاجتماعى والتى عاشتها سائر فئات المجتمع المصرى فى مدينة القاهرة فى هذا العصر ، وعبرت عنها فى إطار نتاجها الثقافى المتنوع .

ولم يحل هذا دون وصول العامة إلى مرحلة الإبداع الفنى فى شتى مناحى الحياة الثقافية والتى مازالت ماثلة حتى اليوم كشاهد على عصر عامة القاهرة المملوكية سواء فى فنون الشكل أو فنون القول لتظل مصر بشعبها العظيم وموقعها الفريد ، وخيرها الوفير حصنا حضاريا لا ينضب لكل بلاد العالم .

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**

- **أولا : المصادر العربية :**

() المخطوطات ،

١) ابن تغرى بردى (أبو المحاسن جمال الدين يوسف ، ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠م):
- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، « الجزء الثالث » ، مخطوط رقم ١٢١٢٦ح ، ٣ أقسام ، ق١ ، ميكروفيلم رقم ٤١٤١٦ ، ق٣ ، ميكروفيلم رقم ٤٠٣٣٩ ، ق٣ ، ميكروفيلم رقم ٣٤٤٣٢ ـ دار الكتب القومية .

٢) ابن دانيال (شمس الدين محمد ت ٧١٠ هـ / ١٣٠٩م) :
- طيف الخيال ، مصور ميكروفيلم رقم ٢٦٥٥ أدب ـ دار الكتب القومية.

٣) ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد ، ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦م):
- الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ، مصور ميكروفيلم رقم ١٤٢٠٦ ـ دار الكتب القومية .

٤) البلوى المغربى (خالد بن عيسى ، ؟) :
- تاج المفارق فى تحلية علماء المشارق ، المعروف « برحلة البلوى » ، مصور ميكروفيلم رقم ٤٠٠ جغرافيا ـ دار الكتب القومية .

() المصادر المطبوعة ،

١) ابن الأثير (محمد بن محمد بن عبد الكريم ، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣١م) :
-الكامل فى التاريخ ، ٩ أجزاء ، (بيروت ، دار الكتاب العربى ، ط٦ ، ١٩٨٦).

٢) ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشى ، ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م) :
- معالم القربة فى أحكام الحسبة ، تحقيق ، محمد محمود شعبان ، وصديق المطيعى ، القاهرة ، ١٩٧٦م) .

٣) ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد ، ت ٩٢٨هـ / ١٥٢٤م) :
- كتاب تاريخ مصر ، المعروف باسم بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ٥ أجزاء، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ط٣ ، ٨٢ ـ ١٩٨٤ .
٤) ابن أيبك (أبو بكر عبد الله الدوادارى ، ت ؟) :
- كنز الدور وجامع الغرر ، الأجزاء السادس ، والثامن ، والتاسع . جـ٦ ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ، ١٩٦١ ، جـ٨ ، المعروف باسم الدرة الذكية فى أخبار الدولة التركية ، تحقيق أولدخ هادمان ، القاهرة ، ١٩٧١ ، جـ٩ المعروف باسم الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق هانس روبرت، القاهرة ، سنة ١٩٦٠ .
٥) ابن بطوطة (محمد بن عبد الله ، ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) :
- تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف باسم الرحلة ، (دار الكتاب المصرى دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٦٨) ، (بيروت ، طبعة صادر ، بدون تاريخ) .
٦) ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ، ت ٨٧٤هـ /١٤٧٠م) :
- منتجات من حوادث الدهور . طبعة كاليفورنيا ، ١٩٣٠ .
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ١٦ جزءا ، جـ١ ـ جـ١٢ ، تحقيق القسم الأدبى بدار الكتب ، جـ١٣ ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، جـ١٤ تحقيق فهيم محمد شلتوت ، وجمال محمد محرز القاهرة ، ١٩٧١ ، جـ١٥ ، تحقيق إبراهيم على طرخان ، القاهرة ، ١٩٧١ ، جـ١٦ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، وفهيم محمد شلتوت ، ١٩٧٢ .
- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، ٤ أجزاء . جـ١ ـ جـ٢ ، تحقيق د/ محمد محمد أمين ، د/ سعيد عاشور ، القاهرة ، ١٩٨٤ جـ٣ ، تحقيق د/ نبيل عبد العزيز ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، جـ٤ ، تحقيق د/ محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٦ .

٧) ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد ، ت ٦١٤هـ / ١٢١٦م) :
- الرحلة ، (بيروت ، دار صادر ـ دار بيروت ، ١٩٦٤) .
٨) ابن الحاج (محمد بن محمد العبدرى الفاسى ، ت ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م) :
- مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة ، المعروف باسم « المدخل » جزءان ، (القاهرة ، ١٢٩١هـ) .
٩) ابن حجر (شهاب الدين أبو العباس أحمد العسقلانى ، ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) :
- إنباء الغمر بأنباء العمر ، الجزءان الأول والثانى (القاهرة ، ١٩٧١م) .
١٠) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد المغربى ، ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) :
- المقدمة ، ٣ أجزاء ، تحقيق د/ على عبد الواحد وافى ، (القاهرة ، دار نهضة مصر ، ط٣ ، بدون تاريخ) .
١١) ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد ، ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) :
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، جزءان ، (القاهرة ، ١٣١٠هـ) .
١٢) ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد ، ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٧م) :
- الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، جزءان ، (تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، بيروت ، بدون تاريخ) .
١٣) ابن سودون (على بن سودون البشبغاوى ، ت ٨٦٨هـ / ١٤٦٤م) :
- نزهة النفوس ومضحك العبوس ، (القاهرة ، بدون تاريخ) .
١٤) ابن الصيرفى : (على بن داود الجوهرى ت ٨٧٧هـ / ١٤٧٣م) .
- إنباء العصر بأبناء العصر ، تحقيق د/ حسن حبشى (القاهرة ، ١٩٧٠م) .
- نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الأزمان ـ ٣ أجزاء تحقيق وتعليق د/ حسن حبشى (القاهرة ، ٧٠ ـ ١٩٧٣م) .
١٥) ابن ظهيرة (جلال الدين أبو السعادات ، ت ٨٦١هـ / ١٤٥٧م) :
- الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا ، وكامل المهندس ، (القاهرة ، ١٩٦٩) .

١٦) ابن عبد ربه (أبو عمر بن محمد ، ت ٣٢٨هـ / ٩٣٨م) :
- العقد الفريد ، ٤ أجزاء « الجزء الرابع » ، (القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٤) .
١٧) ابن الفرات (ناصر الدين محمد عبد الرحيم ، ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م) :
- تاريخ الدول والملوك ، المعروف « بتاريخ ابن الفرات » ، الجزءان : الثامن والتاسع ، تحقيق د/ قسطنطين رزيق ، د/ نجلاء أبو العز ، (بيروت ، ١٩٤٢).
١٨) ابن أبى الفاضل (المفضل بن أبى الفضائل ، ت ؟) :
- النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ العميد (تحقيق بلوشيه ، باريس ، ١٩٢٠م) .
١٩) ابن مسلم (أبو الحسن مسلم بن الحجاج ، ت ٢٦١هـ / ٨٧٥م) :
- الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم (بيروت ، بدون تاريخ) .
٢٠) ابن واصل (جمال الدين محمد ، ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) :
- مفرج المكروب فى أخبار بنى أيوب ، الجزء الثالث ، تحقيق د/ جمال الدين الشيال ، (القاهرة ، دار القلم ، بدون تاريخ) .
- والجزءان الرابع والخامس ، تحقيق د/ حسنين محمد ربيع (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٧٢ ـ ١٩٧٧) .
٢١) الأبشيهى (شهاب الدين محمد بن أحمد ، ت ٨٥٠هـ / ١٤٤١م) :
- المستطرف فى كل فن مستظرف ، جزءان فى مجلد ، (القاهرة ،١٣٠٦هـ).
٢٢) الأصطخرى (أبن اسحق إبراهيم بن محمد ، غير معروف تاريخ وفاته بالتحديد).
- المسالك والممالك ، تحقيق د/ محمد جابر عبد العال ، مراجعة ، محمد شفيق غربال (القاهرة ، دار القلم ، ١٩٦١) .
٢٣) ألف ليلة وليلة :
- ٦ أجزاء فى مجلدين ، (بيروت ، دار العودة ، ١٩٨٨) .
٢٤) بيبرس المنصورى (ابن عبد الله الدوادارى ، ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) :
- التحفة الملوكية فى الدولة التركية ، تحقيق د/ عبد الحميد صالح حمدان ، (القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية ، ط١ ، ١٩٨٧) .

٢٥) الجبرتى (عبد الرحمن ، ت ١٢٣٧هـ / ١٨٢٢م) :
- عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، « الجزء الأول » (بيروت ، دار الجيل بدون تاريخ) .
٢٦) الحريرى (أبو محمد القاسم بن على ، ت ٥١٥هـ / ١١١٩م) :
- كتاب المقامات المعروف باسم « مقامات الحريرى » ، تحقيق ، سلوسترى دسلسى (باريس ، ١٨٥٧م) .
٢٧) السبكى (تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب ، ت ٧٧١هـ / ١٣٦٩م) :
- معيد النعيم ومبيد النقم ، تحقيق محمد على النجار ، وآخرون ، (القاهرة ، دار الكتاب العربى ط١ ، ١٩٤٨) .
٢٨) السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) :
- التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، (القاهرة ، ١٨٩٦) .
٢٩) سيرة الظاهر بيبرس :
- خمسون جزءا فى خمس مجلدات .
- (القاهرة ، مطبعة عبد الحميد محمد حنفى ، بدون تاريخ) .
٣٠) السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن ، ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) :
- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزءان فى مجلد ، (القاهرة ، ١٩٠٩م) .
٣١) الشربينى (يوسف بن محمد بن عبد الجواد ، ت ؟) :
- هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف ، جزءان فى مجلد . (القاهرة ، ١٨٩٠م) .
٣٢) الشعرانى (أبو المواهب عبد الوهاب ، ت ٩٣٧هـ / ١٥٦٧م) :
- ذيل لواقح الأنوار القدسية ، جزءان فى مجلدين ، (القاهرة ، مطبعة بولاق ط٢ ، ١٢٨٦هـ) .
٣٣) الغزالى (أبو حامد الطوسى ، ت ٥٠٥هـ / ١١٠٩م) :
- إحياء علوم الدين، «٤ أجزاء» :(القاهرة، دار الكتب العربية الكبرى، ١٩١٥).

٣٤) العينى (بدر الدين محمود ، ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) :
- عقد الجمان فى تاريخ هذا الزمان ، تحقيق د/ محمد محمد أمين ، (القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧) .
٣٥) القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على ، ٨٢١هـ / ١٤٠٨م) :
- صبح الأعشى فى صناعة الانشا . ١٤ جزءا ، (القاهرة ، دار الكتب ، بدون تاريخ) .
٣٦) ليو الأفريقى (الحسن بن محمد الوزان ت ؟) :
- وصف أفريقيا ، ترجمة عبد الرخمن حميدة (الرياض ، ١٩٧٩م) .
٣٧) الماوردى (أبو الحسن على ٤٥٠هـ / ١٠٥٧م) :
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، (القاهرة دار الفكر العربى ، بدون تاريخ) .
٣٨) المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين ، ت ٣٤٦هـ) :
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، « الجزء الأول » ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، (بدون تاريخ) .
٣٩) المقريزى (تقي الدين أحمد بن على ، ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) :
- المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، المعروف باسم « الخطط » . جزءان ، (القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٧٠هـ) .
- إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق د/ محمد مصطفى زيادة ، د/ جمال الدين الشيال ، (القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٠) .
- شذور العقود فى ذكر النقود ، تحقيق محمد السيد على (القاهرة ، المكتبة الحيدرية ط٥ ، ١٩٦٧) .
- السلوك لمعرفة دول الملوك ، ٤ أجزاء فى ١٢ قسما . جـ١ ـ جـ٢ ، تحقيق د/ محمد مصطفى زيادة ، (القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٤ ـ ١٩٧٢) .
- جـ٣ ـ جـ٤ ، تحقيق د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ، (القاهرة ، دار الكتب ١٩٧٠ ـ ١٩٧٣) .

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا . ٣ أجزاء ، جـ١ ، تحقيق د/ جمال الدين الشيال ، جـ٢ ، جـ٣ ، تحقيق د/ محمد حلمى محمد أحمد ، (القاهرة ، لجنة إحياء التراث الإسلامى ، ٦٧ ـ ١٩٧٣) .

٤٠) النويرى (شهاب الدين عبد الوهاب ، ت ٧٣١هـ / ١٣٣٢م) :

- نهاية الأرب فى فنون الأدب « الجزء الثامن » . (القاهرة ، دار الكتب ، بدون تاريخ) .

٤١) ياقوت الحموى (شهاب الدين بن عبد الله ، ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) :

- معجم البلدان « الجزء الرابع » . (بيروت ، ١٩٨٤) .

- **ثانيا : المراجع والمؤلفات والدراسات العربية :**

١) الدكتور إبراهيم حمادة :

- خيال الظل وتمثيليت ابن دانيال . (القاهرة ، الهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣) .

٢) الدكتور / إبراهيم على طرخان :

- مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة . (القاهرة ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦٠) .

- النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى . (القاهرة ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦٨) .

٣) الدكتور / أحمد أحمد بدوى :

- الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية فى مصر والشام . (القاهرة ، دار نهضة مصر ، ط٢ ، بدون تاريخ) .

- الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام . (القاهرة ، دار نهضة مصر ، بدون تاريخ) .

٤) الدكتور / أحمد أمين :

- قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية . (القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط١ ، ١٩٥٣م) .

٥) الأستاذ / أحمد تيمور :

- خيال الظل ، (القاهرة ، لجنة نشر المؤلفات التيمورية ، ١٩٥٧) .

- الكتابات العامية ، (القاهرة ، مطابع الأهرام التجارية ، ط٣ ، ١٩٧٠) .

- الأمثال العامية ، (القاهرة ، مركز الأهرام ، ط٤ ، ١٩٨٦) .

٦) الأستاذ / أحمد رشدى صالح :

- الفنون الشعبية ، (القاهرة ، المكتبة الثقافية ، ١٩٦١) .

- الأدب الشعبى ، (القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٣ ، ١٩٧١) .

- التجميل والتزيين والأزياء (مجلة الفنون الشعبية ، العدد ٢٢ ، ١٩٨٨) .

٧) الدكتور / أحمد صادق الجمال :

- الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى ، (القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦) .

٨) الدكتور / أحمد عبد الرازق :

- المرأة فى مصر المملوكية ، (القاهرة ، مكتبة الشريف وسعيد رأفت ، ١٩٧٤) .

- البذل والبرطلة فى زمن سلاطين المماليك ، (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩) .

- الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، (القاهرة ، مكتبة سعيد رأفت ، ١٩٨٣) .

- عقدا نكاح من عصر المماليك البحرية ، (المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، الكويت ، المجلد السادس ، العدد ٢٢ ، ١٩٨٦) .

٩) الدكتور / أحمد على مرسى :

- مفهوم الشر فى الأدب الشعبى ، (الكويت ، مجلة عالم الفكر ، المجلد ١٧ العدد الأول ، ١٩٨٦) .

١٠) الدكتور / أنطوان خليل ضومط :

- الدولة المملوكية ، (بيروت ، دار الحداثة ، ١٩٨٠) .

١١) الدكتور / توفيق الطويل :

- التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى « جــزءان » ، (القــاهرة ، الهيئــة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨) .

١٢) الدكتور / بدرى محمود فهد :

- العامة فى بغداد فى القرن الرابع الهجرى (بغداد ، ١٩٦٧) .

١٣) الدكتور / حسن الباشا وآخرون :

- القاهرة ، تاريخها ، فنونها ، آثارهـــا ، (القــاهرة ، دار الكتـاب الجديـد ، ١٩٧٠) .

١٤) الدكتور / حسين محمد فهيم :

- أدب الرحلات ، (الكويت ، علام المعرفة ، ١٩٨٩) .

١٥) الدكتور / حسين نصار :

- الثورات الشعبية فى مصر الإسلامية ، (بيروت مطابع اقرأ ، ط٢ ، ١٩٨٠).

١٦) الدكتور / زكى مبارك :

- التصوف الإسلامى فـــى الأدب والأخــلاق ، « جــزءان » (القــاهرة ٣٨ ــ ١٩٥٤) .

١٧) الدكتور / زكى محمد حسن :

- فنون الإسلام ، (القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط١ ، ١٩٤٨) .

١٨) الدكتور : سعيد عبد الفتاح عاشور :

- مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، (القاهرة ، مكتبة النهضة المصريـــة ١٩٥٩) .

- المجتمع المصرى فى عصر سلاطين الممـــاليك ، (القــاهرة ، دار النهضــة العربية ط١ ، ١٩٦٢) .

- الظاهر بيبرس (القاهرة ، أعلام العرب ، رقم ١٤ ، ١٩٦٣م) .

- السيد البدوى ــ شيخ وطريقـــة (القــاهرة ، أعــلام العــرب ، رقــم ٥٨ ، ١٩٦٦م).

- التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك (القاهرة ، ندوة ابن إياس ، ١٩٧٣م) ص ٦٣ ــ ٨٩ .
- العصر المماليكى فى مصر والشام ، (القاهرة ، دار النهضة العربية ، ط٢ ، ١٩٧٦) .
- الحركة الصليبية ، « الجزء الثانى » ، (القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٢ ، ١٩٧٦) .

١٩) الدكتورة / سعاد ماهر :
- الخزف التركى ، (للقاهرة ، مطابع مدكور ، ١٩٦٠) .
- النسيج ، (القاهرة ، مطابع الشعب ، ١٩٧٧) .
- الفنون الإسلامية ، (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦) .

٢٠) سعد الخادم :
- معالم من فنوننا الشعبية ، (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦١) .
- الأزياء الشعبية ، (القاهرة ، المكتبة الثقافية ، ١٩٦١) .
- تصويرنا الشعبى خلال العصور ، (القاهرة ، المكتبة الثقافية ، ١٩٦٣) .
- الدمى المتحركة عند العرب ، (القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، بدون تاريخ) .

٢١) الدكتورة / سهام مصطفى أبو زيد :
- الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى وحتى العصر المملوكى ، (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦) .

٢٢) الدكتورة / سهير القلماوى :
- ألف ليلةِ وليلة ، (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦) .

٢٣) الشيخ / سيد سابق :
- فقه السنة ، « ١٤ جزءا » ، (القاهرة ، المطبعة النمونجية ، بدون تاريخ).

٢٤) الدكتور / شوقى ضيف :
- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، (القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥) .

- الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية ، (القاهرة ، دار الفكر العربـــى ، ط١ ، ١٩٤٩) .

٢٥) الدكتور / عبد الحميد يونس :

- خيال الظل ، (القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥) .

- الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى ، (القاهرة ، مكتبة النهضة المصريـــة ، بدون تاريخ) .

٢٦) الدكتور / عبد الرحمن زكى :

- القاهرة ، (القاهرة ، دار المستقبل ، ط٢ ، ١٩٤٢) .

- الفن الإسلامى ، (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤٨) .

٢٧) الدكتور عبد العزيز الدورى :

- نشوء الأصناف والحرف فى الإسلام (بغداد ، مجلة كلية الآداب ، العدد الأول، ١٩٥٩م) .

٢٨) الدكتور / عبد اللطيف حمزة :

- الحركة الفكرية فى مصر فى العصريين الأيوبى والمملوكى الأول ، (القـــاهرة دار الفكر العربى ، ١٩٤٧) .

- الأدب المصرى ، (القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، بدون تاريخ) .

٢٩) الدكتور / على زين العابدين :

- المصاغ الشعبى فى مصر ، (القاهرة ، الهيئة المصريـــة العامـــة للكتـــاب ، ١٩٨٨) .

٣٠) الدكتور / على سيد على :

- القاهرة فى عيون الرحالة الأوربيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشـــر (القاهرة ، مجلة افكر ، العدد ١٣ ، ١٩٨٨) .

٣١) الأستاذ / فاروق خورشيد :

- السيرة الشعبية العربية ، (القـــاهرة ، الهيئـــة المصريـــة العامـــة للكتـــاب ، ١٩٨٨).

- عالم الأدب الشعبى العجيب ، (القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٨٨) .

- أضواء على السيرة الشعبية ، (بيروت مطابع إقرأ ، بدون تاريخ) .

٣٢) الدكتور / فايد حامد عاشور :

- العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٤).

٣٣) الدكتور : قاسم عبده قاسم :

- النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، (القاهرة دار المعارف، ط١ ،١٩٧٨) .

- أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، (القاهرة ، دار المعارف ، ط٢ ، ١٩٨٣) .

- دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، (القاهرة ، دار المعارف ، ط٢ ١٩٨٣).

- بين الأدب والتاريخ ، (القاهرة دار الفكر ، ١٩٨٦) .

- اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، (القاهرة ، دار الفكر، ط١ ، ١٩٨٧) .

- الشخصيات التاريخية فى سيرة الظاهر بيبرس ، (محاضرة فى ٧ ديسمبر ١٩٨٦م ونشرت بمجلة الفنون الشعبية ، العدد ١٨ ، ١٩٨٧) ، ص٢١ ــ٣٥ .

٣٤) الدكتور / كمال الدين سامح :

- العمارة الإسلامية فى مصر ، (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٢ ، ١٩٨٣) .

٣٥) الدكتور / محمد جمال الدين سرور :

- الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ، (القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٨) .

- دولة بنى قلاون فى مصر ، (القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٤٧) .

٣٦) الدكتور / محمد رجب النجار :

- حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى ، (الكويت ، عالم المعرفة ، ١٩٨١) .

٣٧) الدكتور / محمد عاطف غيث ، وآخرون :

- قاموس علم الاجتماع ، (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩).

٣٨) الدكتور / محمد كامل الفقى :

- الأدب العربى فى العصر المملوكى ، (القاهرة ، دار الموقف العربى ، ط٣ ، ١٩٤٨) .

٣٩) الدكتور / محمد محمد أمين :

- الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر عصر سلاطين المماليك ، (القاهرة ، دار النهضة العربية ، ط١ ، ١٩٨٠) .

٤٠) الدكتور / محمد مندور :

- فن الشعر ، (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥) .

٤١) الدكتور / محمد المهدى :

- كنوز الفن الإسلامى ، (الكويت ، مجلة عالم الفكر ، المجلد ١٧ ، العدد الأول، ١٩٨٦) .

٤٢) الدكتور / محمود ذهنى :

- الأدب الشعبى العربى ، « مفهومه ومضمونه » (القاهرة ، دار الاتحاد العربى للطباعة ، ١٩٧٢) .

٤٣) المعاجم اللغوية العربية :

٤٤) معتز شكرى :

- الأمثال العامية لأحمد تيمور ، (القاهرة ، مجلة الفنون الشعبية ، العدد ٢٤ ١٩٨٨) .

٤٥) الموسوعة العربية الميسرة ، (القاهرة دار القلم ، ١٩٦٥) .

٤٦) الدكتور / نصر أبو زيد :

- الفوازير ، (القاهرة ، مجلة الفنون الشعبية ، العدد ، ١٩٨٧) .

- **ثالثاً : المراجع المترجمة :**

١) ادمان (أروين) :

- الفنون والإنسان ، ترجمة حمزة الشيخ ، (القاهرة ، ١٩٦٥) .

٢) آشتور (أ . ى) :

- التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، ترجمة عبد الهادى عبلة ، (دمشق ، دار قتيبة ، ١٩٨٥) .

٣) جيب (هـ . أ . ل) :

- علم التاريخ ، ترجمة ، إبراهيم زكى خورشيد وآخران ، (لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية ، بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٨١) .

٤) ديماند (م . س) :

- الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٤) .

٥) ريمون (أندريه) :

- تاريخ مصر الاجتماعى ، ترجمة زهير الشايب ، (القاهرة ، مؤسسة روز اليوسف ، ١٩٧٤) .

٦) فولكف (أولج) :

- القاهرة ، مدينة ألف ليلة وليلة ، ترجمة أحمد صليحة ، (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦) .

٧) فييت (ج) :

- القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ترجمة مصطفى العبادى (القاهرة مؤسسة أخبار اليوم ، ١٩٩٠) .

٨) كلوت بك (أ . ب) :

- لمحة عامة إلى مصر ، جزءان ، ترجمة محمد مسعود (القاهرة ، ١٨٤٠) .

٩) كونل (أرنست) :

- الفن الإسلامى ، ترجمة د/ أحمد موسى ، (القاهرة ، مطبعة أطلس ، ١٩٦١).

١٠) ماير (ل ٠ أ) :

– الملابس المملوكية ، ترجمة أ / صالح الشيتى وعبد الرحمن فهمى (دكتـــور) (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢) .

١١) مورينو (م ٠ ج) :

– الفن الإسلامى فى أسبانيا ، ترجمة لطفى عبد البديع ، وآخــــر ، (القـــاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧) .

• رابعا :المراجع الأجنبية :

• Dopp. P.H:

1) au Commecement du Quinzieme Siecled apres le Traite piloti de Crete, le Caire 1950.
- Gerrit, P.Judd:
2) A History of Civilization, London.
- Lane, E.W :
3) An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, London, 1960.
- Lane Poole. S :
4) Social Life in Egypt, London, 1883.
5)
Life, London, 1898.
6) History of Egypt in the Middle Ages, London, 1901.
- Popper, K.R :
7) The Poverty of Historicism, London, 1957.
- Schemeil, M :
8) Le Caire, Sa vie, San Histoire, Son Peuple, Le Caire, 1949.
- Thomas, A :
9) Legacy of Islam, London, 1931.
- Thompson, J.W :
10) History of the Middle Ages, London, 1931.

•••

المحتويات

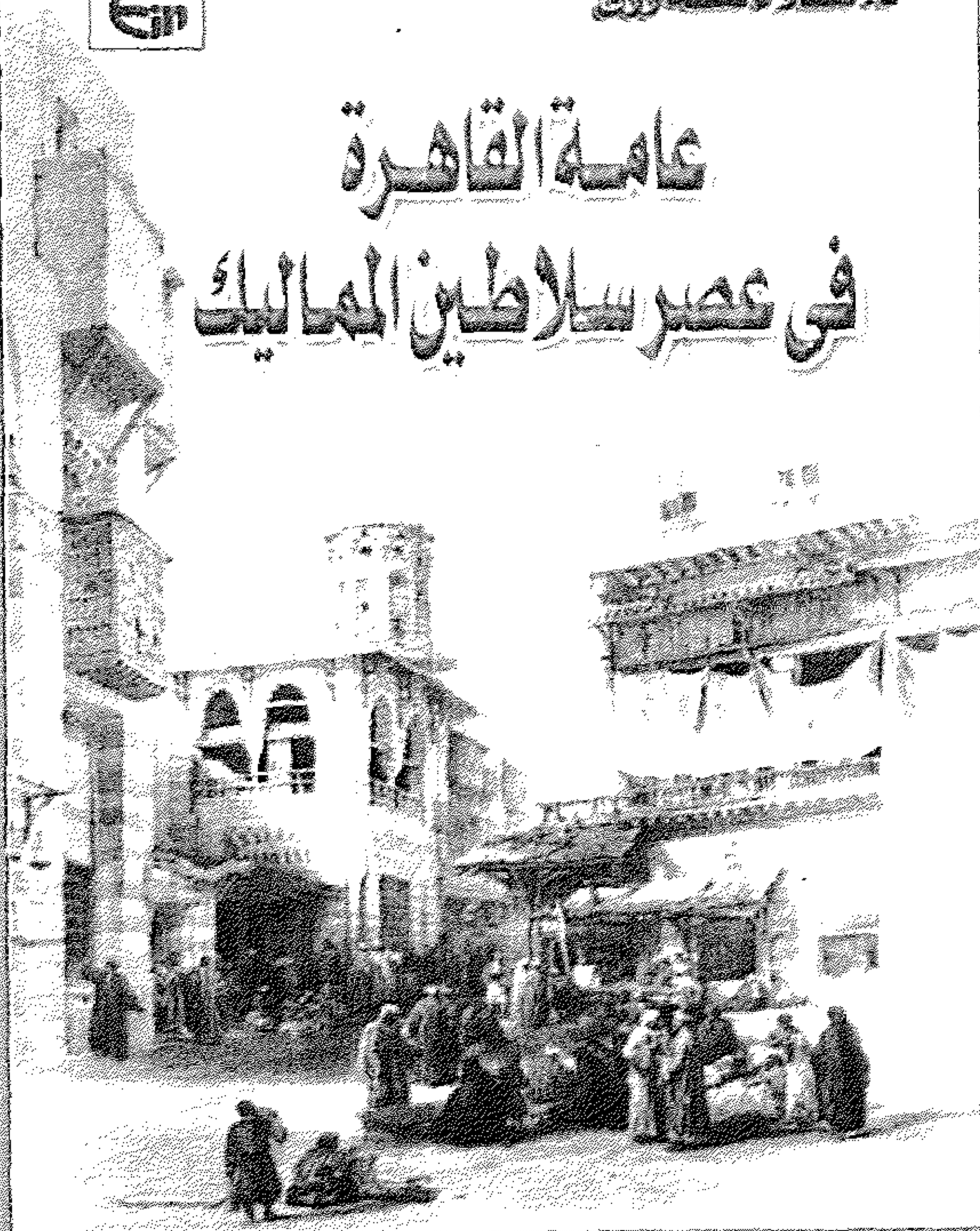
صفحة

رقم الإيداع ١٥٦٥٦ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 322 - 121 - 0

مطابع زمزم ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق







للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES